سلسلة أركان الإيمان ٤

الإيمان بالرسل والرسالات

د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

الإيمان بالرسل والرسالات

سلسلة أركان الإيمان (٦)

قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

الإيمان بالرسل والرسالات

بقلم
علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الإهداء

إلى كلِّ إنسانٍ في الوجودِ يبحثُ عن حقيقةِ الرسل والرسالاتِ أهدي هذا الكتاب.

سائلاً المولى عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يكونَ خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلِلْ فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

يا ربِّ لك الحمدُ حتى ترضى ، ولك الحمدُ إذا رضيتَ ، ولك الحمدُ بعد الرضى.

أما بعد: فهذا الكتاب: «**الرسل والرسالات**» هو خاتمة سلسلة أركان الإيمان ، وقد تحدّثت فيها عن الخالق العظيم ، والرازق الكريم ، الفعّال لما يريد ، الكريم المنّان ، الواسع العليم ، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في الدنيا وعالمِ التاريخ عظمته في الحياةِ ، وفي قيام الدولِ وزوالِها ، وانتشارِ الحضاراتِ واندثارِها ، وعزِّ الحكوماتِ وإذلالها ، وقصص الناس ، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة ، وفي هذا الكون الفسيح ، وحركة التاريخ ، كم مِنْ ملوكٍ وأمراء وقادة وحكام ، وعلماء وفقهاء وفلاسفة وعوام الناس لا يحصيهم إلا الذي خلقهم ، قد

ماتوا وأصبحوا في الأمس الغابر ، ودخلوا في عالم البرزخ العظيم.

علمتني الحياةُ أنَّ المؤمنَ لا يقنع بأمر يسكنُ إليه دون الله ، ولا يفرحُ بما حصل له دون الله ، ولا ييأس على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولا يفرح إلاّ بموافقته لمرضاة الله ، ولا يخافُ إلا من سقوطه من نظر الله ، فكلّه بالله ، وكلّه لله ، وكلّه مع الله ، وسيرُه دائماً إلى الله ، يحبّ اللهَ ، ويحبّه الله ، ويرضى بالله ، ويرضى عنه الله.

إنّ بين العبدِ وبين ربِّه مسافة لا تُقْطع إلا بقطع العلائق ، ورفض العوائق ، وكيف يصل إلى الله مَنْ لا يسيرُ وهو في قبضة العوائق أسير؟!. **قال تعالى:** ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

كلُّ شيء تخافه فإنّكَ تفرُّ منه وتهربُ إلا الواحد الأحد ، فإن من خافه يفر منه إليه ، ويهرب من سخطه إلى رضوانه ، ومن وعيده إلى وعده ، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، الفرارُ إلى الله تعالى هو الانطراحُ ببابه ، والانكسارُ لجنابه ، هو اللجوءُ إليه تعالى ، والدخولُ في الإيمان والطاعة ، والهروبُ من المعصية والخطيئة.

والفرار نوعان: فرار السعداء ، وفرار الأشقياء ، **ففرار السعداء:** هو الفرار إلى الله عز وجل ، **وفرار الأشقياء:** هو الفرار منه تعالى لا إليه ، والذي يظنُّ أنه يستطيع أن يفرَّ من الله تعالى ، وأن يفلتَ من قبضته ، فهو جاهلٌ أحمق ، فإنَّ المرجع إليه ، والمصير إليه[١].

لقد رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ أهميةَ الإيمان للإنسان والشعوب والجماعات والأمم ، وقد حرصتُ على أن يكون أسلوبُ هذه السلسلة واضحاً ، معتمداً على الأدلةِ من القرآن والسنة الصحيحة ، وابتعدتُ كلَّ البعدِ عن مناهجِ الفرق الكلامية ، والمذاهب الفلسفية ، والمسائلِ الجدلية العقيمة.

وحرصتُ على أن أبيِّن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من صفاءٍ ووضوحٍ في أصولِ الإيمان.

---

(١) الله أهل الثناء والمجد. ناصر الزهراني ص (٦٨١).

وهذه السلسلةُ تهدف إلى مخاطبة العقول ، وإحياء القلوب ، وتحريك فطرة الإنسان ، وربط الناس بالخالق العظيم ، وبيان ما يجبُ على المكلّف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل ، وقد كُتِبَتْ بطريقةٍ يستفيدُ منها العالم ، وطالبُ العالم ، وعوامُّ الناس ، ومن أشغلتهم زحمةُ الحياة عن البحث والتنقيب ، فهذه زبدةُ سنين من العكوف على مئات المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، تقدَّم بين يدي القارئ الكريم .

والمنهجية التي سرت عليها قد خضعتْ لمناقشاتٍ وحواراتٍ مع العلماء والفقهاءِ وطلّابِ العلم ، وبعضِ العلماء الذين استفدتُ من توجيهاتهم وأفكارهم منهم **الدكتور يوسف القرضاوي** ، و**الدكتور سلمان العودة** ، و**الدكتور عائض القَرَني** الذي كان يمازحني ويقول لي: إنّ الله عزّ وجل يوم القيامة لن يسأل الأفارقة ولا غيرهم عن السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والتتار ـ ولكن سيسألهم عن التوحيد والإيمان ، وكان يشجّعني بقوّةٍ للاهتمام بالتفسير ، والحرص على الطرح القرآني والنبوي الكريم ، وكذلك **الدكتور محمد طاهر البرزنجي** وغيرهم من الأخوة الكرام والسادة العلماء والمفكرين فلهم مني الدّعاء الصالح في ظهر الغيب .

فهذه السلسلة «أركان الإيمان» كانت فكرةً ، وأصبحت حقيقةً بفضل الله وتوفيقه ، وهي الآن في متناول الدعاة والخطباء والعلماء والساسة ورجال الفكر وطلاب العلم وعموم الناس ، لعلّهم يستفيدون منها في حياتهم ، وبعد مماتهم .

إنّ الأيام تمضي ولا أعلمُ أحداً من الناسِ حقّق كلَّ ما يريده قبل أن يغادرَ هذه العاجلة .

وطموحاتي العلمية والفكرية والثقافية لا تنتهي ، وأنا على يقينٍ بأنني سأرحلُ من هذه الحياة قبل تحقيقها ، ولذلك رأيتُ أن أذكر بعض هذه المشاريع لعلّ الله يشرحُ قلوب بعض طلاب العلم أو العلماء أو الباحثين لكتابتها بطريقة منهجية صحيحة ، لعلّها تساهِم في نهضة الأمة ، وتنوير الطريق أمام الأجيال القادمة ، التي ستحمِلُ رايةَ الإسلام ، وتعمل على إعادة دوره الحضاري في قيادة الأمم والشعوب ، وإخراجها من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام .

وهذه المشاريع تهدف إلى الاهتمام بالآتي بحيث تكونُ من ضمن الثقافة العامة للناس :

١ ـ الاهتمام بمقاصد الشريعة .

٢ ـ فك الاشتباك بين السياسة الشرعية والعقائد .

٣ ـ استيعاب فقه السنن ، والنظر في آثارها في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والحضارات .

٤ ـ إعادة النظر والبحث في القصص القرآني ، واستخراج العبر والدروس والسنن وربطها بواقع الحياة .

٥ ـ تقديم القيم والمبادئ الإنسانية العامة من خلال التصور الإسلامي ، كالشورى ، والحريات ، والمساواة ، والعدالة ، وحقوق الإنسان ، والمرأة ، وتقديم رؤية للدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام .

٦ ـ استخراج منهج للتزكية وعلم السلوك من الكتاب والسنة وتراث الأمة يلائم العصر .

٧ ـ الاهتمام بالدّراساتِ المتعلّقة بعلم الإدارة والتخطيط ، والمتابعة والتنظيم ، والتطوير ، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة والتأصيل .

٨ ـ الاهتمام بفقه الجهاد ، وتطوير المؤسسات العسكرية في الدول الإسلامية والجمع بين الإعداد المعنوي والمادي ، ومتابعة التقنيات الحديثة في هذا المجال .

٩ ـ دراسةُ المشاريع الغازية قديماً وحديثاً ، والعمل على إيجاد مشروع حضاري يستوعبُ طاقات الأمة لكي تتصدّى لهذه المشاريع أو تحاورها من موقف قوة .

١٠ ـ دراسةُ فقد الموازنات ، والأَوْلَوِيات والاختلاف ، وفقه المالآت .

١١ ـ البحثُ عن السبل والوسائل لإحياء وتطوير الاجتهاد الجماعي وغيرها من المشاريع العلمية الهادفة والمهمة لنهضة شعوبنا وأمتنا .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] .

● **هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى فصولٍ :**

فالفصل الأول : كان الحديث فيه عن مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما ، وتعريف النبي والرسول ، والفرق بين الرسول والنبي .

وفي الفصل الثاني : تكلّمتُ عن وجوب الإيمان بالرسل ، وموجز تاريخهم .

والفصل الثالث : تضمّن خصائصَ وسماتِ دعوة الأنبياء ، وتفاضلهم فيما بينهم .

والفصل الرابع : أشرتُ فيه إلى جوانب الاقتداء بهدي الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام .

وفي الفصل الخامس : فصّلتُ الحديثَ عن الوحي ، وإثبات النبوة ، والمعجزات .

وفي الفصل السادس : لخّصت فيه خصائص الرسالة المحمدية ، وحقوقَ النبيِّ ﷺ على أمته .

ثم كانت **الخاتمة** .

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم ٢٤/ ذي الحجة ١٤٣١هـ الموافق ٣٠/ ١١/ ٢٠١٠م الساعة السادسة إلا ربع بعد صلاة المغرب بتوقيت الدوحة .

والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّلَ هذا العملَ قبولاً حسناً ، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين .

قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

وبهذا الكتاب أضعُ سلسلة أركان الإيمان بين يدي قارئيها ، ولا أدّعي الكمال فيها ، كما قال الناظم :

ومــا بهــا مِــنْ خطـأٍ ومِــنْ خَلَــلْ   أَذِنْــتُ فــي إصـلاحِـهِ لِمَــنْ فَعَــلْ
لكــنْ بِشَــرْطِ العِلْــمِ والإنْصَــافِ   فــذا وذا مِــنْ أَعْظَــمِ الأَوْصَــافِ

والله يهـــــدي سُبُـــــلَ الســــلامِ سبحـــانـــه بِحَبْلِـــهِ اعْتِصَـــامـــي

فلله الحمد على ما منّ به عليّ أولاً وآخراً ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، أن يجعل هذه السلسلة الإيمانية لوجهة خالصة ، ولعباده نافعة ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢] .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنتَ ، أستغفرْكَ وأتوبُ إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين(١) .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلاّبي

(١) أيها الإخوة الكرام: يسرّني أن تصلني ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر ، وأطلب من إخواني الدعاء لي بظهر الغيب بالإخلاص لله ، والصواب ، لخدمة دينه العظيم.

Mail:inf@alsaallaby.com
Website:www.alsallaby.com

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة
والفرق بينهما

أولًا ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً.

ثانياً ـ تعريف الرسول لغة.

ثالثاً ـ الفرق بين النبي والرسول.

* * *

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً:

أ ـ تعريف النبوة لغةً:

للنبوّةِ عند أهل اللغة ثلاثةُ استعمالات:

١ ـ حينما تكون مشتقةً من النبأ، فتكون بمعنى الإخبار، لأنّ النبأ معناه الخبر، ومنه **قوله تعالى**: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ ـ ٢].

٢ ـ حينما تُشْتَقُّ من النباوة، أي الطريقُ الواضحة، فتكونُ بمعنى الطريق الموصلة إلى مرضاة الله عز وجل[١]، وكل هذه المعاني موافقةٌ للمعنى الشرعي للنبوة.

ب ـ تعريف النبوة شرعاً:

هي أخبارُ رجُلٍ عن اللهِ عز وجل بما أُوْحِيَ إليه من ربّه، وهي أيضاً رفعةٌ لصاحبها، لما فيها من التكريم والتشريف، فإن مقامَ النبوّة مقامٌ رفيعٌ، لا يكون إلاّ لمن يقع عليه الاختيار من الله عز وجل بحمل أعباء الرسالة، وإبلاغها للناس، **يقول الله تعالى**: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، **وقال تعالى**: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

كما أنها الطريق الواضحة الجلية، الذي لا يمكن الوصول إلى مراضي الله، واجتناب مساخطه؛ والفوز بجنته؛ والنجاة من ناره؛ إلا عن طريقه.

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني ص (٢٩٥).

إلاّ أنّ أخصَّ تلك المعاني بالدلالة هو الاستعمال الأول ، لأنّ وظيفةَ النبي الرئيسة هي الإخبارُ عن اللهِ ، وإبلاغُ الأمةِ بما أُوحِيَ إليه من ربِّه[١] .

ثانياً ـ تعريف الرسول لغة:

الرسول مأخوذٌ من الإرسال. أي البعثُ والتوجيه ، والرسول بمعنى الرسالة وهو الذي يتابعُ أخبارَ الذي بعثه[٢] ، ومنه **قوله تعالى**: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

وعلى ذلك فالرسل إنّما سُمّوا بذلك ، لأنّ الله أرسلهم وبعثهم بالرسالات إلى أممهم ، وكلّفهم بحملها وتبليغها ، **قال عز وجل**: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ثالثاً ـ الفرق بين النبي والرسول:

ذهب بعضُ العلماء إلى التفريق بين النبيِّ والرسول ، وعرّفوا **النبيَّ** بأنَّه إنسانٌ أوحيَ إليه بشرعٍ سواءٌ أمر بتبليغه أم لم يؤمر ، **والرسول** هو إنسانٌ أُوحي إليه بشرعٍ ، وأُمر بتبليغه للناس ، فالنبيُّ أعم من الرسول ، فمن نبئ وأُمر بتبليغ ما نُبِّئَ به إلى الناس فهو نبيٌّ ورسولٌ ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبيٌّ غيرُ رسولٍ ، وعليه **فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولٌ**[٣] .

ويشهد لهذا التفريق ما ورد من الوصف بالمصطلحين وفيه إشعار بتغاير المفهومين في الاصطلاح الشرعي ، ومن ذلك **قوله تعالى**: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

ومثال النبيِّ غير الرسول (يوشع) صاحب موسى وفتاه ، فقد نبّأه الله ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل ، وهو الذي غزا بيتَ المقدس وفتحها.

ومثال النبيِّ الرسول نبينا محمد ﷺ ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس

---

(١) الشيخ عبد القادر ص (٢٩٦).

(٢) لسان العرب ، لابن منظور (١١/ ١٤/ ٢) الشيخ عبد القادر ص (٢٩٦).

(٣) أما العضد الإيجي فيرى أن الرسول أعم من النبي ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، **لأن كل نبي رسول ، وليس كل رسول نبي** ، ويمثّل لذلك بجبريل عليه السلام ، فهو رسول بنصّ القرآن الكريم ، ولكنه ليس نبياً (ن).

أجمعين ، وكذلك سائِرُ الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم المذكورين في القرآن الكريم.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ الكلمتين مترادفتان ، ولهما مدلولٌ واحد ، فالنبيُّ يسمّى رسولاً ، والرسول يسمى نبياً ، فيسمى رسولاً بالنظر إلى ما بينه وبين الناس الذين أرسله الله تعالى إليهم ، ويسمى نبيّاً بالنظر إلى ما بينه وبين الله ، حيث إنه نبي أوحي إليه ، وكلاهما متلازمان ، **وقد ذهب إلى هذا الرأي القاضي عياض والسعد التفتازاني**(١).

وذهب آخرون إلى رأي غير هذين الرأيين ، مفاده أن النبيَّ هو مَنْ أوحى الله إليه ، وهو يبلغ ما أوحي إليه ، لكنّه لم يرسل إلى قوم كافرين ، ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان ، أمّا الرسول فهو مَنْ أرسل إلى قومٍ كفّارٍ يدعوهم للتوحيد ، **فإن الله تعالى قال**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]. فذكر أنَّ الإرسال يعمُّ الرسول والنبي ، وخصَّ أحدَهما بأنه رسول ، وهذا هو الرسول المطلق ، الذي أمر بتبليغ رسالة الله إلى قوم خالفوا أمر الله ، ووقعوا في الشرك ، كما كان شأنُ نوحٍ عليه السلام ، وقد ثبت في (الصحيح) أنّه أوّل رسولٍ بُعِثَ إلى الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كآدم وإدريس عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٢] دليلٌ على أنَّ النبيَّ مرسلٌ ، ولا يسمّى رسولاً عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنّه الحق ، كالعالم ، ولهذا قال النبي ﷺ: «**العلماءُ ورثةُ الأنبياء**». وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإنّ يوسفَ كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة(٢).

---

(١) حاشية الباجوري على الجوهرة ص: ٦ ، العقيدة الإسلامية أركانها وآثارها على الفرد والمجتمع ، د. أحمد محمد الجلي ص: ٢١٩.
(٢) كتاب النبوات ، ابن تيمية ص (١٧٢ ـ ١٧٣).

والتعريف المختار أنّ الرسول مَنْ أُوحي إليه بشرعٍ جديدٍ ، والنبيُّ هو المبعوثُ لتقرير شرعِ مَنْ قبلَه[١] .

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلّما مات نبي قام نبي ، كما ثبت في الحديث[٢] ، وأنبياءُ بني إسرائيل مبعوثون بشريعة موسى (التوراة) ، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحيَ الله إليهم ، **قال تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] .

فالنبيُّ كما يظهر من الآية يوحى إليه شيءٌ يوجِبُ على قومه أمراً ، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ ، واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى ، فهؤلاء جميعاً أنبياء ، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل ، والحكم بينهم ، وإبلاغهم الحق ، والله أعلم بالصواب[٣] .

* * *

---

(١) الرسل والرسالات عمر الأشقر ص (١٥).
(٢) البخاري ومسلم ، الرسل والرسالات ص (١٥).
(٣) المصدر السابق ص (١٥).

الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً ـ وجوب الإيمان بالرسل الكرام .
ثانياً ـ موجز تاريخ الرسل الكرام .
ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها .
رابعاً ـ حقيقة النبوة .
خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل الكرام .
سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل الكرام .
سابعاً ـ من أهم صفات الأنبياء والمرسلين .
ثامناً ـ شبهات حول عصمة الأنبياء .
تاسعاً ـ مَنِ اختلف في نبوتهم

* * *

الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً ـ وجوب الإيمان بالرسل الكرام:

من المسلّمات البدهية في الإسلام ، التي اعتبرت ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: **الإيمان بالنبوة والوحي ، والتصديق برسالات الله وبرسله إلى خلقه ، الذين بعثهم مبشّرين ومنذرين ، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.**

فلا يصحُّ إيمان مؤمن ، ولا يدخلُ في دين الله ، ولا يُقْبَلُ في جماعةِ المؤمنين ، ما لم يؤمنْ بكلِّ كتابٍ أُنزل ، وبكلِّ نبيٍّ أُرسل.

وهذا أمرٌ في غايةِ الوضوح في كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، لا يرتاب فيه مسلم ، ولا يتردد فيه عقل ، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البرِّ وأركان الإيمان ، ردّاً على اليهود ، الذين أثاروا ضجّة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة[1]. **قال تعالى**: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، **وقال سبحانه**: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحةً.

وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر **بقوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) فتاوى معاصرة يوسف القرضاوي (٣/ ١٦٧).

وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

وفي السنة حديثُ جبريلَ المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: «**الإيمانُ: أن تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمن بالقدرِ**»[1].

وإنّما لم يذكر القرآنُ الكريمُ الإيمانَ بالقدر، لأنَّه من جملة الإيمان بالله تعالى، فهو إيمانٌ بمقتضى الكمال الإلهي، وأنّه عَلِمَ كلَّ شيءٍ وأراده قبل أن يقعَ، **قال تعالى**: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المهم أنَّ الإيمان بالرسلِ لا ريبَ فيه، ولا خلافَ عليه، ولهذا ورد أنَّ

---

(١) مسلم رقم (٨).

الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسين: أولهما: **ماذا كنتم تعبدون؟** والثاني: **بماذا أجبتم المرسلين؟** ويقول تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦].

ولقد ردّ القرآنُ الكريم على المكذّبين، الذين استبعدوا أن يرسلَ الله إليهم رسولاً يبشّرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، **قال عز وجل** على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

المهم أنّ الإيمانَ برسل الله جميعاً عقيدةٌ إسلاميةٌ أساسيةٌ، ومن كذَّب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً فكأنما كذّب المرسلين جميعاً، وهذا ما يقرره القرآن الكريم حينما **قال تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. وهم لم يكذّبوا إلاّ نوحاً، وكما في **قوله تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]. وهم لم يكذبوا إلا هوداً، وكما في **قوله تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]. هم لم يكذبوا إلا صالحاً، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب، وإنّما نسبَ إليهم تكذيب المرسلين، لأنّهم لمّا كذبوا واحداً منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه، فمن زعم أنّه آمنَ بالله تعالى، وكذّب رسله، أو واحداً منهم، ممن ثبتت رسالتُه، **فهو كاذِبٌ في دعوى الإيمان**، إذ الإيمانُ الحق: هو ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيّد بالآيات، ومن قال: أومنُ بواحدٍ أو بمجموعةٍ، ولا أومنُ بغيره ممّن هو مثلهم، أو أعلى منهم، فهو كاذِبٌ في دعوى إيمانه، بل القرآنُ يقول عن مثله إنَّه الكافر حقاً[(١)].

اقرأ معي **قول الله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى، وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى، وكفروا بمحمد،

(١) فتاوى معاصرة (٣/ ١٦٩).

والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بكلِّ نبي أرسله الله ، وبكلِّ كتاب أنزله الله ، كما **قال تعالى** : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١٥٢][١] .

لقد جاء الرسل كلُّهم بقضية واحدة وكلمة واحدة ، جاؤوا يبيّنون أنه لا إله بحقٍّ في هذا الوجود كله إلا إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك ، جاؤوا يقولون للناس : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود: ٥٠] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥][٢] .

لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهميةً كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها ، إنّ الله تعالى أمرَ العباد بتحقيق العبادة الشاملة لله ، والعبادةُ هي امتثالُ الأمر والنهي ، وهذا يقضي أنَّ لله أوامر ونواهي ، فكيف يتعرّف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟ .

إنّه لا طريقَ للتلقي من الله إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى هذا ، فإنَّ الذي لا يؤمن بالرسل لا يمكن أن يكون موحّداً لله ، ومن هذا ندرك لماذا اهتمّ القرآن الكريم بهذه القضية؟ ونلاحظ مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية :

١ ـ كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصّلة ومبيّنةً ومؤكِّدةً لهذه القضية ، ويكفي أن نعلم أنّ كلمة (الرسول) وحدَها تكررت في القرآن الكريم نحو (٣٦٣) مرة ، وكلمة (النبي) نحو (٧٥) مرة .

وأمّا الحديث عنهم عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم فهذا أخذَ حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم .

٢ ـ اقتران الإيمان بهم بالإيمان بالله ، في مواضعَ كثيرة من القرآن الكريم ، سواء أكان هذا في النبوّة العامة أم الخاصة .

---

(١) المصدر نفسه (٣/١٦٩).
(٢) ركائز الإيمان ، محمد قطب ص (٢٢٧).

أ ـ فأما في النبوة العامة ، فمثلاً **قوله تعالى**: ﴿وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ب ـ وأما في النبوة الخاصة ، **قوله تعالى**: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨] **وقال تعالى**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٦٢].

٣ ـ التحذير من تكذيبهم ، وتخويف المكذبين بما لاقى أسلافهم ، ويكفي أن تمرَّ على هذه الآيات: **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٣][1].

ثانياً ـ موجز تاريخ الرسل الكرام:

تاريخُ الأنبياء الكرام تاريخُ العظمة والجلالِ ، وحياتُهم حياةُ الكفاح والنضال والجهاد ضد أعداء الحق وأعداء الله وأعداء الإنسانية في كلِّ زمان ومكان ، وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن التسليةَ أو الترفيه عن النفس ، وإنّما الغرضُ العظةُ والعبرةُ ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن بالتفكر والتدبر ، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة ، فإنَّ الغرضَ من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتُهم على الدعوة ، وتقويةُ عزائمهم بإطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار ، وما تحمّلوه من أذى في سبيل الله[2] ، كما **قال تعالى** لسيد الخلق محمد ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

---

(١) المحكم في العقيدة د. محمد عياش ص (١٢٣) ت(١٢٤).
(٢) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة ، سعاد مبير ص (٣٠٠).

١ ـ من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم:

للقرآن الكريم في ذكر قصص الأنبياء أغراضٌ عديدةٌ وجليلةٌ:

أ ـ إثبات الوحي والرسالة: بيّن القرآن الكريم أنّ هذا القصص إنما هو بوحي الله، فمحمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولم ينقل عن الرسول ﷺ، أنه كان يجلس إلى أحبار واليهود، أو رهبان النصارى، فمن أين جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله، وعن الأمم والخلائق، وما وقع لهم، وما حلّ بهم، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم، ويوسف، وموسى وعيسى عليهم السلام.

إنّ مجيءَ القصص بهذه الدقة المتناهية، وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم، أعظمُ دليل على أنه وحيٌ من عند الحكيم الخبير، وقد أشار كثيرٌ من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض إشارةً واضحةً جليّةً في مقدّماتِ بعض القصص أو في أواخرها، مثل **قوله تعالى**: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] **وقال تعالى**: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩][1].

ب ـ تثبيت النبي ﷺ في دعوته: ببيان أنّ النصرَ في النهاية للرسل الكرام، وأن الهلاكَ والدمارَ للأمم المكذبين، وفي ذلك **يقول تبارك وتعالى**: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] **ويقول سبحانه** أيضاً داعياً رسوله ﷺ إلى تدبّر ذلك الجزاء العادل، الذي أخذ به القوم المجرمين: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٣٠١).

ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠].

ج ـ دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات: لقد أكثر القرآن العظيم من ذكر دعوات الأنبياء السابقين، وموقف الناس منها طائعين وعصاة، وعاقبة كل منهم، وذلك بقصد خلق تأثيرٍ نفسي لدى المطّلع على ذلك، يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه، لأنَّ المسألة من خلال ما سمع أو قرأ قد وَضُحَتْ وبانت، فمن آمن نجا، ومن كفر هلك، **قال تعالى:** ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

د ـ إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية: فكلُّ نبي إنّما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه، ويدعو إلى الإيمان برسالته، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى العهدَ والميثاقَ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويتبعوه، ويكونوا من أنصاره إن أدركوا حياته وعهده[1]، **قال تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

٢ ـ الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

وهم خمسة وعشرون رسولاً، أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ، وقد جمع هؤلاء الرسل في آيات كريمة من سورة الأنعام، ذكر منهم فيها ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آياتٍ متفرّقةٍ من كتاب الله تعالى، أما الآية الكريمة فهي **قوله تعالى:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٣٠١).

وقد جمع بقية الرسل في الآيات الكريمة التالية: **قال تعالى**: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦] **وقال تعالى**: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠] **وقال تعالى**: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: ٦١] **وقال تعالى**: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [هود: ٨٤] **وقال جل وعلا**: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] **وقال سبحانه وتعالى**: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] **وقال تعالى**: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩][(١)].

وهؤلاء من ذكرهم الله في القرآن الكريم، وهناك من لم يذكرهم، ولا نعرف عددهم، **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذر، قال: قلتُ يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمئة وبضعة عشرَ جماً غفير**» وفي رواية أبي أمامة، قال أبو ذر قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدّةِ الأنبياء؟ قال: «**مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمئةٍ وخمسةَ عشرَ جماً غفيراً**»[(٢)].

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها:

إنّ الدينَ الإسلامي هو الدّين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين الموحّدين، فهو دينُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث به كل الرسل ليُبلغوه للناس، ودعا له الرسلُ ونشروه في أرجاء المعمورة، فهو أصلُ رسالتهم الذي اتّحدوا عليه، وانطلقوا منه، فكان هو دينهم جميعاً، **قال الله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. **وقال تعالى**: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالإسلامُ دين جميع الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم، فإنّهم متفقون على الأصل الأول، وهو التوحيد والإسلام، فمثلاً:

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٠٣).

(٢) مشكاة المصابيح (٣/ ١٢٢) وقال الألباني: إسناده صحيح.

أخبر الله عن **نوح عليه السلام**: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وأخبر عن **إبراهيم عليه السلام**: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وأخبر عن **موسى عليه السلام**: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأخبر عن **حواريي المسيح**: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وأخبر عن **سليمان عليه السلام** على لسان ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وأخبر سبحانه وتعالى عن **الأنبياء الذين تقدموا**: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤][1].

إنّ أصل الدين واحدٌ، بعث الله به الأنبياءوالمرسلين جميعاً، واتفقت دعوتهم إليه، وتوحّدت سبيلهم عليه، وإنّما التعدّد في شرائعهم المتفرعة عنه، وجعلهم الله سبحانه وسائطَ بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك، ودلالتهم عليه، لمعرفة ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

بُعثوا جميعاً بالدّين الجامع، الذي هو عبادةُ اللهِ وحده، لا شريك له، بالدعوة إلى توحيد الله، والاستمساك بحبله المتين.

وبُعثوا للتعريف بالطريق الموصل إليه، وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه، فاتّحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

١ ـ الدعوة إلى الله تعالى في **إثبات التوحيد**، **وتقريره**، وعبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيدُ دينُ العالم بأسره من لدن آدم إلى آخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.

٢ ـ والتعريف **بالطريق الموصل إليه سبحانه في إثبات النبوات**، وما يتفرّع

---

(١) العقيدة الصافية للفرقة الناجية ص (١١٩ ـ ١٢٠).

عنها من الشرائع ، من صلاةٍ ، وزكاة ، وصيامٍ ، وجهادٍ ، وغيرها ، أمراً ونهياً في دائرة أحكام التكليف الخمسة : الأمر وجوباً ، أو استحباباً ، والنهي تحريماً ، أو كراهة ، والإباحة ، وإقامة العدل والفضائل ، والترغيب والترهيب .

٣ ـ والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله : في **إثبات المعاد** ، **والإيمان باليوم الآخر** ، والموت ، وما بعده من القبر ، ونعيمه وعذابه ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب .

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدارُ الخلق والأمر ، وبُعث به الأنبياء والرسل جميعاً ، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات والأمم ، وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ : «**إنّا معاشرَ الأنبياءِ أخوةٌ لِعلاتٍ ، أمهاتُهم شتّى ، ودينُهم واحدٌ**» ، وهو المقصود في مثل **قول الله تعالى** : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] . وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية من القرآن الكريم .

وإذا تأملتَ سرّ إيجاد الله لخلقه ، وهو **عبادته** ، كما في **قول الله تعالى** : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . عرفتَ ضرورةَ توحُّد الملة والدين ، ووحدةِ الصراط ، ولهذا جاء في أم القرآن فاتحةِ كتاب الله عز وجل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧] ثم أتبع ذلك بأن أهل الكتاب ، خارجون عن هذا الصراط فقال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٧] .

وبهذا تدركُ الحكمَ العظيمة ممّا قصه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم لأخذ العبرة ، والتفكر ، وتثبيت أفئدة الأنبياء ، وإثبات النبوة والرسالة ، وجعلها موعظةً للمؤمنين ، وأخبار الأمم المكذّبة لرسلهم ، وما صارت إليه عاقبتُهم ، وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض عن سبيله .

والدّينُ بهذا الاعتبار هو (دين الإسلام) بمعناه العام ، وهو : **إسلام الوجه لله**

وطاعته ، وعبادته وحده ، والبراءة من الشرك ، والإيمان بالنبوات ، والمبدأ والمعاد[1] .

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وحّد سبحانه (الصراط) و(السبيل) في جميع آيات القرآن الكريم ، وهذا الدين (دين الإسلام) باعتبار وحدته العامة وتوحد صراطه وسبيله ، هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح ، وإبراهيم ، وبنيه ، ويوسف ، وموسى ، وسليمان ، وجواب بلقيس ملكة سبأ ، وعن الحواريين ، وعن سحرة فرعون ، وعن فرعون حين أدركه الغرق .

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً وملتهم ، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته ، وهو محل بعثته إلى أمته ، وما يتبع ذلك من شريعته ، كما **قال الله تعالى**: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] **وقال سبحانه**: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

وإنما خص الله سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام بأن: (دين الإسلام) بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران: ٩٥] لوجوهٍ:

١ ـ أنه عليه السلام واجه من أجل تحقيق التوحيد وتحطيم الشرك أمراً عظيماً ، وقد نصره الله بعد ذلك ، وهو ما قصَّ الله خبره .

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب ، ولذا قيل له: (أبو الأنبياء) ولذا **قال الله تعالى**: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨] .

وهو عليه السلام تمام ثمانية عشر نبياً سمّاهم الله في كتابه من ذريته وهم: **ابنه إسماعيل** ، ومن ذريته: محمد عليهما الصلاة والسلام ، **وابنه إسحاق** ومن ذريته: يعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وذو الكفل ، وموسى ، وهارون ،

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر عبد الله أبو زيد ص (٥٠ ـ ٥١).

وإلياس، واليسع، ويونس، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم السلام.

٣ ـ لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، فقد كذبهم الله تعالى في **قوله تعالى**: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠][1].

وردّ الله عليهم محاجتهم في ذلك **بقوله تعالى**: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٧].

ثم بين سبحانه إن أَوْلىٰ الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته، **فقال تعالى**: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وبيّن سبحانه مدى الضلال البعيد في جُنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلو والضلال، **قال تعالى**: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

ويبيّن سبحانه أنّ هذه المحاولة الكاذبة اليائسة من أهل الكتاب جاريةٌ في محاولاتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم، ولبس الحق بالباطل، **فقال تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ

---

(١) الإبطال ص (٥٣).

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٧].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أُنزل إلا ليُجدِّدَ دين إبراهيم عليه السلام، حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى، (ملة إبراهيم) فأقرأ **قول الله تعالى**: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

والخلاصة: أن لفظ: (الإسلام) له معنيان.

معنى عام: يتناول **إسلامَ كلِّ أمةٍ متبعة لنبي من أنبياء الله، الذي بعث فيهم**، فيكونون مسلمين حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده، واتباعهم لشريعة مَنْ بعثه الله فيهم، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم، فهم على (دين الإسلام).

ثم لمّا بعث الله نبيه عيسى عليه السلام كان على الإسلام.

ثم لمّا بعث الله محمداً ﷺ وهو خاتمهم، وشريعته خاتمة الشرائع، ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامّةٌ لأهل الأرض، وجب على أهل الكتابينِ وغيرهم اتباع شريعته، وما بعثه الله به لا غير، فمن لم يتبعه فهو كافر، لا يوصف بالإسلام، ولا أنّه حنيف، ولا أنّه على ملة إبراهيم، ولا ينفعه ما يتمسّك به من يهودية أو نصرانية، ولا يقبله الله منه.

فبقي اسم (الإسلام) عند الإطلاق ـ منذ بعثة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ، مختصاً بمن يتبعه لا غير. وهذا هو **معناه الخاص** الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾.

ولا يوصَفُ أحدٌ اليوم بأنه مسلم، ولا أنّه على ملة إبراهيم حنيفاً، ولا أنّه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متّبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمّداً ﷺ.

وأمّـا تنوع الشرائع وتعدُّدُها: فيقول الله تـعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

شرعة: أي شريعة وسنة، قال بعض العلماء: سميت الشريعةُ شريعةً، تشبيهاً بشريعة الماء، من حيث إنّ مَنْ شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رُوي وتطهّر[١].

ومنهاجاً: أي طريقاً وسبيلاً واضحاً إلى الحق، ليعملَ به في الأحكام، والأوامر والنواهي، ليعلم الله من يُطيعه ممّن يعصيه.

ويقول سبحانه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]. **منسكاً**: متعبداً، هم ناسكوه: متعبدون به.

وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

وقد علمنا الأصولَ التي تساوت فيها الملل، وتواطأت دعوةُ أنبياء الله ورسله عليها: على دين واحد، وملة واحدة، في تقرير العبودية لله سبحانه لا شريك له، وتوحيده، وتقرير النبوة والمعاد، ووحدة التشريع من عند الله تعالى، فهذه لا تتغير ولا تتبدل، ولا يدخلها نسخٌ، فهي محكمة غيرُ منسوخة، ولا تقبل الاجتهاد ولا التخصيص.

أما الشرائع، فهي مختلفة، متنوعة، متعددة، ويعترضُها النسخ، فشريعة كل رسولٍ تخالف الأخرى في كلٍّ أو بعضِ أمور التشريع، فهناك حكم تعبدي في شريعة رسول ينتهي بانتهاء شريعته ببعثة رسول آخر، وهناك حكم يغير في بعض جزيئاته في وقته، أو كيفيته، أو مقداره، أو حكمه من التشديد إلى التخفيف وبعكسه. وهناك حكم يكون في شريعة لاحقةً دون السابقةِ أو عكسه[٢] وهكذا من تنوع التشريع في الأحكام العملية والقولية، من الأوامر والنواهي حسب سابق

(١) الإبطال ص (٥٧).
(٢) الإبطال.

علم الله تعالى وحكمته في تشريعه وأمره بأوضاع كل أمة ، وأزمانها وأحوالها ، وطبائعها من قوتها وضعفها ، وحسب أبدية التشريع ، أو تغييره ونسخه ، وهذا يكاد ينتظِمُ أبوابَ التشريع في العبادات والمعاملات والنكاح ، والجنايات والحدود ، والإيمان والنذور والقضاء وغير ذلك من الفروع ، التي ترجع إلى وحدة الدّين والملة ، ولذا فإنَّ شريعةَ الإسلام ـ وهي آخر الشرائع ـ باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية والقولية ، والأوامر والنواهي لِمَا لها من صفة الدوام والبقاء ، وأنها آخرُ شريعةٍ نزلت من عند الله ناسخةٌ لما قبلها من شرائع الأنبياء(١).

رابعاً ـ حقيقة النبوة:

النبوةُ والرسالةُ اصطفاءٌ خالصٌ من عند الله ، يختصّ به مَنْ يشاء من عباده ، وليست شيئاً يكتسِبُه العبادُ من ذاتِ أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم ، وكل ما يقعُ للبشر في حياتهم هو من عند الله ، ولكنَّ الله قدّر أن يكونَ للإنسان جانب من الكسب في كلّ ذلك ، فقد أعطى الإنسانَ القدرةَ على المعرفة ، ووهبَ له ذكاءً يتفاوتُ من شخص إلى شخص ، ومنحه طاقةً مختلفةً ، ثم كلّفه أن يعملَ ، وأن يبذلَ جهداً معيّناً لتحصيل المعرفة ، واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شؤون الحياة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] **وقال تعالى**: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] **وقال تعالى**: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥] **وقال تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ويستطيعُ الإنسانُ بتحصيله الشخصي أنْ ينمّي ما وهب الله له من مواهبَ ، فيستطيع مثلاً أن ينمّي **قوته الجسدية** بالرياضة البدنية والتدريب ، فيصبح قويَّ الجسم ، متينَ العضلات ، ويستطيعُ أن ينمّي **قوته الذهنية** بالتدريبات العقلية ، وتعلّم العلم ، وإمعان الفكر ، فيستنبِطُ ويكتشفُ ويخترعُ ويدبّرُ ويخطّط ،

---

(١) المصدر السابق ص (٥٩).

ويستطيعُ أن ينمّي **قوته الروحية** بالامتناع عن بعض لذائذ الحسّ ، وبالتأمّل وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحسّ القريب بصورة من الصور ، فتصفو روحُه ، ويكتسب طاقةً روحيةً كبيرة ، كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة من الله ، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه ، وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أمّا الرسالة والنبوة فموهبةٌ من الله ذات طبيعة مختلفة ، إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار ، إنّما هي اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده يجتبيه ، وينعم عليه ، ويبعثه بالهداية إلى الناس(١).

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم: ٥٨].

وقال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣].

وحقيقة أنّ الذين يصطفيهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضلهم ، **قال تعالى**: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧].

ولكن نحن لا نستطيع بمقياسنا أن نقول: إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو أنه أولى بها من غيره ، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) ركائز الإيمان ص (٢٢٩).

فالنبوة إذاً محض اختيار من الله واصطفاء واجتباء ، ولذلك ردَّ الله زعم المشركين أن النبوة لا تليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا: فيما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] رد عليهم سبحانه قائلاً: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

أي ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيثُ يجعل رسالته ، فإنّه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ، فبيّن سبحانه في ردّ زعمهم أنّ النبوةَ رحمة منه يخص بها مَنْ يشاء من عباده ، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات ، ثم إنّ النبوة قد انقطعت بعد محمد ﷺ ، فلا نبيَّ بعده البتة ، **قال تعالى**: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] كما هو ثابتٌ بالقرآن أيضاً ، فلا مطمعَ لأحدٍ في هذه المنزلة بعده ﷺ ، ولم يبلغْها من البشرِ إلاّ هو ، ومن تقدّمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فلا يبلغها غيرهم إلى قيام الساعة[١].

وقال ﷺ «**أنا خاتم النبيين**»[٢] ، وقال ﷺ: «**إلاّ إنه لا نبي بعدي**»[٣]. وفي الجملة ، فإن كونه ﷺ خاتمَ النبيين ، وأنه لا نبيَّ بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله ﷺ[٤].

ويأتي الحديثُ عن انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ لاحقاً بإذن الله تعالى.

خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل:

لم يستطعِ العقلُ البشري مرةً واحدةً أن يضعَ منهجاً متكاملاً خالياًمن العيوب ، وكلّما أبرزَ التطبيقُ العملي عيباً في تلك المناهج البشرية حاول البشرُ إصلاحه بعيبٍ جديدٍ تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان ، ذلك أنَّ وضعَ

---

(١) مباحث في المفاضلة في العقيدة ، محمد الشليفي ص (١٧٦).
(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٨) ، تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٨).
(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٥).
(٤) المصدر نفسه ص (١٧٦).

المنهج الصالح لحياة البشر يحتاجُ إلى جملةِ أمورٍ يقصُرُ عنها العلمُ البشري منها:

١ ـ **أنّه يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته**، والإنسان ـ على الرغم من كلّ العلم المادي الذي عرفه ـ ما يزال شديدَ الجهلِ بكيانه الذاتي، وهو بالتالي شديدُ الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

٢ ـ **وأنّه يحتاجُ إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها، وأسبابها ونتائجها**، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان، لأن كثيراً من أحداث الماضي مجهول له، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه، أمّا المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

٣ ـ **وأنّه يحتاجُ إلى أن يكونَ واضحَ المنهج غير متحيّز**، لا مصلحة له في أمر من الأمور، ولا هوى ولا شهوات، وهذا أمر لا يتوفر أصلاً في الإنسان، الذي ينجذبُ دائماً إلى مصلحته الذاتية، وتحرّكه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله، **قال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٠].

٤ ـ **وأنَّ واضعَ المنهج يحتاج إلى علم كامل بمن يطيعه في السرّ والعلن**، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع، ومعاقبة من يعصي، حتى يكونَ المنهجُ محترماً ومطبقاً، وهذه الأوصافُ لا تتوفّر في الجنس البشري، فالإنسان لا يرى إلاّ في حدود ما تبصر عيناه، ولا يسمع إلاّ في حدود ما يبلغ سمعه.

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر، **قال تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

والله عز وجل قادر على أن يجازي من أطاعه، ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل، **قال تعالى**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

ومن ثَمَّ **فإنّ المنهجَ الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى**.

فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان ، لأنّه هو الذي خلقه سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤][١].

والله هو الذي يعلمُ كلّ شيء في حياة البشر وفي الكون كله ، علم إحاطة واطلاع: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢] **وقال تعالى:** ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

واللهُ هو الذي شرع التشريع الحكيم ، لأنه هو الغني القادر ، وليس محتاجاً إلى شيءٍ ممّا عند الناس ، وهو الواهب لهم كلَّ شيءٍ ، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكونَ الناسُ كلُّهم على أتقى قلب رجلٍ منهم ، ولا ينقص في ملكه على أن يكونوا كلهم على قلبِ أفجرِ رجلٍ منهم ، كما جاء في الحديث القدسي.

والهدايةُ الربانيةُ التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقُها هو الرسل والرسالات ، ومن ثَمَّ تصبحُ الرسالةُ حاجةً بشريةً لا غنًى عنها ، ولا استقامة لحياة البشر من دونها. فكما تكفّل الله سبحانه وتعالى ـ رحمة منه بعباده ـ بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم ، فقد تكفّل سبحانه كذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب لتستقيمَ حياة الناس في الأرض ، **قال تعالى:** ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥][٢].

فحاجةُ البشر إلى رسالة الرسل: ضرورةٌ للعباد ، لابدّ لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيّ صلاحٍ للعالم إذا عَدِمَ الروح والحياة والنور؟ والدُّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمسُ الرسالةِ ، وكذلك العبدُ ما لم تشرقْ في قلبه شمس الرسالة ، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، **قال الله تعالى:** ﴿ أَوَمَن كَانَ

(١) ركائز الإيمان ص (٢٢٤).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٤٥).

مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا وصفُ المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات.

إنَّ الله سمّى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فُقِدت الحياة، **قال الله تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فذكر هنا أصلين هما: الروح والنور، فالروح الحياة، والنور النور.

إنّ اللهَ يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في **قوله تعالى**: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فشبّه العلمَ بالماءِ المنزَلِ من السماء، لأنّ به حياة القلوب، كما أنَّ الماء حياة الأبدان، وشبّه القلوبَ بالأودية، لأنّها محلّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً، وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً، وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أن الزَّبَدَ يعلو على السيل بسبب مخالطة الماء، وأنّ هذا الزَّبَدَ يذهب جفاءً، أي يرمى به ويختفي، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض، ويستقرّ، وكذلك القلوب، تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاء، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ [الرعد: ١٧] فهذا المثل الآخر هو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

إنَّ الكافرَ يعيشُ في ظلمات الكفر والشرك، فهو غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها تحصلُ

للعبدِ السعادةُ والفلاحُ في الدنيا والآخرة ، فإنّ الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله ، وتعريف الطريق الموصلِ إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه: وهذا يحتاجُ إلى معرفة ثلاثة أصول:

الأصل الأول: يتضمّن إثبات الصفات ، والتوحيد ، والقدر ، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه ، وهي القصص التي قصّها الله على عباده ، والأمثال التي ضربَها لهم.

والأصل الثاني: يتضمّن تفصيلَ الشرائع ، والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمّن الإيمانَ باليوم الآخر ، والجنةَ والنارَ ، والثوابَ والعقابَ.

على هذه الأصول الثلاثةَ مدارُ الخلق والأمر ، والسعادةُ والفلاحُ موقوفةٌ عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل ، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان يدرِكُ وجهَ الضرورة إليها من حيث الجملة ، كالمريض الذي يدرِكُ وجهَ الحاجة إلى الطب ، ومن يداويه ، ولا يهتدي إلى تفاصيلِ المرضِ ، وتنزيلِ الدواء عليه[1].

سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ، ومن جميل لطفه بهم ، وإحسانه إليهم ، أنْ بعثَ إليهم الأنبياء والمرسلين ، مبشرين ومنذرين ، ليكونوا منارات للهدى ، وأعلاماً للفضيلة ، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية ، تضيء للعالم طريق الخير ، وترشدهم إلى السعادة ، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية ، وتسمو بهم إلى مدراج العزّ والكمال ، وقد جرت سنةُ الله في خلقه ألاّ يعاقبَ أمةً قبل أن يبعثَ إليها رسولاً ، يدعوهم إلى الخير والبر ، وينهاها عن السوء والشر ، وذلك حتى لا يدعَ لأحدٍ من البشر عُذراً ، **قال تعالى**: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٩٣ ـ ٩٦) ، الرسل والرسالات ص (٣٤).

[الإسراء: ١٥] ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩] **وقال تعالى**: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤] **وقال تعالى**: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

فكانت حكمةُ الله ورحمته بعباده أن يقيمَ لهم موازين الحق والعدل، ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد، وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقومَ الحجة، وتتضحَ المحجّة[١].

سابعاً ـ وظائف الرسل ومهماتهم:

١ ـ دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار:

هذه هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث الله من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق جلا وعلا، وإرشادهم إلى الإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، **قال تعالى**: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦][٢].

وقد بذلَ الرسلُ في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة، وحسبُك في هذا أن تقرأ سورةَ نوح لترى الجهدَ الذي بذله على مدار تسعمئة وخمسين عاماً، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، واستعمال أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وحاول أن يفتحَ عقولهم، وأن يوجّهها إلى ما في الكون من آيات، ولكنّهم أعرضوا، **قال تعالى**: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١][٣].

---

(١) دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي ص (٢٤٢).
(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٢٨).
(٣) الرسل والرسالات ص (٤٥).

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلاً توضّح دوره، وتبين وظيفته، ففي الحديث: «**إنّي رأيتُ في المنام كأنّ جبريل عند رأسي، وميكائيلَ عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضربْ له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنّما مثلك ومثل أمتك، كمثل ملكٍ اتخذَ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعلَ فيها مائدةً، ثم بعث رسولاً يدعو الناسَ إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم مَنْ تركه، فالله هو المَلِكُ، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها**» رواه البخاري والترمذي(١).

٢ ـ تبليغ أوامرِ الله ونواهيه للبشر:

فالأوامرُ الإلهية لابدَّ لها من مُبلِّغ، ولابدّ أن يكونَ هذا المبلِّغُ من البشر، ليمكن الأخذُ عنه، ولهذا فقد اختارَ الله عزّ وجلّ الرسل من البشر، وقد بلّغ الرسلُ عليهم السلام رسالةَ الله إلى خلقه على الوجه الذي أمر به دون زيادة أو نقصان، أو تغيير أو كتمان، **يقول تبارك وتعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٣٩](٢).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول **تبليغ الرسالة** وخاطب سيد الأنبياء **بقوله عز من قائل**: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالرسل سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم هي إبلاغ هذه الأمانة التي حملوها إلى عباد الله، والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة، **قال تعالى**: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١].

ومن البلاغ أن يوضّحَ الرسولُ الوحيَ الذي أنزله الله لعباده، لأنه أقدر من

---

(١) صحيح الجامع (٢/٣١٩).
(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٢٩).

غيره على التعرّف على معانيه ومراميه ، وأعرفُ من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك **يقول الله** لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

والبيانُ من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول ، فقد بيّن الرسول ﷺ أموراً كثيرة استشكلها أصحابُه ، كما بيّن المرادَ من الظلم في **قوله تعالى**: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. بين الرسول ﷺ أنَّ المراد به الشرك ، لا ظلمَ النفس بالذنوب ، كما بيّن الرسول ﷺ الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

وكما يكون البيانُ بالقول ، يكون بالفعل ، فقد كانت أفعالُ الرسول ﷺ في الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية ، وعندما يتولّى الناسُ ويعرضون عن دعوة الرسل ، فإنَّ الرسلَ لا يملكون غير البلاغ[١] ، ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فالغايةُ من إرسالِ الأنبياء والمرسلين هو القيامُ بالتبليغ الديني ، فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلّقة بالعبادة ، ولما وصلتنا الأوامرُ والنواهي ، ولما عرفنا واجباتنا وما فرض علينا[٢].

إنّ رسولنا ﷺ تحمّل عبئاً كبيراً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاماً ، وقام بإيفاءِ حقّ وظيفته بنجاحٍ منقطعِ النظير ، لم يتيسر لأي صاحب دعوةٍ آخر ، وبمثل هذه الروح ، وبهذه المشاعرِ الممتلئة بحب الله كان يتقدّم ويقترب من الهدف المنشود ، ومن النهاية المباركة.

وحج حجةَ الوداع ، وفي هذا الحجِّ ركب رسول الله ﷺ ناقته ، وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى ، فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة ، إلى قضايا الربا ، إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل ، إلى سواها من الأمور والمواضيع ، بل كلُّ ذلك مرةً أخرى ، وكان يتوجّه كلّ مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «**ألا هل بلغت؟**» فكانت ترد عليه: نشهدُ أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ ،

---

(١) الرسل والرسالات ص (٤٤).
(٢) النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية ، محمد كولن ص (٥٧).

فكان يشيرُ بأصبعه إلى السماء ، وينكتُها على الناس قائلاً : «**اللهم أشهد ، اللهم أشهد**» ثلاث مرات[١] .

لقد أدّى مهمته بحق ، وقام بالتبليغ على أفضل وجه ، لذا فقد كان مستريحَ الضمير ، مرتاحَ النفس ، مطمئنَ القلب ، وكان يتهيّأ لملاقاة ربّه بعد أن استطاع أن يبلّغَ رسالة الله ، وحقق هدفه الذي من أجله أرسله خالقه[٢] .

٣ ـ هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم :

فمن وظائف الرسل :

أ ـ هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده : إنّ الفطرة البشرية بذاتها تعرِفُ وجودَ الخالق ، وتتجه إليه بالعبادة ، ولكنّها كثيراً ما تضلّ ، فتتصور الخالق على غير حقيقته ، وتشرك معه آلهةً أخرى ، ومن ثَمَّ يرسل الله الرسلَ ليعرّفوا البشر بحقيقة خالقهم ، وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصوّرات الباطلة عن الله سبحانه وتعالى ، وما يترتّب عليها من الخرافات في الفكر والسلوك ، وليعالِجُوا بصفة خاصة قضيةَ الشرك ، وهي أشدّ ما يتعرّض له البشر من انحرافٍ في تصوّرهم للخالق وسلوكهم .

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم : ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف : ٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥] .

فالله سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ .

ومن ثَمَّ تنتفي كلُّ نبوة لله ، أو قرابة لأحدٍ من البشر أو الجنّ أو الملائكة مما تعجُّ به خرافاتُ الجاهلية ، ما بادَ منها وما لا يزالُ باقياً حتى اليوم ، كذلك ليس الله متمثّلاً في صنم أو وثن أو في الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من

---

(١) البخاري (١٣٢) مسلم (١٤٧).
(٢) النور الخالد ص (٦١).

الكائنات، فكلّها مخلوق، والله هو الخالقُ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وكذلك فإنّ الله لا يشركُ في حكمه أحداً، ولا يوزّع اختصاصاته سبحانه على أحدٍ من خلقه، ولا يُنْتَزَعُ منه قهراً عنه، **قال تعالى**: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، **وقال تعالى**: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، **وقال تعالى**: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلّها، وأسمائه الحسنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. **وقال تعالى**: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

فإذا عرفَ البشرُ ربَّهم على هذه الصورة، وانتفى كلُّ وهم باطل عنه في أذهانهم وفي مشاعرهم، بقيت القضيةُ الثانيةُ التي يضلّ البشر بشأنها في جاهليتهم، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

ب ـ العبادة الصحيحة: إنّ العبادةَ ليست فقط في الاعتقاد بأنّ الله واحدٌ لا شريكَ له، ولا في تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء الله وحده دون شريك، بل هناك أمرٌ آخرُ، **قال تعالى**: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

إنّه لابدّ من اتباع ما أنزل الله، وإلا فقد بطلت العبادة، ولم يصبح المعبود إلهاً واحداً، وإنّما إلهين اثنين، واحد تُقدَّم له شعائر التعبد، وواحد يَشْرَعُ وتُطاع تشريعاته من دون الله، **قال تعالى**: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

تلك هي المهمةُ الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه ، أن يهدوا البشرية إلى الإله الواحد ، ويدلّوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته ، وبذلك تقوم حياتُهم على قاعدتها الصحيحة: إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالإلوهية والربوبية ، وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد ، واتباع ما أنزل الله من التشريع ، أي الحكم بما أنزل[1] .

٤ ـ تقديم القدوة الحسنة :

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله ، هو أنْ يكونوا أسوةً حسنة وقدوة متبعة لأممهم ، فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

هذه الآية موجهةٌ للرسول ﷺ توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه ، بعد أن ذكر أسماءَهم واحداً تلوَ الآخر ، ثم إنّ القرآن الكريم يخاطِبنا قائلاً: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

فالأنبياءُ أسوةٌ حسنة لنا ، وهم أئمتنا ، فكما نتّبع الإمامَ في الصلاة ، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ، ونقتدي بهم ، ذلك لأنّ الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثّلها نبينا والأنبياء الآخرون صلوات الله وسلامه عليهم والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به[2] .

٥ ـ تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة :

أتى الأنبياءُ والرسلُ لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة ، فبمقياس التوازن الذي جاؤوا به يستطيعُ ابنُ آدم أن يجدَ طريقه المستقيم ، ومنهاجه الصحيح ، ويتخلّص من الإفراط والتفريط ، فلا يجب ترك الدنيا ، والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان ، ولا يجبُ الانغماسُ في الدّنيا ، والانقلابُ إلى عبدٍ لها ، وأسير في يدها ، بل الأفضلُ العثور على الطريق الوسط ، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الوحي ، فالعقلُ والوجدان لا يستطيعان إنشاءَ مثل هذا التوازن ، والعلم

(١) ركائز الإيمان ص (٢٤٨).

(٢) النور الخالد ص (٦٢).

الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف ، وتحقيق هذه الغاية ، إذ لا يستطيعُ رفعَ الإنسان إلى هذا المستوى ، والقرآن الكريم يشرحُ هذا التوازنَ **فيقول تعالى**: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائقَ التي تنطق بها الآية الكريمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ عليك أن تضع التحذيرَ الذي تتضمنه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

وهكذا يتمّ حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين ، ومع أنّ الدنيا أقبلت على الصحابة ، فإنهم عاشوا حياة متوازنة ، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك[١].

٦ ـ تعريف الناس بالقيم الحقيقية التي تستحقُّ الاعتبارَ ، وتستحقُّ أن يحرصَ الناسُ عليها ، ويَسْعَوا إلى تحصيلها:

فالناسُ بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاع الأرض ، **قال تعالى**: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وهم يحتاجون دائماً إلى مَنْ يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ، ويبصّرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتّجهوا إليها من صدقٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ وتضحيةٍ وكرمٍ وشجاعةٍ وإيثارٍ وعدلٍ ، ممّا يليقُ بالإنسان الذي كرّمه الله وفضّله وجعله خليفة في الأرض ، وحمّله الأمانة الكبرى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) النور الخالد ص (٦٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالرسلُ والأنبياء يقرّون ـ بصورة واقعية مشهودة ـ أنّ القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، وأنّ ذلك أفضلُ وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله، ومن الذهب والسلطان، عندئذٍ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس، فأمّا الأتباع الذين آمنوا، فإنّهم يرون رسولهم الذي اقتدوا به، وآمنوا على يديه، يصبر على الأذى في سبيل عقيدته، ويصبر عليها، ولا يتخلّى عنها تحت أي ضغط من إغراء أو تهديد، فيقتدونَ به، ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله، كما استعلى سحرةُ فرعون بعد إيمانهم.

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٠ ـ ٧٣].

وأمَّا بقية الناس فإنّهم ـ تدريجياً ـ يستيقظون من غفلتهم، إذ يرون قوماً من الناس يهدَّدون في أمنهم وراحتهم، وفي كلّ المتاع الذي يحرصون هم عليه، ويرون أنّه غاية الحياة كلّها، وأغلى ما فيها، ومع ذلك لا يتخلّون عن إيمانهم وعن عقيدتهم، فيتعلّمون أنّ هناك في الحياة ما يُحرَصُ عليه أكثر المتاع، وما يضحي من أجله بالمتاع، ذلك هو رضوان الله وهو متاع الآخرة، **قال تعالى**: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] **وقال تعالى**: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وعندئذٍ يعدّلون معاييرَ حياتهم، ليرتفعوا كما ارتفعتْ تلك الفئةُ المؤمنةُ، ويدخلوا في الإيمان.

وأمّا الذين أصرّوا على الباطل، واستحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، ورفضوا الهُدى الرباني، فأولئك مآلهم الدمار والبوار ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟

نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠].

وهكذا تتقرّر القيم العليا ـ في ذروتها ـ من خلال الصراع الذي يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل، ويتميّز النفع الحقيقي من الزائف، **قال تعالى**: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] **وقال تعالى**: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. **وقال تعالى**: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠][1].

٧ ـ التعريف والتعليم والتزكية:

من وظائفِ الأنبياءِ والمرسلين تعريفُ الناس بالمنهج الحقّ، الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا، وينالون به رضوان الله في الآخرة، وذلك بتبليغ ما أوحى الله به إليهم وشرحه وبيانه، وتعريف الناس به بطريقة تطبيقية، وتدريبهم على ذلك، كما يفعل المعلّم مع تلاميذه، حتى يطمئنوا أنَّ أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً، وطبقوه التطبيق الصحيح.

ولا تقتصر مهمةُ الرسل على التعريف والتعليم، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في حياة الناس، إنما تمتدّ إلى التربية والتزكية، فليس دينُ الله معلوماتٍ تلقى ثم تحفظ، إنما هو سلوكٌ علمي بمقتضى التعليم الرباني[2]، والوحي الإلهي الذي أخرجَ الله به من شاء من الناس من الظلمات إلى النور، **قال تعالى**: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد أرسل الله رسلَه بهديه، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥] **وقال تعالى**: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

---

(١) ركائز الإيمان ص (٢٥٤).
(٢) المصدر نفسه.

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

٨ ـ التذكير بفقه القدوم على الله والذي مِنْ مفرداته التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى أين المصير:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

ويعرّفون الناسَ بحقيقةِ الموت، وأهمية تذكره في حياة الإنسان، للابتعاد عن المعاصي، وتليين القلب القاسي، وتهوين المصائب، فمن أكثر من ذكر الموت قلّ فرحه، وقلّ حسده، واستعدّ للرحيل.

يعلّمون الناسَ أنّ حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا، وإنّما تنتهي مرحلة فحسب، وتبدأ مراحلُ أخرى، تنتهي بالبعث والنشور والامتحان الذي يُكْرَمُ المرءُ فيه أو يُهان، فيصل إلى النعيم الخالد، أو العذاب المقيم، فالحياة التي يحياها الناسُ على الأرض هي أقصر مراحلها؟ سنوات معدودة هي سنوات العمر المحدود، وبعد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله، ثم بعد ذلك الخلود.

ألا إنه هو الخسران المبين، حين ينحصر تفكيرُ الناس في الحياة الدنيا، ولو أصلحوا كلَّ أمور الحياة الدنيا، واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون، **قال تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

فكيف وهم لا يصلحون كلَّ أمور الأرض؟! وكيف ونعيمُ الأرض دائماً مشوبٌ، وأقل عيوبه القلقُ الدائمُ من تقلّب الأحوال، وهي دائماً تتقلب، من الموت، وهو لابدّ أن يجيء.

إنها الخسارة المضاعفة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، **قال تعالى**: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لذلك فكلُّ علم الأرض لا ينفعُ إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الآخر، إنّما العلمُ النافعُ هو الذي ينفعُ الناسَ في دنياهم وآخرتهم معاً، فيحقق لهم مصالحهم

الحقيقية في الدنيا ، ويصل بهم إلى دار الأمان في الآخرة ، **قال تعالى** : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣] **وقال تعالى** : ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢ ـ ١٠٣] .

وفقه القدوم على الله ـ هو المعرفةُ اليقينية بالله واليوم الآخر ـ واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا ، وهذا هو الذي يضمنُ للناس حاضرَهم ومستقبلهم ، فأمّا حاضِرُهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الرباني ، وأمّا مستقبلهم فيصلحُ بدخول الجنة التي وعدَ اللهُ بها عباده المتقين ، الذين آمنوا به في الحياة الدنيا ، واستقاموا على أوامره ، وانتهوا عن نواهيه ، وعندئذٍ يكون العلم الأرضي كله ـ من طب ، وهندسة ، وعلوم ، ورياضيات ، وكيمياء ، وفيزياء . . . إلخ ـ محققاً الفائدة ، لأنه يعينُ الناسَ على تحقيق المنهج الرباني ، ولا يفتنهم عن الآخرة ، وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبحُ علماً ضاراً إذا استُخدِم في تزيين الحياة الدنيا ، يفتن الناس عن عبادة ربهم الحق ، وينسيهم ثواب الله وعقابه ، ويغرقهم في ضلال الشهوات .

وهذا العلمُ النافع ينفردُ به الأنبياء والرسل ، لأنهم يتلقّونه تلقياً مباشراً من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي ، ويؤمنون به إلى درجة اليقين ، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلحَ دنياهم وآخرتهم(١) .

وبالعلم النافع وحدَه صلحتْ أحوالُ الناسِ خلالَ التاريخ ، واستخدم العلم الأرضي في ظله في نفع الناس وفي الخير ، وبغير هذا العلم ـ الذي تفرّدَ به الأنبياء والرسل ، ودعا به الدعاةُ المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضي ينفعُ ويضرُّ ، ويزدادُ ضرره على نفعه على مرّ الأجيال(٢) ، عندما ابتعد عن هداية السماء ووحي الهادي إلى الصراط المستقيم .

٩ ـ قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية :

الرسولُ في قومه هو قائدُهم وزعيمُهم ورئيسُهم وحاكمُهم وقاضيهم ومديرُ

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٦٤) الإيمان باليوم الآخر للمؤلف.

(٢) ركائز الإيمان ص (٣٦٥).

سياستهم الدينية والدنيوية ، ولذلك أمرَ اللهُ أتباع كلّ رسولٍ بطاعة رسولهم ، وجعل طاعتهم للرسول جُزءاً من طاعته سبحانه ، **فقال تعالى** : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] **وقال سبحانه** : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وأما كون الرسول حاكماً وقاضياً في أمته فتشهدُ له نصوصٌ كثيرة من القرآن منها **قوله تعالى** : ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩][١].

وقاله تعالى : ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وقاله تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: ٥١].

وقاله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقاله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

١٠ ـ الشهادة على الأمة وإقامة الحجة لئلا يبقى للناس حجةٌ عند الله تعالى:
كما **قال سبحانه** : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

ووظيفة الشهادةِ هذه يقوم بها أيضاً أتباعُ الرسول الذين بلّغوا رسالته للناس في عصره ، وللأجيال من ورائه ، وفي ذلك **يقول الله تعالى** في حق أمة محمد ﷺ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣][٢].

ولو لم يرسل الله الرسلَ إلى الناس لجاءوا يومَ القيامة يخاصمون الله جلّ وعلا ، ويقولون: كيف تعذّبنا وتدخلنا النار ، وأنت لم ترسلْ إلينا مَنْ يبلّغنا مرادك منا ، كما **قال تعالى** : ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٣٠).
(٢) عقيدة التوحيد ص(٢٣٠).

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

أي لو أهلكهم الله بعذابٍ جزاءَ كفرهم قبل أن يرسلَ إليهم رسولاً لقالوا: هلاّ أرسلتَ إلينا رسولاً كي نعرفَ مرادك، ونتبعَ آياتك، ونسيرَ على النهج الذي تريد؟ وفي يوم القيامة عندما يجمعُ الله الأولين والآخرين يأتي الله لكلّ أمة برسولها، ليشهدَ عليها بأنّه بلغها رسالةَ ربه، وأقام عليها الحجة. ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ ـ ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ولذلك فإنّ الذين يرفضون اتّباع الرسل، ويُعْرِضون عن هديهم لا يملكون إلاّ الاعترافَ بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا، **قال تعالى**: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

ويوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب، وقبل أن يُلْقَوْا في الجحيم يسألون عن ذنوبهم فيعترفون، **قال تعالى**: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ ـ ١١].

وعندما يضجّون في النار بعد أن يُحيطَ بهم العذابُ من كلِّ جانب، وينادَوْنَ ويصرخون يقول لهم خزنة النار ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠][1].

١١ ـ التبشير والإنذار:

دعوةُ الرسل إلى الله تقترنُ دائماً بالتبشير والإنذار، لأنّ ارتباطَ الدعوة إلى الله

---

(١) الرسل والرسالات ص (٥٣).

بالتبشير والإنذار وثيقٌ جداً، فقد قَصَرَ القرآنُ مهمة الرسل عليهما في بعضِ آياته، **قال تعالى**: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وتبشيرُ الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشّرون الطائعين بالحياة الطيبة، **قال تعالى**: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] **وقال تعالى**: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. ويَعِدُونهم بالعزّ والتمكين والأمن، **وقال تعالى**: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي، **قال تعالى**: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ويحذّرونهم من العذاب والهلاكَ الدنيوي ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وفي الآخرةِ يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها، **قال تعالى**: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

ويخوّفون المجرمين والعصاة من عذاب الله في الآخرة، **قال تعالى**: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ومن يدرس دعواتِ الرسلِ يجد أنّ مِن وظائفها التبشيرَ والإنذار(١).

ثامناً ـ من أهمّ صفات الأنبياء والمرسلين:

ذكر العلماء صفات في الأنبياء منها:

١ ـ الذكورة:

فالنبوّة خاصّةٌ بالرجال، ولا تكونُ للنساء أبداً، والدليلُ على ذلك هو واقعُ

---

(١) الرسل والرسالات ص (٤٨).

حالِ الرسل ، فالله سبحانه لم يختزْ رسلَه الذين بعثهم إلى الناس على مرّ العصور إلاّ من الذكور ، **قال تعالى**: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] **وقال تعالى**: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩] ، **وقال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

قال الطبري: **يقول تعالى ذكره** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ يا محمد ﴿ مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ لا نساء ولا ملائكة[(١)].

والحكمةُ من تخصيص الرجال بالنبوّة دون النساء ، أنّ النبوة عِبءٌ ثقيل ، وتكليف شاق ، لا تتحمّله طبيعة المرأة الضعيفة بتركيبها البيولوجي والنفسي ، الذي أعدت من خلاله لأداء وظائف الأمومة والتربية ، ولهذا كان جميعُ الأنبياء من الذكور ، لأنّ مهام الرسالة مضنيةٌ ، تحتاجُ إلى مصابرة ومجاهدة ، وتتطلّب الكفاحَ والسفر ، وخوض المعارك ، وتحمّل المشاق ، والرجلُ أقدر على ذلك من المرأة ، ولقد عانى الرسلُ جميعاً محناً قاسيةً من قِبلِ أقوامهم حين كانوا يدعونهم ، وابتلوا ابتلاءاً شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله ، ولهذا **قال تعالى** مخاطباً سيد المرسلين: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٢ ـ الحرية:

وكما اشترط في الرسول أن يكون ذكراً ، كذلك لابدّ أن يكون حراً ، لأنّ العبودية مطعنٌ يطعن به الكفّار على الرسول ، ويعيّرونه بها ، هذا بالإضافة إلى أنها قيدٌ لا يتّفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها[(٢)].

٣ ـ البشرية:

لقد أكّد القرآن الكريم على صفات الرسل البشرية لحماية جانب التوحيد ، فالخالق خالق ، والمخلوق مخلوق ، وإذا كانت تلك الصفات تدفع بالنفس

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٨٠).
(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٣٩).

الضعيفة أن تؤلّه هؤلاءِ الصفوة ، فإنّ هذه الصفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح ، وتقي من الانزلاق ، وهي مع تلك تكمّل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ، ومن الأمثلة على ذلك :

أ ـ التأكيد على أن هؤلاء الصفوة هم بشرٌ من خلق الله : قال تعالى : ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم : ١١]. **وقال تعالى :** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] . **وقال تعالى :** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

ب ـ التأكيد على أنهم عباد الله : فعن نوح عليه السلام **قال الله تعالى :** ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر : ٩] .

وعن داود عليه السلام **قال تعالى :** ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٣٠] .

وعن أيوب عليه السلام **قال تعالى :** ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص : ٤١] .

وعن عيسى عليه السلام **قال تعالى :** ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم : ٣٠] .

عن محمد ﷺ **قال تعالى :** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١] **وقال تعالى :** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف : ١][1] .

ج ـ ليس فيهم شيءٌ من خصائص الألوهية : إنهم لا يملكون من أمر الله شيئاً ، ولا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله ، ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهية شيءٌ ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرؤون من الحول والطول ، ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدّعون شيئاً من صفات الله تعالى ، **قال تعالى** مبيناً براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

(١) المحكم في العقيدة ص (١٣٩).

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

والرسول لا يتصرّف في الكون ، ولا يملك النفع أو الضر ، ولا يؤثر في إرادة الله ، ولا يعلم من الغيب إلا القَدْرُ الذي أراده الله له ، **قال تعالى**: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨][1]. **وقال تعالى**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦] **وقال تعالى**: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾ [الأنعام: ٥٨].

د ـ ذكر عوارضهم البشرية ، كالمرض والجوع والتعب والأكل والموت والغضب. . إلخ: فهم يتّصفون بالصفات التي لا تنفكّ عنها البشرية ، فمن ذلك كونهم جسداً يحتاجون لما يحتاجُ إليه البشر من الطعام والشراب ، ويُحْدِثون كما يحدث البشر ، لأنّ ذلك من لوازم الطعام والشراب.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٨].

ومن ذلك أنّهم وُلدوا كما وُلِدَ البشر ، لهم آباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوّجون ، ويولد لهم ، **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويصيبُهم ما يصيبُ البشر من أعراض ، فهم ينامون ، ويقومون ، ويصحّون ، ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر ، وهو الموت.

قال تعالى في ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩ ـ ٨١][2].

---

(١) العقيدة الإسلامية ، د. أحمد جلي ص (٢٢٦).
(٢) الرسل والرسالات ص (٧٤).

وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

وقال الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال تعالى مبيناً أنّ هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: كان بشراً من البشر يفلّي ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخدمُ نفسَه[١].

وقد صحّ أنَّ الرسول ﷺ قال لأم سُلَيْمٍ: «**يا أمَّ سُليم، أما تعلمينَ أنّي اشترطتُ على ربِّي فقلت: إنّما أنا بشرٌ، أرضى كما يرضى البشرُ، وأغضبُ كما يغضبُ البشرُ، فأيّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمّتي بدعوةٍ ليسَ لها بأهلٍ، أن يجعلها طهوراً وزكاةً وقُربةً يقرّبه بها منه يوم القيامة**»[٢].

هـ ـ تعرض الأنبياء للبلاء: الأنبياءُ لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشدُّ الناس بلاءً، فعن المصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجلُ على حَسَبِ دينه، فإنْ كانَ دينُه صلباً اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلِيَ على حسب دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ**»[٣].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يوعَكُ، فوضعَ يده على الرسول ﷺ، فوجدَ حرّاً بين يده فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدّها عليك؟! قال: «**إنّا كذلك، يضعّفُ علينا البلاءُ ويضعّفُ لنا الأجرُ**» قلت، يا رسول الله، أي الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ، ثم الصالحون، إنْ كانَ أحدُهم**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني رقم (٦٧١).

(٢) المصدر نفسه رقم (٨٤).

(٣) سلاسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣).

ليُبتلى بالفقر ، حتى ما يجدُ إلا العباءةَ التي يحويها ، وإن كان أحدُهم ليفرحُ بالبلاءِ كما يفرحُ أحدُكم بالرخاء»[١] .

فالأنبياءُ قد يسجنون كما سُجنَ يوسف ، **قال تعالى :** ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢] كما ذكر الله تعالى .

وقد يصيبهم قومُهم بالأذى ، وقد يرمونهم ، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أُحدٍ فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم ، كما هاجر إبرهيم عليه السلام من العراق إلى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٧] .

وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى اللهُ نبيَّه أيوبَ فصبر ، وقد صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إنَّ نبيَّ الله أيوب لبثَ في بلائه ثمانَي عشرةَ سنةً ، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلينِ من إخوانه**»[٢] .

وكان من ابتلائه أنْ ذهبَ أهلُه ومالُه ، وكان ذا مالٍ وولدٍ كثير ، **قال تعالى :** ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤] .

و ـ اشتغال الأنبياء بأعمال البشر: ومن مقتضى بشريتهم أنّهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارةِ قبل البعثةِ ، ومن ذلك رعي الأنبياءِ للغنم ، فقد روى جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكُباث[٣] ، وأنّ رسول الله ﷺ قال:

---

(١) المصدر نفسه رقم (١٧).

(٢) المصدر نفسه رقم (١٤٤).

(٣) الكباث: ثمرُ الأراك ، ويقال ذلك للناضجِ منه.

«**عليكم بالأسود منه ، فإنّه أطيبُه**» قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**وهل مِنْ نبيٍّ إلا وقد رعاها**»(١).

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبيُّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عِدّةَ سنوات ، فقد قال له العبد الصالح: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٧ ـ ٢٨].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة: إنّ الحكمةَ في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسَهم بالتواضع ، وتعتادَ قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم(٢).

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حداداً يصنع الدروع ، **قال تعالى**: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ، وكان في الوقت نفسه ملكاً ، وكان يأكل مما تصنعه يداه ، ونبي الله زكريا كان يعملُ نجاراً(٣).

ز ـ لِمَ لمْ يكن الرسل ملائكة؟ الرسل جميعاً من البشر ، ومن الأمم نفسها التي بعثوا فيها ، يتحدّثون لغة قومهم ، ويعيشون بينهم ، وقد كان ذلك لحكمةٍ أرادها الله تعالى لم تتضح للمخاطبين وبالرسالات ، ومن ثَمَّ أنكروا أن يكون الرسل بشراً.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١] أوأن يتنزّل الوحيُ الإلهي على واحدٍ من البشرِ على الإطلاق. **وقال تعالى**: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

لأنّ طاقات البشر وإمكاناتهم المألوفة لديهم لا تتناسبُ وتحمُّل الوحي ، بل

---

(١) البخاري ، فتح الباري (٦/ ٤٣٨).
(٢) المصدر السابق (٦/ ٤٣٩).
(٣) ثبت في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه ، انظر: مشكاة المصابيح (٣/ ١١٧) ، الرسل والرسالات ص (٧).

الذي يتناسب مع ظاهرة الوحي العجيبةِ نزولُ ملَكٍ يقوم بهذه المهمة ، أو يعيّن الرسول في القيام بها. **قال تعالى**: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. **وقال تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقد بيّنَ القرآنُ أنَّ هؤلاء القوم بمطلبهم هذا قد غفلوا عن عِدّة أشياء منها :

* **أنّ الملائكة لم يخلقوا لسكنى الأرض**، والعيش فيها باطمئنان ، **قال تعالى**: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥].

* **أنّ الملك لو نزل على الأرض**؛ فلابدّ أن يتّخِذَ صورةَ البشرِ ، وعندئذٍ لا يستطيعون أن يتعرّفوا على حقيقته الملائكية ، ولا أن يميّزوا بينه وبين سائر البشر. **قال تعالى**: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

* **لو كان الرسولُ من غير البشر أنفسهم لانتفت الحكمةُ من إرساله** ، لأنّ الرسل أرسلوا لا للتبليغ فحسب ، بل ليكونوا قدوةً عملية لأقوامهم ، فلو كان الرسول مَلَكاً ، لما تحققت القدوة والمثال ، ولامتنع الناسُ من الالتزام بأوامر الله ، ولقالوا: نحنُ بشرٌ لنا نَزَعاتٌ وشهواتٌ ، وليس في وسعنا الالتزامُ بما تلتزم به الملائكةُ ، فكيف يُطْلَبُ منا الاقتداء بهم في أعمالهم ، أفلا يرسِلُ إلينا بشراً مثلنا ، يحسّ كما نحسّ ، ويفكّر كما نفكّر ، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقاتنا؟ وبذلك تتجلى الحكمة من إرسال الرسل بشراً ، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول ، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحدٍ من جنسهم له نفس تركيبهم ونفس ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن.. إلخ فهو يأكلُ الطعامَ ، ويمشي في الأسواقِ ، **قال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

والله سبحانه وتعالى اصطفى الأنبياء والرسل ، ومنحهم القدرةَ على تلقي الوحي الإلهي بإمكاناتٍ خاصة ، أودعها نفوسَهم ، دون أن يخرِجَهم ذلك عن حدودِ بشريتهم[١] .

٤ ـ الصدق :

الصدقُ هو محورُ النبوةِ ، ومدارُ ارتكازها ، فكلَّ ما ينطق به الأنبياءُ صدقٌ خالصٌ ، ولا يمكن أن يجافي الواقعَ أو الحقيقةَ ، وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياءِ يشيرُ إلى هذه الصفة عندهم[٢] .

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما آية من كتابه العزيز ، **كقوله** عن إدريس عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ٤١]. **وقوله** عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]. **وقوله** عن موسى عليه السلام : ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]. **وقوله** عن يوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]. **وقوله** فيه : ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. **وقوله** في حقِّ نبينا محمد ﷺ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وقوله في حقه أيضاً: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢ ـ ٣٣].

فسمى ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه ، وأخبار رسله وخلقه ، قرآناً أو سنة ، سمّاه صدقاً ، وذلك وقفٌ له بالالتزام ، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادقٌ ، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقُه معلوماً من حداثةِ سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه ، فإنّ الأعداءَ من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكّون يوماً في صدقه كما **قال تعالى**: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة ، فقد ذكر بعضها ومثل هذا

---

(١) العقيدة الإسلامية ص (٢٢٦).
(٢) النور الخالد ص (٧٥).

الدليل الالتزامي **قول الله تعالى في حقه ﷺ**: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

حيث دلّلَ الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانُع، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه ﷺ بتلك الصفة، لامتناع تقوّله عليه، وامتناعُ التقوّل عليه يعني الصدق فيما يقول: فالآيةُ إذاً تطمئِنُ النفوسَ على صدق وأحقيّة ما جاء به محمد ﷺ غاية الاطمئنان، إذ دلّت على أنّ الله تعالى له بالمرصاد، إن هو تقوّل عليه، ـ وحاشاه ذلك ـ والواقع خلافه، فإنّ الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالّة على صدقه، وهي منزلةٌ منزَّلةَ أن يقول الحقّ تبارك وتعالى: صدقَ عبدي فيما يبلِّغ عني، إذ لولا صدقُه لما أمدّه بها، كما يُعْلَمُ من حال الكذّابين من مدّعي النبوة، وكما يدل عليه **قوله تعالى**: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٢٤](١).

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى ﷺ بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوّه المرة تلو الأخرى، ويظهر دينه يوماً بعد يوم، دلّ ذلك على صدقه ﷺ فيما يبلِّغُ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرةٍ، **كقوله سبحانه**: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

فهذا قَسَمٌ من الله جلا وعلا، على أنّ ما ينطق به النبيُّ ﷺ هو وحيٌ من الله تعالى، لا مجال لمحمد ﷺ في أن يأتيَ به من عنده، أو أن يتقوّله عنه(٢). **قال تعالى**: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٧].

---

(١) النبوة والأنبياء، لابن تيمية ص (٢٢٨ ـ ٢٣٠).

(٢) أخلاق النبي في القرآن والسنة، د. أحمد عبد العزيز الحداد (٢/ ٩٩٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ولقد اشتَهَرَ الرسولُ ﷺ منذُ الصغر بالصدقِ والأمانة حتى كان المشركون يسمّونه الصادق الأمين، وكانت ثقتُهم به تامةً، ومع أنه لم يكنْ قد بُعثَ بعدُ نبياً، إلا أنه كان محطَّ ثقةِ الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضلُ ما شهدت به الأعداءُ، فها هو أبو سفيان ألدُّ أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه، ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إنّ هرقلَ أرسل إليه في رَكبٍ من قريش، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس)، فدعاهم إلى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم، ودعا بترجمانه فقال: أيُّكم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذي يزعمُ أنّه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه، قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبني فكذّبوه، فواللهِ لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذَبْتُ عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن **قال**: كيف نسبه فيكم؟.

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قط قبله؟.

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.

قلت: لا.

قال: فأشرافُ الناسُ يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟.

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه؟.

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

قلت: لا.

قال: فهل يَغْدُرُ؟.

قلت: لا، ونحن منه في مدّةٍ، لا ندري ما هو فاعلٌ فيها، قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟.

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجال، ينالُ منّا وننالُ منه.

قال: ماذا يأمركم؟.

قلت: اعبدوا الله وحدَه، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: **قل له**: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسلُ نبعث في نسبِ قومها.

وسألتك: هل قال أحدٌ منكم هذا القول، فذكرتَ لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبله لقلتُ رجلٌ يأْتَسِي بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أنْ لا. قلتُ: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجلٌ يطلبُ مُلك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال، فذكرتَ أنْ لا، فقد أعرفُ أنّه لم يكنْ ليذرَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله»[(١)].

والنصُّ طويلٌ، ونقتصر على هذا القدر، وأهمُّ ما يلفتُ النظرَ هنا وجودُ دليلين على صدق رسول الله ﷺ: أوّلُهما هو **هرقل إمبراطور الروم**، الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني: هو **جوابُ أبي سفيان**، الذي كان يعترِفُ بصدقٍ

(١) البخاري (١/ ٧).

رسول الله ﷺ ويقبله ، مع أنه لم يكن قد أسلمَ بعدُ ، ولكنّ هرقل أضاع فرصةً ذهبيةً جاءَت إليه ، إذ إنّ حبّه لملكه أضاعَ عليه الحصولَ على الملك الحقيقي الخالد ، فلم يُسْلِمْ ، ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة(١) .

٥ ـ التبليغ :

إنّ مهمة الرسل الأولى التي كلّفهم الله تعالى بها إلى الأمم ، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور : **هي التبليغُ** الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التي حمّلهم إيّاها ، فيجبُ عليهم التبليغُ ، ويستحيل عليهم الكتمانُ ، ويجب على المسلمين اعتقادُ ذلك فيهم ، تصديقاً لشهادة الله تعالى لهم بذلك ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل : ٣٥] .

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام ، حيث بلّغوا كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ليلاً ونهاراً ، لا يفترون عن ذلك ، ولا يملّون ، حتى قامت الحجةُ على أقوامهم ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقّت عليه الضلالة ، وقد كانوا ينالون من جرّاء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم ، والشفقة بهم ، لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبولِ ما بلّغوه عن الله تعالى جل جلاله .

فكان كلُّ واحد يبذل جهده ، ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أُمِرَ بتبليغه إليهم ، ويتلطّف لهم بالخطاب ، ليقبلوا ما جاءوا به من عند الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عن **نوح عليه السلام** : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦١ ـ ٦٢] . وكما قال **هود عليه السلام** لقومه أهل عاد : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٧ ـ ٦٨] . إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على التلطّف بالبلاغ ، وكمال الرحمة بالمبلَّغين .

فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليه قط ، بل إنّهم كانوا يتفانون في النصيحةِ لأقوامهم لقبوله ، فيجادلونهم ويحاورونهم بالتي هي

---

(١) النور الخالد ص (٧٩) .

أحسن ، حتى يقبلوا ، أو ييأسوا من ذلك ، فعندئذٍ لا يَسَعُهم إلاّ أن يقولوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧] كما قال **هود عليه السلام** لما يئس من قوم عاد من قبول رسالة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]. **وقال أيضاً**: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧] وكما قال **صالح عليه السلام**: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩][(١)]. وكما قال **شعيب عليه السلام**: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهكذا نجد الرسل جميعاً يعلنون بكل صراحةٍ ووضوحٍ أنهم قد بلّغوا رسالة الله ، ونصحوا للأمة ، حتى **خاتم الرسل محمد** ﷺ يأمره ربُّه بتبليغ الرسالة ، فيقول مخاطباً له: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكلُّ رسول مكلَّفٌ بتبليغ الدعوة والرسالة ، ولا يمكِنُ لأحدٍ من الرسل أن يزيدَ حرفاً أو ينقِصَ حرفاً ممّا نزل عليه ، لأنه يكونُ قد خالف أمر الله ، وخانَ الأمانة التي عُهدتْ إليه ، ولهذا نجدُ بعضَ السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ وهو أمرٌ موجَّهٌ للنبيِّ ﷺ ليبلغه لأمته ، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه ، دون زيادة أو نقصان ، اقرأ مثلاً **قوله تعالى**: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. **وقوله تعالى**: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢]. **وقوله تعالى**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]. **وقوله تعالى**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وقد كان يكفي الرسول أن يبلّغَ الأوامرَ الإلهية دون تلك الكلمة التي خوطب بها ، ولكنّه أمينٌ على الوحي ، يبلِّغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل ، أو زيادةٍ أو نقصان ، فلم يقل ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ولم يقل ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أو ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وإنّما ذكر الأمرَ الذي توجّه إليه من

---

(١) أخلاق النبي (٢/١٠٠٦).

العلي القدير ، بنفس الصيغة ، ونفس الحروف ، وذلك دليلٌ الأمانةِ القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة.

والغرض من (التبليغ) أن يقطعَ اللهُ الحجةَ على الناس ، ولئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ يومَ القيامة ، فإنّ الله تبارك وتعالى أكرمُ من أن يعذّب إنساناً قبل أن تبلغه الرسالةُ ، وأرحمَ من أن يعذّبه دونَ ذنبٍ ، كما **قال تعالى**: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥][(١)].

كان التبليغُ لدى سيد المرسلين فطرةً وسجيةً ، وكانت نفسُه تضيقُ عندما لا يجدُ قلباً طاهراً يقبلُ دعوته ، مثلما نضيق نحن إن حُرمنا من الطعام والشراب ، أو عندما نحرَمُ من تنفس الهواء ، والحقيقة أنّه ﷺ ما كان يهتمّ بالطعام والشراب ، فقد كان يصومُ أحياناً صوماً متواصلاً ، وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسدِّ رمقه فقط ، وإبقائه حياً ، فإنّ قلبَه المفعمَ بآلام دعوته لم يدعْ لديه شهيةً للأكل ، فكما تعيشُ الملائكة بالتسبيح ، كان رسولُنا ﷺ يعيشُ بالدعوة ، وعندما يجدُ أمامه صدراً رحباً طاهراً يفرحُ وينشَطُ ، والقرآن الكريم يصفُ وضعَه هذا **فيقول**: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وفي آية أخرى **يقول**: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦][(٢)].

٦ ـ الفطنة والحكمة وقوة الحجة:

وهذه الصفات واضحة في القرآن الكريم في سير الأنبياء والمرسلين ، فقد **قال تعالى** عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال تعالى داود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال أيضاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وعن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

---

(١) النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ص (٥١).
(٢) النور الخالد ص (١٧١).

ويمكن ملاحظة هذه الصفات من خلال هذه الأمثلة القرآنية والنبوية[(١)].

أ ـ إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فسيدنا إبراهيم عليه السلام في غاية الذكاء والنباهة، والحكمة وقوة الحجة، وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين نجدْ فيه آيات النبوغ والحكمة والذكاء، **قال تعالى:** ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨ ـ ٦٧].

وحقاً إنّه لمنتهى الذكاء والنبوغ، يتجلّى في عمل إبراهيم عليه السلام، فلقد حطم بيده الأصنام، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام، ليقيمَ الحجةَ على قومه، فحين قدّموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: مَن الذي حطّم آلهتنا، وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنتَ فعلتَ ذلك يا إبراهيم؟.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطّمها، ولكنّ الصنمَ الكبير والإلهَ العظيم هو الذي حطمها، لأنه لم يرضَ أن تعبد معه، والدليل على ذلك أنّه وضع القدوم في عنقه، وإذا لم تصدّقوا كلامي، فاسألوهم عن ذلك الأمر، وسلوه، وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه، فأقام عليهم الحُجّة بعد أن سفّه عقولهم، وجعلهم يضحكون من أنفسهم، وهكذا يكون منطق الأنبياء.

وانظر إليه في موقف آخر، وهو يجادلُ الطاغيةَ (النمرود) الذي نازعَ اللهَ في ملكه، وزعم أنّه إله يُعْبَدُ من دون الله، وأنّه الربُّ المعبود، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاءه؟ وكيف دحض خصمه العنيد، **قال تعالى:** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ

---

(١) المحكم في العقيدة ص (١٣٤).

إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨][1].

فانظر في الآيات السابقة لمّا أراد الطاغية أن يَرُوْغَ في قضية الإماتة والإحياء، كيف ترك إبراهيمُ هذه المسألة، وفاجأ الطاغيةَ بسؤالٍ لم يتوقعه فأرداه باهتاً، وتصوّر لو أنّا افترضنا أنّ إبراهيم بقيَ يجادله في المسألة الأولى ماذا تكون النتيجة؟ ثم لاحظ أنَّ سؤال إبراهيم الثاني لا يدعُ المجال حتى للمكابر، فتخيّل لو أنّ إبراهيمَ قال له: مَنْ خلقَ الشمس؟ فإنّ المكابر قد يقول: أنا، ولكنّ إبراهيم طالبه بفعلٍ جديدٍ في الشمس، فماذا يقول المكابر[2]؟.

فقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجةَ الدامغةَ بفطنته النيرة، بحيث لم يستطع مواصلةَ اللجاج والعناد، وبذلك عرّف خبره لأتباعه، وأنه أحقر من أن يخلقَ بعوضةً أو يدبّرَ أمراً، وتبيّن لهم بذلك أنَّ دعواه الألوهية محض افتراء، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناسُ غالباً على أديان ملوكهم، وأتباع كلِّ ناعق[3].

ومن فطنةِ إبراهيم عليه السلام وحكمتِهِ وقوةِ حجته مناظرته لقومه في شأنِ معبوداتهم من الكواكب، حيث استطاعَ إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلانِ ألوهيتها، بما لم يدع شكاً للمنصف العاقل، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادِهم شيئاً فشيئاً، حتى أتى على معتقدهم الزائفِ من أساسه، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه، كما قصّه الله تعالى علينا ذلك **بقوله**: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص (٥٣).
(٢) المحكم في العقيدة ص (١٣٥، ١٣٦).
(٣) أخلاق النبي (٢/١٠٤١).

بيّن إبراهيمُ عليه السلام أولاً عدمَ صلاحية الكواكب للألوهية ، ثم ترقّى منها إلى القمر ، الذي هو أضوأ منها وأبهى ، ثم ترقّى إلى الشمس التي هي أشدّ الأجرام المشاهدةِ ضياءً وسناءً وبهاءً ، فبيّن أنها مسخرةٌ مسيّرةٌ مقدّرةٌ مربوبةٌ ، فلا تصلَحُ أن تكون رباً[١] .

وأنَّ الربَّ من شأنه أن يكون مدبِّراً مسخِّراً ضارّاً نافعاً ، وأنَّ هذه الكواكب لا تملكُ شيئاً من هذه الأمور ، فهي إذاً لا تستحقُّ أن تعبدَ ، فأعلنَ براءته منها وإخلاصَ عبوديته لله تعالى **قائلًا**: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] .

وبذلك زعزع إيمانَهم في معتقداتهم الضالّة بهذه الكواكب السيّارة ، التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وذلك بفضل الله تعالى ، ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلي الحكيم القائم على استدراج المخاطَبِ بالتسليم بدعاويه ، ثم الكرَّ عليها بالبطلان ، لقوة الحجة والبرهان ، وما كان له بذلك من قوة لولا الفِطنةُ الكبرى التي رزقه الله تعالى إيّاها ، لتساير تكليفه بالرسالة[٢] .

ب ـ نوح عليه السلام:

استطاع نوحٌ عليه السلام بفطنته وحكمته وقوّة حجته أن يُفحمَ مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته ، واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب ، **وقالوا**: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] .

ذلك لأنه ما فتئ يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم ، كلما أتوه بشبهة فندّها ، وكلما جادلوه أسكتهم ، فلا يملكون جواباً ولا رداً ولا حجة ، ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]. أجابهم نوح عليه السلام **بقوله**: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٠٤١).
(٢) أخلاق النبي (٢/ ١٠٤١).

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٨ ـ ٣١].

فقومه لمّا جادلوه بما يُنمي عن قصور عقولهم، حيث احتجّوا عليه بفقده وسائلَ السؤدد عليهم في نظرهم من المال والجاه، فرأوا أنّه غيرُ أهلٍ لشرفِ الرسالة، وأنّه من جنسهم البشري، وظنّوا أنّ شرفَ الرسالة ينبغي أن يكونَ لغير هذا الجنس، مع أنّه الجنسُ الذي كرّمه الله وشرّفه على كثيرٍ من الأجناس، كما **قال تعالى**: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فلمّا قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال، حيث نظروا إليه وإلى أتباعه، فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس، بل إنّ أتباعه من ضعفاء قومهم، ورأوا أنّ ذلك علامةُ كذبه، وضلالُ أتباعه، لمَّا كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك الإجمالِ لإبطالِ شبههم، ثم مسلك التفصيل لردّ أقوالهم.

أمّا **مسلك الإجمال** فسلك فيه مسلك القلب، بأنّهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمِلُ على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيعُ أن يحملهم على رؤيةِ المعاني الدالّة على صدقه، وأنّه لا يستطيع منعَ الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به، وأنّه لم يدّعِ فضلاً غيرَ الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم: ١١].

ثم **فصّل إجابته السابقة**، فأجابهم عمّا توهموه، من أنّ من لوازم النبوة أن يكونَ أغنى منهم أو أن يعلمَ الأمورَ الغائبة بقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١].

والمعنى لا أدّعي ما ليسَ لي، فتنكروا قولي، وتستبعدوا ما آتاني الله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنّه بشر لا يستحقُّ أن يتميّزَ عنهم بالرسالة أجابهم بقوله: ﴿وَلَآ

أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ بل أنا بشرٌ مثلكم تعرفوني وأعرفكم ، ولكن آتاني الله فضلَ الرسالةِ إليكم .

وعن دعواهم باسترذالِ أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط ، لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأنَّ ضعفهم ليس بحائلٍ بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباطَ بين الضعفِ في الأمور الدنيوية من فقرٍ وقلةٍ ، وبين الحرمان من نوالِ الكمالاتِ النفسانية والدينية ، **فقال**: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ .

وهكذا فنّد ادعاءاتهم واحدةً واحدةً بما لم يتركْ لهم مجالاً للمكابرة ، حيث قرّر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه ، والتي لا يجهلونها ، وجعلهم في واقع الأمر مسلّمين بأنّه لا يحملهم على مجادلته إلا محضُ الكِبْرِ ومجرّدِ اللجاج والعنادِ ، فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعّدهم به ، لما سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم ، شأنهم بذلك شأنُ المبطِلِ إذا دمغته الحجة فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢][(١)] .

ج ـ يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ
فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١] .

---

(١) أخلاق النبي (٢/ ١٠٤٠).

ومن فطنةِ يوسفَ عليه السلام وحكمتِه وقوّةِ حجته توظيفُه حاجةَ صاحبيه إلى علمِه، فشرعَ في بثِّ عقيدته الصحيحة بين السجناءِ، وتوضيح التوحيد، وخطورة الشرك، ويبدو في طريقةِ تناول يوسف للحديثِ لطفُ مدخله إلى النفوس، وكياستُه، وتنقّلُه في الحديث في رفقٍ لطيفٍ(١)، ولمّا أكملَ مهمته في تبليغ الدعوة شرعَ في تفسير الرؤيا للسجينين.

د ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٢]. حيث أقسم المولى جلّ وعلا قَسَماً مؤكَّداً على نفي الجنون عنه الذي كان يرميه به بعضُ المشاغبين من أهلِ الكفر والعِناد، كما **قال سبحانه:** ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]. وذلك ردّاً عليهم، وتكذيباً لقولهم، كما **قال** في آية أخرى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]. وفي ذلك النفي إثباتٌ لكمال عقله، وأنّه من إنعامِ اللهِ عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيلُ للنبوة بمنزلةٍ عظمى لا يُرْقَىٰ إليها. وقد برهن الله تعالى على كمال عقله ـ إضافة إلى قسمه المؤكّد ـ بعظمة أخلاقه، حيث **قال** بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٣ ـ ٤].

إذ إنّ صاحبَ الخلق العظيم، لا يكونُ إلا في منتهى الكمال العقلي، والصفاء الذهني، لأنّ العقلَ أصلُ فروع الفضائل الخُلقية، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها حيث يتفرّع منه: ثقوبُ الرأي، وجودةُ الفطنة والإصابة، وصدقُ الظنِّ، والنظرُ للعواقب، ومصالحُ النفسِ، ومجاهدةُ الشهوةِ، وحسنُ السياسةِ والتدبير، واقتناءُ الفضائل، وتجنُّب الرذائل، وقد كان ﷺ من هذه كلها في الغايةِ القصوى التي لم يبلغْها بشرٌ سواه(٢).

وقال القاضي عياض بعد أن قرّر أنّه لا مريةَ في أنّه ﷺ أعقلُ الناس وأذكاهم، قال: ومن تأمّل تدبيرَه أمرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسةِ العامة والخاصّة،

---

(١) في ظلال القرآن (٤/١٩٨٨)، المحكم في العقيدة ص (١٣٦).
(٢) الشفا، للقاضي عياض (١/٢١٦).

مع عجيب شمائله ، وبديعِ سيرته ، فضلاً عَمّا أفاضه من العلم ، وقرّره من الشرع ، دونَ تعلّم سابقٍ ، ولا ممارسةٍ تقدّمت ، ولا مطالعةٍ للكتب فيه ، لم يمترِ في رجحانِ عقله ، وثقوبِ فهمه لأوّلِ بديهةٍ[١] .

ومن الأمثلة على فطنته وذكائه :

* **سرعةُ إقامةِ الحجّة على المعارضين ، وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل** ، فلا يستطيعونَ مجاراته أو مكابرته ، بل لا يَسَعُهم إلاّ الإذعانُ والتسليمُ ، أو النكوصُ على أعقابهم خاسئين .

ومن ذلك ما أجابَ به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبو سفيان ـ وهو على شركه يومئذٍ ـ بأوثانه إثر المعركة التي انجلت عن نصرٍ له ولقومه أهل الشرك والوثنية ، فقال متبجّحاً : أعْلُ هُبَل[٢] .

فقال ﷺ : «**أجيبوه**» .

فقالوا : ما نقول؟ .

قال : «**قولوا : الله أعلى وأجلّ**» .

قال أبو سفيان : لنا العُزّى[٣] ، ولا عُزّى لكم .

فقال ﷺ : «**أجيبوه**» .

فقالوا : ما نقول؟ .

قال : «**قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم**» .

فقال أبو سفيان : يومٌ بيومٍ والحربُ سجالٌ ، وتجدون مُثْلَةً لم آمرْ بها ، ولم تَسُؤني .

فقال ﷺ : «**أجيبوه**» .

فقالوا : ما نقول؟ .

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٦١) .

(٢) اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه .

(٣) اسم للصنم لهم كان بالطائف ، تفسير غريب الحديث ١٦٦ .

قال: «**قولوا: لا سواء ، قتلانا في الجنّةِ ، وقتلاكم في النار**»[١].

ومن مظاهر كمال فطنته ﷺ **سرعةُ حَلِّه للمشاكل المستعصية** ، التي تحارُ في حلِّها العقولُ الكبيرةُ الشهيرة.

فقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عُرى الوحدةِ بين المهاجرين والأنصار ، فكانت حكمةُ النبيِّ ﷺ وفطنتُه لهم بالمرصاد ، فأحبطتْ تلك المحاولةَ الخبيثةَ ، وأجهضتها في حينها ، وذلك أنّ رجلاً من غِلمان المهاجرينَ كسع[٢] رجلاً من غلمان الأنصار، إثر اختلافٍ بينهما على الماء، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال ﷺ: «**دعوها فإنها مُنتنةٌ**».

فسمع بذلك عبد الله بن أُبيّ رأسُ المنافقين فقال: فعلوها؟ أمّا واللهِ لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل ، فبلغَ النبيَّ ﷺ ، فقام عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ، دعني أضرِبُ عنقَ هذا المنافق ، فقال النبيُّ ﷺ: «**دعه ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمّداً يقتلُ أصحابه**»[٣].

ثم سار رسول الله ﷺ بالناس يومَهم أجمع ، حتى أمسىٰ ، وليلتَهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم حتى آذتهم الشمسُ ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً. وإنّما فعل ذلك ليشغلَ الناسَ عن الحديثِ الذي كان بالأمسِ[٤] ، حيث خاضَ الناسُ في حديثِ عبد الله بن أبيّ ، وفي النزعةِ الجاهليةِ التي كادتْ تقضي على وحدةِ المجتمعِ المسلم لولا حكمةُ رسول الله ﷺ وسياسته الماهرة ، وفطنته العظيمة ، في إطفاءِ لهبها بسيره الميمون ، ذلك الذي أشغلهم به عن الخوض في تلك الفتنة العمياء ، التي أرادَ رأسُ النفاق أن يُشْعِلها ، ليحقِّقَ غرضه في زعزعةِ المجتمع المسلم ، وإطفاء نور

(١) البخاري (٥/ ١٢١).

(٢) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك.

(٣) البخاري (٦/ ١٩١).

(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٩٤) ، البداية والنهاية (٤/ ١٥٨).

الله ، ولكنَّ اللهَ ردَّ كيده في نحره بفضل ما آتى نبيَّه من الحكمة والفطنةِ والحِلْمِ فصلواتِ ربي وسلامه عليه.

وكم كانت فطنته وحكمته تحلُّ من مشاكل عديدَة في أسرعِ وقتٍ وأقصره ، فيتحقّقُ بذلك له ولأمته ما يَصْبون إليه من نَصْرٍ وسعادَةٍ وعزٍّ وسيادةٍ ، ينوءُ عنها الحصر في مثل هذا المقام المقتضي للإيجاز ، والإتيان من كل بحرٍ بقطرة كنموذج لغيره ، والدليلُ على ما سواه.

ومن ذلك **براهينه الساطعة** القاطعة التي كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وأهل كتاب ، التي كانت تقطعُ دابِرَهم ، وتزهقُ باطِلَهم ، وتجعلهم يوقنون أنّهم في ضلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحقِّ بعد سماع تلك القوارع البينة: الكِبْرُ والعنادُ ، والرسوخُ في الإلحاد[1].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل ، أعطاهم الله العقلَ والرُّشدَ ، فكانوا على أكمل وجوه الذكاءِ والنبوغِ ، فقد خصّهم الله تعالى بالذكاءِ الخارقِ ، والفطنة والنباهة ، ليستطيعوا إقامةَ الحجّةِ على أقوامهم ، وقد جرت حكمةُ اللهِ الأزلية ، أن يختارَ للرسالةِ أكملَ الناسِ عقلاً ، وأوفرَهم ذكاءً ، وأقواهم حُجةً وبرهاناً ، ليظهرَ ضياءُ الحقِّ وتعلو دعوةُ اللهِ. وصدقَ اللهُ العظيم حيثُ يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وإذا كان البشرُ يعتريهم النقص ، وتضعفُ قواهم العقلية ، وربّما وصل البعضُ منهم إلى حالةِ الخرف عند بلوغ سِنِّ الشيخوخة ، فإنَّ الأنبياءَ الكرام يظلّون في القمة العليا من رجاحةِ العقل ، وقوّةِ التفكير ، مهما امتدت أعمارُهم ، لأنّ الله تعالى قد أحاطهم بعنايته ، وحفظهم برعايته ، ولا يمكن أن تضعُفَ حواسّهم الفكرية ، وتتعطّل مواهبهم العقلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[2].

---

(١) أخلاق النبي (٢/ ١٠٥٢).

(٢) النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (٥٤).

٧ ـ الأمانة:

وهي أن يكونَ النبيُّ أميناً على الوحي، يبلّغ أوامرَ الله ونواهيه إلى عباده، دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ، ودون تحريفٍ أو تبديلٍ، امتثالاً **لقول الله تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فالأنبياء جميعاً مُؤتَمَنونَ على الوحي، يبلّغون أوامر الله كما نزلت عليهم، لا يمكن لهم أن يخونوا أو يُخْفُوا ما أمرَهم الله تعالى به، لأنّ الخيانة تتنافى مع الأمانة، وهل يليقُ بالنبيِّ أن يخونَ أمانته، فلا ينصحُ الأمة، ولا يبلّغ رسالة الله[١]؟!

ولذلك كان وصفُ الأمانة واجباً، ويجب على الأمةِ اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آياتٍ كثيرةٍ كما قال هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقصَّ عن نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وموسى عليهم السلام مقالةَ كلٍّ منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٦٨، والدخان: ١٨]، وقصَّ مقالةَ ابنةِ شعيبٍ عليه السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دونَ سائر أوصافهم الحميدة، فدل اختيارُ وصفِ الأمانةِ لأنبياءِ الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة على عظمة هذا الخُلق، وبالغُ منزلته[٢].

ولو لم تكن في الأنبياء الأمانةُ لتغيّرت مظاهِرُ الرسالة، وتبدّلت، ولما اطمأنّ الإنسانُ على الوحي المنزَل، ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لو كان محمّدٌ كاتماً شيئاً ممّا نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧][٣].

---

(١) المصدر نفسه ص (٤٨).
(٢) أخلاق النبي (٢/٥٣٦).
(٣) البخاري (٢٢).

وقد نشأ رسول الله ﷺ على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلاً منذ نشأته وترعرعه ، وهو لا يكادُ يُعْرَفُ في أوساط قومه إلا بالأمين ، فيقولون: جاء الأمينُ ، وذهبَ الأمين[١] ، حتى حلّ محلّ الرضا في قلوبهم وعقولهم ، كما دلّ على ذلك احتكامُهم إليه في قصّةِ رفع الحجر الأسودِ عند بنائهم الكعبةَ المشرّفة ، بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ، ووضعه في محله ، حتى كادوا يقتتلون لولا اتفاقهم على تحكيم أولِ داخلٍ يدخلُ المسجدَ الحرام ، فكان ذلك الداخلُ هو محمّدٌ ﷺ المرضيُّ لديهم أجمعين «فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر ، قال ﷺ: «**هلمَّ إليَّ ثوباً**» فأُتيَ به ، فأخذَ الركنَ ، فوضعه فيه بيده الطاهرة ، ثم قال: «**لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ ، ثم ارفعوه جميعاً**» ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثمَ بنى عليه» قال ابن هشام: وكانت قريشٌ تسمِّي رسول الله ﷺ قبلَ أن ينزلَ عليه الوحيُ الأمين[٢].

وهكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحلِّ فتنةٍ كادت تشتعلُ بين بطون قريش ، فتُودي بحياة كثير منهم ، لولا أنَّ الحكمة العظيمة مِنْ صاحب الأمانةِ العظيمةِ أطفأتها ، وما كان لهذه الحكمة أن تبرزَ لو لم يكنْ خلقُ الأمانـةِ قد مهّد الطريقَ أمامها ، ممّا جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرّبَ إليهم شكٌّ في محاباةٍ أو مداهنةِ فئة على أخرى ، لعلمهم بعظيم أمانته ، وثقتهم بـه[٣].

بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته ﷺ ينقلون إلى بيته أموالهم ، ونفائسَ مدّخراتهم ، لتكونَ وديعةً عنده ، فلم يكن أحدٌ بمكةَ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده ﷺ، لما يعلمُ من صدقه وأمانته ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة الأوثان ، لا يختلجهم شك في أمانته ، وهم له معادون.

كما دل على ذلك تركه ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد

---

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (١/ ٢٠٧).
(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (١/ ٢٨).
(٣) أخلاق النبي ﷺ (٢/ ٢٣٩).

هجرته ، ليردَّ ودائعَ الناس التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغَ منها ، لحق برسول الله ﷺ[١].

*** الشهادة لرسول الله ﷺ بالأمانة:**

ولقد شهد لرسول الله ﷺ بالأمانةِ الأعداءُ والأصدقاءُ على حدٍّ سواء ، وذلك دليلٌ على شيوع هذا الخلق فيه ، وتسليمُ الكلِّ له به.

فأبو سفيان زعيمُ مكة لمّا كان قبلَ إسلامه أمامَ هرقل ملك الروم ، لم يستطعْ أن يخفي هذا الخلقَ العظيمَ ، وهو الحريصُ على أن يغمطه حقه ، أو يطعنَ فيه بدافع العداء له حينذاك ، ولكن لما سأله عمّ ماذا يأمرُ النبي ﷺ أجابه أبو سفيان: بأنه يأمرُ بالصلاة ، والصدقِ ، والعفافِ ، والوفاءِ بالعهد ، وأداءِ الأمانة[٢].

وأما **الأصدقاء** ، فمنه ما قالته خديجةُ رضي الله عنها له ﷺ عند ابتداء تنزُّل الوحي: . . . فوالله إنكَ **لتؤدّي الأمانةَ** ، وتصلُ الرّحمَ ، وتَصْدُقُ الحديثَ[٣].

وما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في قصته مع النجاشيِّ ملك الحبشة وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه ، فكان من إجابته له قوله: «حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبَه وصِدْقَه **وأمانتَه** وعفافَه . . »[٤].

ولا غَرْوَ في أن يكونَ النبيُّ ﷺ بتلك المكانة من الأمانة ، لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكونَ خاتمَ أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة ، ولا يقومُ بذلك إلا أمينٌ كاملُ الأمانةِ ، ينالُ ثقةَ الناس ، فيستجيبون له ، ويؤمنون به ، ولقد تمثّل خلقُ الأمانة فيه ﷺ بكل معانيه بعد بعثته ، كتمثله فيه قبل ذلك ، بل بأوضح من ذلك وأجلّ ، فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه ، وسياسة خلقه ، فقام بذلك حقَّ قيام ، حتى رضي الله عنه وعن بلاغه المبين ، وشهد له بأنّه أدى الأمانة ، وبلَّغَ

---

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٢/ ٢٣٧).

(٢) البخاري (٣/ ٢٣٦).

(٣) متفق عليه ، الروض الأنف (١/ ٢٧٤).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة د. أكرم العمري (١/ ١٧٤) ، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٢/ ٨٧).

الرسالة كما وصلت إليه حتى تمَّ الدِّين ، وذلك حين **قال سبحانه** : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣][(١)] .

٨ ـ السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم :

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء والرسل الكرام ، فإنه لما كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام تستدعي مخالطةَ الناس ، والاجتماعَ بهم لدعوتهم وإرشادهم وقيادتهم وسياستهم ، فلا يمكنُ أن تكونَ فيهم عيوب خَلْقية أو خُلقية ، تنفّرُ الناسَ من الاجتماع بهم ، أو اتباعهم ، والسماع لدعوتهم ، كما أنّ الأمراضَ المنفِّرة كالبرص والجُذام والتشويه الجسدي لا يكونُ في أحدِ الأنبياء ، فهم وإن كانوا من البشر ، تصيبُهم العوارضُ التي تصيبُ البشر ، إلاّ أنّ الله عزّ وجلّ قد صانهم من العيوب المنفّرة ، وسلّمهم من الأمراض الشائنة ، التي تجعل النفوسَ تنفر منهم .

وما يحكى عن أيوب عليه السلام من أنّه مرضَ ، واشتدّ به المرض ، حتى تعفّنَ جسدُه ، وأصبح الدودُ يخرج من بدنه ، حتى كرهته زوجتُه ، فإنَّ هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نُقلت عن الإسرائيليات ، ولا يجوزُ تصديقها أو الاعتقاد بها ، لأنها تتنافى مع صفاتِ الأنبياء ، ولم يذكر لنا القرآنُ الكريمُ شيئاً من هذا ، وإنّما الذي ذكره أنه قد أصابه الضرُّ في بدنه ، فدعا ربَّه فكشف عنه ما أصابه من كرب وبلاء ، **قال تعالى** : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وظاهر من الآية الكريمة أنّ الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله ، وهذا النوع من الضرّ يلحَقُ البشر ، ويلحق الأنبياء ، فإنَّ المرض يعتري الأنبياء ، كما يعتريهم الموت ، وليس في ذلك شيءٌ ينقص من قدرهم ، أو يزري بمقامهم ، وكما يستحيل على الأنبياء الإصابة بالأمراض المنفّرة ، كما يستحيل عليهم الجنون والإغماء الطويل ، لأنّ ذلك يخلّ بقيامهم بأعمال الرسالة[(٢)] .

---

(١) أخلاق النبي ﷺ (٢/ ٥٤١) .

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٤٢) .

٩ ـ العصمة :

*** العصمة من الخطأ في التبليغ والتنفيذ :**

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله ، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله ، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم ، عصمهم الله من الخطأ في هذه وتلك ، وذلك من خصوصياتهم :

أ ـ لأنّ الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله ، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن التصور ـ :

* إما أن يسكتَ الوحيُ عن تصحيح الخطأ ، ومعنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ، ثم رضي جل جلاله أن يبلّغَ عنه غير ذلك الأمرَ ، وهذا لا يجوز في حق الله تبارك وتعالى .

* وإمّا أن يتنزلَ الوحي بالتصحيح ، فيعودُ الرسولُ فيقول للناس : إنّ الله أمرني أن أبلّغكم كذا وكذا ، ولكني أخطأتُ في التبليغ ، وإليكم الآن تصحيح البلاغ ، وينتجُ عن ذلك لا محالة أن يفقدَ الناسُ الثقةَ فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه ، لأنّ احتمالَ الخطأ في التبليغ قائمٌ في أذهانهم .

وكلا هذين الأمرين خارجٌ عن التصور ، لأنّه يتنافى مع الحق الذي يتنزل به الوحي مع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى ، مع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

ب ـ ولا يستقيمُ الأمرُ كذلك إذا أخطأ الرسولُ في تنفيذ ما أوحى الله به إليه ، لأنّ القدوةَ تنتفي يومئذٍ ، ويضطرِبُ الأمرُ في نفوس الأتباع ، الذين اتبعوا الرسلَ ، فلا يعرفون أيَّ طريق يسلكون ، وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم ، فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ، ليكون أقرب إلى الصواب ، فإذا كان القدوة أمامه ـ وهو الرسول ـ يخطئ في التنفيذ ، فسوف يحسُّ هو أنه في حِلّ من أن يخطئ ، وليس عليه أن يتحرّى الصوابَ ، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحي ، وعندئذٍ ينفرط عقد

الأمر ، ولا يعود للدين ما أراده الله من تعظيم في نفوس المؤمنين[(١)] .

إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد اصطفاهم الله واختارهم ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] .

❊ العصمة من المعاصي :

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ [آل عمران: ١٦١] .

وحلاّهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والتفاني في الحق ، فاجتباهم ، وعلمهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف: ٦] .

فالأنبياء يتّسمون بالطهر والنزاهة والقداسة ، وهم النموذج الحي ، والصورة المثلى للكمال الإنساني ، ومن ثَمّ فهم معصومون عن الآثام ، ومنزّهون عن الوقوع في المعاصي ، فلا يرتكبون محرّماً ، ولا يقصّرون في أداء واجب ، ولا يتّصفون إلاّ بالأخلاق العظيمة ، التي يكونون بموجبها القدوةَ الحسنةَ والمثلَ الأعلى ، وقد زكّاهم الله سبحانه وتعالى ، وأدبهم وهذّبهم وعلّمهم ، **قال تعالى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] . **وقال تعالى** : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

فيتَّضحُ من هذه الآيات مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله ، ولو لم يكونوا كذلك ، لسقطت هيبتُهم في القلوب ، ولصغرَ شأنُهم في أعين الناس ، وبذلك تضيعُ الثقة فيهم ، فلا ينقادُ لهم أحدٌ ، ولذهبت الحكمةُ من إرسالهم ليكونوا قادةَ الخلقِ إلى الحقِّ[(٢)] .

❊ حقيقــة العصمــة :

العصمة في **اللغة**: المنعُ ، وورد في (لسان العرب): العصمةُ المنعُ ، وقال

---

(١) ركائز الإيمان ص (٢٧٩).
(٢) العقيدة الإسلامية ، ص (٢٣٣).

الزجّاج في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣]. أي يمنعني من الماء، والمعنى: من تغريق الماء. واعتصم فلانٌ بالله إذا امتنع به، واعتصمتُ بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [يوسف: ٣٢].

أمّا في الاصطلاح: فهي لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النبيَّ على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاءِ الاختيار، تحقيقاً للابتلاء.

وقيل: هي حفظُ اللهِ أنبياءَه ورسلَه من النقائص، وتحقيقهم بالكمالات النفسية، والنصرة والثبات في الأمور، وإنزال السكينة.

وقيل: هي ملكةٌ إلهية تمنعُ الإنسانَ من فعل المعصيةِ والميلِ إليها مع القدرةِ عليها.

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنها خاصيةٌ في نفس الشخص أو في بدنه، يمتنعُ بسببها صدورُ الذنب عنه، وممّا يضعّف هذا الرأي ويَدْحَضُه، كما يقول الإيجي: إنه لو كان ذلك كذلك، لما استحقَّ المدحَ بذلك، وأيضاً فالإجماعُ على أنّهم مكلفون بترك الذنوب، مثابون به، ولو كان الذنبُ ممتنعاً عنهم، لما كان كذلك، وأيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: ٦]. يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجعُ إلى البشريةِ والامتيازِ بالوحي لا غير(١).

*** العصمة ثابتة قبل البعثة وبعدها:**

وقد اختلف العلماءُ في عصمة الأنبياء، هل هي قبل البعثة أم بعدها؟ وهل تكونُ العصمةُ عن الكبائر فقط، أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟.

فذهب بعضُهم إلى أنّ العصمة ثابتةٌ لهم قبل النبوة وبعدها من الصغائر والكبائر، وذلك لأنّ السلوك الشخصيَّ ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثّر على مستقبل الدعوة للنبي، فلابدَّ إذاً أن يكونَ من ذوي السيرة العطرة، والصفاء النفسي، حتى لا يكونَ ثمة مطعنٌ في رسالته ودعوته، واستدلّوا على ذلك بأنّ الله تبارك

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص (٢٣٤) المواقف، للإيجي ص (٣٦٦).

وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر ، ورعاهم منذ الصغر كما **قال تعالى** لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. وجعلهم من المصطفين ، كما **قال سبحانه:** ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]. فلابدّ إذاً أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها ، لكن وقع الخلاف في وجوب العصمة لهم من الصغائر(١).

والبحث في هذه المسألة داخلٌ في الأمور الاجتهادية التي لم تنهضْ لها أدلةٌ قاطعة تقطعُ دابرَ الخلاف فيها ، وإن كان جمهورُ أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حقّ الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

وأما الفريق الآخر فقد ذهب إلى أنَّ عصمة الأنبياء والرسل إنما تكون بعد النبوة ، وتكون في الصغائر والكبائر معاً ، لأنَّ المعاصي تكونُ بعد ورود الشرع والتكليف به ، ولأنَّ البشرَ ليسوا مأمورين باتباعهم قبل البعثة ، فالاتباع والاقتداء إنّما يكون بعد نزول الوحي عليهم ، وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة ، وأمّا قبلها فإنّما هم كسائر البشر ، ومع ذلك فإنَّ سيرتهم تأبى عليهم الوقوعَ في المعاصي والآثام ، أو الانحراف في طريق الفاحشة والرذيلة ، فإنّهم ولو كانوا قبل البعثة غيرَ معصومين ، لكنّهم محفوظون بالعناية والفطرة.

والصحيحُ الذي عليه المعوَّلُ من أقوال العلماء: هو أنّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق ، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعضُ المخالفات اليسيرة التي لا تخلُّ بالمروءة ، ولا تقدحُ بالكرامة والشرف(٢).

استعظام بعض الباحثين نسبة صغائر الذنوب إلى الأنبياء: مدّعين بأنّ وقوع مثل هذه الذنوب فيه طعنٌ بالرسل والرسالات ، واحتجّوا لذلك بأمرين:

الأمر الأول: أنّ الله أمرَ باتباع الرسل ، والتأسي بهم ، **قال تعالى:** ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وهذا يستلزِمُ أنّ اعتقادات الرسول وأفعاله وأقواله جميعاً طاعاتٌ لا محالة ،

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٤٤).

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٤٤).

لأنّه لو جاز أن يقعَ من الرسول معصيةٌ لحصل تناقض ، ولاجتمعَ في هذه المعصية التي وقعت منه الأمر باتباعها وفعلها من حيثُ الأمر بالتأسي به ، والنهي عن اقترافها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمرَ الله عبداً بشيءٍ في حالٍ ينهاه عنه .

وقد تصدقُ هذه الدعوى لو بقيت معصيةُ الرسول خافيةً غير ظاهرةٍ ، بحيث تختلط علينا الطاعةُ بالمعصيةِ ، ولكن ممّا يقرره أهل السنة القائلون بوقوع الصغائر منهم: أنّ الرسل لا يُقَرُّوْنَ على معصيةٍ أيّاً كانت ، ومن ثَمَّ فإنَّ الوحي ينبّههم إلى ما وقعَ منهم من صغائر الذنوب ، ويدفعهم إلى التوبة منها .

الأمر الثاني: من قال بعصمة الأنبياء من مثل هذه الذنوب ، توهم أنَّ الذنوبَ تنافي الكمال ، وأنَّها تكون نقصاً ، وإن تاب المذنبُ منها ، وهو غير صحيح ، فإنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها ، والتائِبُ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ له ، ومِنْ ثَمَّ فإن صغائر الذنوب لا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم ، بل إنّ العبد في كثيرٍ من الأحيان يكون بعد توبته من معصيةٍ خيراً منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يشعرُ به من الندم والخوف والخشية ، ولما يقبل عليه من الاستغفار والدعاء ، والعمل الصالح رجاء أن تمحو الحسناتُ السيئاتِ ، **قال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. **وقال تعالى**: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وأخيراً: فإنّ مثل هذه الصغائر لا تَنْتَقِصُ من مكانة الرسل ، ولا تَقْدَحُ في عصمة الأنبياء ، بل هي أقربُ لتوكيد بشريتهم ، فهم بشرٌ عرضةٌ للخطأ في التصرّفات ، والاجتهاداتِ الشخصية ، ولكنّهم معصومون فيما يتعلّق بالوحي تلقيناً وتبليغاً ، وهذا يجعلهم أهلاً للقدوة والأسوة ، فلو أصبحوا نوعاً آخر من البشر لا تجري عليهم الهنات والهفوات البشرية ، لصعبتِ القدوةُ بهم ، وقال الناس: هؤلاءِ الرسلُ ليسوا مثلنا في أي شيءٍ فكيف نقتدي بهم[(١)]؟ .

ومعلوم أنّه لم يقعْ ذنبٌ من نبي ، إلا وسارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلُّنا

---

(١) العقيدة الإسلامية ص (٢٣٨).

على هذا أنّ القرآن لم يذكر ذنوبَ الأنبياء إلا مقرونةً بالتوبة والاستغفار.

فآدمُ وزوجُه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وما كادت **ضربةُ موسى** عليه السلام تُسْقِطُ القبطيَّ قتيلاً حتى سارع طالباً الغفران والرحمة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

وداود ما كاد يشعرُ بخطيئته حتى خرَّ راكعاً وأناب: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤][1]، وذلك حين حكمَ لأحدِ الخصمين قبل أن يستمعَ لقول الخصم الآخر، **قال تعالى**: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤][2].

تاسعاً ـ شبهات حول عصمة الأنبياء:

ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تثبتُ لبعضهم بعضَ المخالفات، وتنسبُ إلى بعضهم الآخر الذنب والمعصية، كآدم، ونوح، وموسى عليهم السلام، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى في **حق آدم عليه السلام**: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وقوله سبحانه في **حق نوح عليه السلام**: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وقوله جل وعلا في **حق سيد المرسلين** ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. فالجواب على ذلك أنّ هذه النصوص محمولةٌ على بعض الوجوه الآتية:

* أنها ليست معصية، وإنما فِعْلُ خلاف الأولى.

* أنّها ليست معصية، وإنّما هي خطأٌ في الاجتهاد، والخطأُ في الاجتهادِ

---

(١) الرسل والرسالات ص (١١١).

(٢) ركائز الإيمان ص (٢٧٩).

لا يتنافى مع العصمة ، لأنَّ المعصية هي ارتكابُ المحرَّمِ عمداً ، والخطأ هو إبداءُ الرأي في أمر يخالِفُ الحقيقة الموجودة في علم الله تعالى ، أو هو تصرّفٌ على وجهٍ يكونُ له وجهٌ آخرُ أصحّ.

وعلى فرض أنّها مخالفة ومعصية فإنّها قد وقعت قبل النبوة[1] ، وإليك شيء من الإيضاح:

أ ـ آدم عليه السلام:

معصية **آدم عليه السلام** التي صرّح القرآن بها في **قوله تعالى**: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢] إنّما كانت هذه المخالفةُ والمعصيةُ قبل النبوة ، بدليل **قوله تعالى**: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والاجتباءُ هو اصطفاءُ الله بالرسالة ، فتكونُ المعصيةُ قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أنّ آدم عليه السلام ، إنّما أكلَ من الشجرة ناسياً ، بدليل **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. وقيل: إنَّ آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة **بقوله تعالى**: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. ظنَّ أنَّ المرادَ عينُ هذه الشجرة لا جِنسُها ، فأكل من شجرةٍ أخرى من جنسها فخالَفَ الأمر ، وكلُّ ذلك باجتهادٍ منه ، لا عن سابق تعمّدٍ وإصرارٍ على المخالفة.

وأقربُ الأقوال في هذا أن نقول: إنَّ آدمَ أكل من الشجرة ناسياً ، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل ، كما قال ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأُ والنسيان وما استُكْرِهوا عليه**»[2] ، كما **قال تعالى**: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولم يكن من آدم تعمّدٌ أو عزمٌ منه على المعصية ، بدليل الآية التي ذكرناها ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وذلك ما اختاره بعضُ المفسرين كالقرطبي وابن العربي.

أو نقول: إنّ المعصيةَ وقعتْ منه قبلَ النبوة ، وذلك ما اختاره صاحبُ تفسير المنار حيث قال: . . . ولنا أن نقول: إنّ تلك مخالفة صدرت منه قبلَ أن يدرِكَهُ

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٤٤ ـ ٢٤٥).

(٢) النبوة والأنبياء ص (٧١).

عزمُ النبوة ، كما قال جل شأنه ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ .

والاتفاق إنّما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة ، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً ، فسُمِّي تفخيماً لأمره عصياناً . . والنسيانُ والسهو ممّا لا ينافي العصمة[١] .

وأبو بكر ابن العربي المالكي قد رجّح الأول ، وذهبَ إلى أنَّ المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان ، فقد جاء في كتاب (أحكام القرآن) ما نصّه : كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما يَنْسِبُ الجهلةُ إليهم ـ من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاشا لله ـ فإنّ الأوساط من المسلمين يتورّعون عن ذلك ، فكيف بالنبيين ، ولكنّ الباري سبحانه بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم آدم إلى المخالفة ، فوقع فيها متعمداً ناسياً فقيل في تعمده : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وقيل في بيانِ عذره ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. ونظيرُها : أن يحلفَ الرجلُ لا يدخل داراً أبداً ، فيدخلها متعمّداً ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامدٌ ناسٍ ، ومتعلَّق العمدِ غير متعلَّقِ النسيان . . وجاز للمولى أن يقول في عبده (عصى) تعذيباً ، ويعود عليه بفضله فيقول : (نسَي) تنزيهاً .

ثم قال: ولا يجوز لأحدٍ منا اليوم أن يخبرَ بذلك (أي بعصيان آدم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ﷺ ، فأمّا أن يبتدئ ذلك من قبل نفسه ، فليس بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنَيْنَ المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم ، النبي المقدم ، الذي عذره الله ، وتاب عليه وغفر له[٢] .

ومن خلال أقوال العلماء والمفسّرين أنّ آدم عليه السلام لم يتعمّد مخالفة أمر الله عز وجل ، وإنّما أكل من الشجرة متأوّلاً ، بطريق الاجتهاد ، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى ، فعاتبه ربُّه بإخراجه من الجنة ، وإنزاله إلى الأرض ، وذلك لحكمةٍ إلهيةٍ سابقةٍ ، فلا يجوزُ لنا أن نرميَه بالعصيان ، مع أنَّ ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان ، ولا أن نسيءَ الأدبَ ، ولا سيّما بعد أن نزل القرآن **بقوله**

(١) تفسير المنار (١/ ٣٨٠).

(٢) النبوة والأنبياء ص (٧٢) أحكام القرآن ، لابن العربي (٣/ ١٢٤٩).

تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢][(١)].

إنّ آدم عليه السلام أكلَ من الشجرةِ ناسياً، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً، فمعنى ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ لم نجدْ له قصداً ولا تعمُّداً للأكل من الشجرة، ولم يعزم على الأكل، ولم يتعمّد المخالفة، ولم يصرّ على ارتكاب المحظور، لم نجد له عزماً على المخالفة، لأنّه أكل من الشجرة ناسياً، والنسيانُ ينفي عنه القصدَ والتعمّد، وفي الآية ـ على هذا الفهم والتفسير ـ توجيهٌ لمعصية آدم في أكله من الشجرة، بأنّه كان في حالةِ نسيانٍ منه تعهده لله، وعدم تذكره، ولو كان ذاكراً لعهد الله لما أكل من الشجرة، وهذا النسيان نفيٌ للعزم والتعمد والتصميم والإصرار، وكأن جملة ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ توجيهٌ لأكل آدم من الشجرة، وتحليلٌ لذلك الفعل، سيق ليكونَ مثل اعتذارٍ له، وشهادة له، بأنّه لم يتعمّد ولم يقصد ولم يعزمْ على المخالفة.

ولمّا تذكّرَ آدمُ عهدَ الله بعدَ الأكل ـ كان ذلك بعد بُدُو السوءات ـ عرف أنه خالفَ عهد الله، وارتكب المحظور، وأنّه بذلك عصى، فسارعَ بالتوبة والإنابة والاستغفار، وطلبَ من الله أن يغفرَ له، فتاب الله عليه، وغفر له، وقد انطبق على أبي البشر عليه السلام **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فمجرّد أنْ تذكّرَ آدم تاب إلى الله، فتاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧][(٢)].

ب ـ نوح عليه السلام:

وأمّا نوحٌ عليه السلام، فما وقع منه فهو أنّه سأل الله عن هلاك ابنه مع مَنْ هلكوا في الطوفان، مَعْ وعدِ الله بنجاته ونجاةِ أهله، فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الله تعالى أوصاه أن يحمِلَ أهله والمؤمنين في السفينة. **قال تعالى**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾

---

(١) النبوة والأنبياء ص (٧٣).

(٢) مواقف الأنبياء في القرآن، تحليل وتوجيه، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص (٥٤٩).

[هود: ٤٠] ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

فلم يكن لنوحٍ عليه السلام علمٌ بأنّ نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره، وإعراضه عن دعوة الله، فأعلمه الله تعالى أنّ الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم، فإذا انقطعت هذه الصلةُ ذهبت بصلةِ النسب والدمِ، فقال له معلماً إياه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ معلّلاً ذلك بأنّ عمله عملٌ غيرُ صالحٍ، وبذلك ينتفي نسبُه من أبيه، فلا يكونُ من أهله الذين وُعِدُوا بالنجاة[1]. وعلّلَ نفيَ كونه من أهله الحقيقيين لكفره بقوله بعد ذلك ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ والعجيبُ في الجملة ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ أنّه حوّل الشخص نفسه إلى رُكامٍ من العمل غير الصالح، لم يقل إنه عملَ عملاً غير صالح، ولكنّه قال: إنه عمل غير صالح، وفرقٌ بعيدٌ بين الجملتين، وما أثبته نوح عليه السلام عن ابنه أنه من أهله، أراد به الصلة النسلية النسبية بينهما، وما نفاه الله عن ابنه، أراد به الصلة الإيمانية الاعتقادية فيما أنه ليس من دينه، فقد انقطعت الصلةُ بينهما، رغم أنّه ابنه من صلبه ونسبه، وقد مات كافراً، وعرف نوحٌ حقيقةَ نهاية ابنه، وقد عاتب الله نوحاً عليه السلام عتاباً شديداً على سؤاله ولذلك **قال تعالى له**: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وسارع نوح عليه السلام إلى الاعتذار والاستغفار واللجوء إلى الله، **قال تعالى**: ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ولم يكن نوحٌ عليه السلام معترضاً على حكم الله في ابنه، ولمّا عرف الحقيقة التزم بها، واستغفر ربه، وأناب، وعاتبه الله، لأنه فعل خلافَ الأَوْلى، فرغم أنّه لم يخطىءْ في سؤاله، إلا أنه كان الأَوْلى والأجدرُ به أنْ لا يسأل، وأنْ يعرفَ الأمر بدون سؤال، والله يريدُ من رسوله عليه السلام أن يكون فعلُه دائماً وفقَ

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٤٥).

الأولى والأفضل والأكمل والأحسن ، والله بعتابه له يرشده إلى ما هو أولى وأفضل رغم أن فعله صواب[١] .

ج ـ إبراهيم عليه السلام :

وأمّا ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام ، من أنّه كان شاكّاً في الله أوّل أمره ، متأثراً ببيئة قومه في عبادة الكواكب ، **فليسَ بصحيحٍ** ، بل إنّه نشأ مؤمناً بالله منذُ صغره ، وما كان منه من قوله للكوكب وللقمر وللشّمس (هذا ربي) ، فإنّما هو من قبيل التسليم الجدلي في مقام الاستدلال على وجود الله لإقامة الحجّة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم حسب اعتقادهم ، ليبطِلَ عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجة والبرهان ، ولهذا امتدحَ الله عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلام على الأسلوبِ الذي اتبعه في الاستدلال ، وإليك هذه الآيات :

● **قال تعالى :** ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٧٦ ـ ٧٩] .

فهذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكّاً في الله ، ولم تكن جهلاً بالخالق جلّ وعلا . . وإنّما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه ، عن طريق البرهان والاستدلال ، وإفحامهم بأعظم الحُجج الدامغة[٢] .

فمن ظنَّ بإبراهيمَ الشك ، أو اعتقد أنّه عبدَ الشمس أو الكوكب ، فقد جانب الحق ، وأخطأ الفهم ، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين ، وكيف يكون والله جلّ جلاله قد أعطاه العقلَ وكمالَ الرُّشد قبل ذلك ، **قال تعالى :** ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

وقد أطلعَ اللهُ عزّ وجل إبراهيمَ عليه السلام على ملكوت السماوات والأرض ، وأخبرنا بأنّه كان من المؤمنين الموحّدين الكاملين في الإيمان

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن ، ص (٧٦).
(٢) النبوة والأنبياء ص (٧٧).

واليقين ، وأنّ الله تعالى قد وهبه وأعطاه الحجة الدامغة ، التي تقصِمُ ظهر كلّ معاندٍ ومكابرٍ ، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد ما كان يغلبه أحد ، استمع إلى الآيات الكريمة ، كيف أنّ الله عزّ وجلّ يسوقُ البراهين على كمالِ يقينه ، **قال جل ثناؤه**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٥].

فالله عزّ وجل أعطى إبراهيم الحُججَ المقنعةَ ، والبراهينَ الساطعةَ ، التي بها قام الدليلُ على وجودِ الصانع الحكيم ، فهو يجادِلُ أباه بقوله ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ ثم يصفُ قومَه بالضلالة في عبادة مَنْ لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عن الحقِّ شيئاً ، **فيقول**: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ثم يأتي البرهانُ على كمالِ يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

والآياتُ التي جاءت بعدها إنّما هي في مقام الاستدلال على وجود الله ، وفي تقرير الحجة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم على حسب اعتقادهم ، فيقول عن النجم (هذا ربي) ثم عن القمر ثم الشمس ، ليبطلَ عقيدتهم في عبادةِ هذه الآلهةِ المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجّة والبرهان ، ولهذا ختم الله عزّ وجلّ هذه القصة **بقوله جل وعلا**: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣][(١)].

● وأمّا النص الثاني فهو **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٦٠].

فإبراهيمُ الخليل عليه السلام لم يكن شاكّاً في ربه ، أو في قدرته تعالى ،

---

(١) النبوة والأنبياء ص (٧٤ ـ ٧٥).

(٢) فصرهن إليك: ضمهن إليك.

وإنّما سأل عن الكيفية ، ولم يسأل عن الماهية ، فلم يقل: هل تقدِرُ يا ربِّ أن تحيي الموتى والسؤال عن الكيفية إنما هو بدافع الشوقِ والتطلّع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية(١).

إنّه التشوّق إلى ملابسة سرِّ الصنعة الإلهية ، وحين يجيءُ هذا التشوّق من إبراهيم الأوّاه ، الحليم ، المؤمن ، الراضي ، الخاشع ، العابد ، القريب ، الخليل ، حين يجيءُ هذا التشوّقُ من إبرهيم ، فإنّه يكشِفُ عمّا يختلجُ أحياناً من الشوقِ والتطلّع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوبِ أقربِ المقربين.

إنّه تشوّقٌ لا يتعلّقُ بوجودِ الإيمانِ وثباتِهِ وكمالِهِ واستقراره ، وليس طلباً للبرهانِ أو تقويةٍ للإيمان ، إنّما هو أمرٌ آخر له مذاقٌ آخر ، إنّه أمرُ الشوق الروحي إلى ملابسةِ السرِّ الإلهي ، في أثناء وقوعه العملي ، ومذاقُ هذه التجربة في الكيان البشري مذاقٌ آخر غيرُ مذاق الإيمان بالغيب ، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه ، وليس وراءَ هذا إيمانٌ ولا برهانٌ للإيمان ، ولكنّه أراد أن يرى يدَ القدرةِ وهي تعملُ ، ليحصلَ على مذاق هذه الملابسةِ فيستَرْوِحَ بها ، ويتنفّس في جوّها ، ويعيش معها ، وهي أمرٌ آخرٌ غير الإيمان الذي ليس بعده إيمانٌ(٢).

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرِفُ حدّاً للشبع من المعرفة الإلهية ، كان دائمَ الطلب: هل من مزيد؟ أعطني يا ربِّ من معرفتك المزيد ، لذا ففي حديثٍ يرويه البخاريُّ ومسلم يقول: يقول الرسول ﷺ: «**نحن أحقُّ بالشكّ من إبراهيم**»(٣) ، أي بما أننا لا نشكُّ في إحياء الموتى ، فمِنَ الأَوْلى عدمُ وجودِ الشكِّ عندَ إبراهيم(٤).

التعريضات الثلاثةُ لإبراهيم عليه السلام:

ورد في السنة النبوية ما يشيرُ ظاهرُه إلى عدم (العصمة) بحقِّ إبراهيم عليه

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٤٦).
(٢) في ظلال القرآن سيد قطب (١/٣٠١ ـ ٣٠٢).
(٣) البخاري (٣٣٧٢).
(٤) العصمة النبوية ، محمد فتح الله كولن ص (٤٩).

السلام ، وذلك في قوله ﷺ: «**لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلاّ ثلاثَ كذباتٍ: اثنتين منهنَّ في ذاتِ اللهِ ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال: بينما هو ذاتَ يومٍ وسارةُ ، إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة ، فقيل له: إنّ هاهنا رجلاً معه امرأةٌ منْ أحسن النّاس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها: مَنْ هذهِ؟ قال: هي أختي. فأتى ، فقال لها: إنَّ الجبارَ إنْ يعلمْ أنّكِ امرأتي يَغْلِبْني عليك ، فإنْ سألكِ فأخبريه أنّك أختي ، فإنّكِ أختي في الإسلام ، ليس على وَجْه الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرُك ، فأرسلَ إليها ، فأتى بها ، وقام إبراهيمُ يصلّي ، فلمّا دخلت عليه ذهبَ يتناولها بيده ، فأُخِذَ ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعتَ الله فأُطلقَ ، ثم تناولها الثانية ، فأُخذ مثلها أو أشدّ ، فقال: ادعي الله ولا أضرّك ، فدعت اللهَ ، فدعا بعضَ حجبته فقال: إنّكَ لم تأتني بإنسانٍ ، إنّما أتيتني بشيطانٍ ، فأخدمَها هاجرَ ، فأتته وهو قائمٌ يصلّي ، فأومأ بيده مُهيم؟ قالت: ردّ اللهُ كيدَ الكافرِ في نحرِه ، وأخذَ هاجر**» قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[١].

هذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدلُّ على عدم العصمة ، لأنّ النبي ﷺ لم يقصدْ بهذه الكلماتِ الثلاثة حقيقةً معنى الكذب ، إنّما قصد أنَّ إبراهيم الخليل أخبرَ بإخباراتٍ توهِمُ الكذب في الصورة ، وهي ليست بكذبٍ في الحقيقة والواقع[٢] ، وهذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام ، وسنتناولها جميعاً لنرى الوجْهَ الحقيقيّ لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

● **إني سقيم:**

يبين القرآن الكريم التعريض الأول **فيقول**: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٩٠] كان إبراهيم عليه السلام يقصِدُ من ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الإشارةَ إلى السبب الرئيس لعدم شعوره بالراحة ، كانتِ الأصنامُ مصدرَ حزنه وسقمه ، وشعرَ بأنّه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها ، فلن يجدَ طعماً للراحة ، وعندما قال لمن

---

(١) البخاري (٣٣٥٨).

(٢) النبوة والأنبياء ص (٨٠).

حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية ، فتولّوا عنه ، إذ كانوا يصرّون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني ، وما إن خرجوا من عنده حتى أسرعَ ليحطم الأصنام ، مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه ، غير أنّه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصودِهِ الحقيقي ، ولكنّه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً ، كل ما هناك أَنَّ قومه لم يفهموا قصده الحقيقي ، وليس هذا بغريبٍ عن قومه الذين صمّوا آذانهم عن الاستماع إلى الحق(١).

● **بل فعله:**

والتعويض الثاني هو: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٦٣].

فقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً ، وإنّما هو نوع من الحُجّة الدامغة ، والبرهانِ الساطع أراد أن يقيمَه إبراهيمُ على قومه ، فحين سألوه مَنْ حطّم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنمِ الأكبرِ ، سخريةً وتهكماً بهم وبهذه الأصنام ، ثم لمّا رآهم متعجّبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣](٢).

● **إنك أختي:**

لا توجد في التعريض الثالث ذرّةٌ من الكذب ، بل لا يمكِنُ حتى إطلاق كلمة

---

(١) العصمة النبوية ص (٥٢).

(٢) النبوة والأنبياء ص (٨٠).

(التعريض) على كلامه ، فهو كلامٌ صحيحٌ صادِقٌ تمامَ الصدق ، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمرود ولرجاله إن سألوها (إنني أخته) ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال: إنها أختي ، ذلك لأنَّ إبراهيم عليه السلام لو قال: إنّها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها ، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد ، وربّما اضطر إلى ترك تلك البلاد ، والرحيل عنها ، غير أنّ ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابِقٌ للحقيقة ، ذلك لأنَّ جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

والإيمانُ هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين ، واختلاف الزمان والمكان لا يكونُ حائلاً بين أخوة الإيمان ، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دونَ أيّ تفرقة بين ذكر وأنثى ، أمّا نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمنٌ بتطليق زوجته، انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكنَّ رابطة الإيمان تبقى موجودةً ، فإبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة ، وإلى هذه الرابطة ، وقال عن زوجته: إنّها أخته ، وهذه الكلمة تفيد عينَ الحقيقة[١].

● **استغفاره لأبيه:**

لمّا أصرّ والد إبراهيم عليه السلام على كفره ، وردّ عليه دعوته بغلظةٍ وفظاظةٍ ، ردّ عليه إبراهيم عليه السلام بحلمٍ وهدوءٍ ، ووعده أن يستغفرَ الله له ، **قال تعالى**: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧].

واستغفار إبراهيم لأبيه مبنيٌّ على إيمانه بالله ، أي: إنْ آمنَ أبوه طلبَ من الله أن يغفر له ، أمّا إن لم يؤمن ، وأصرّ على كفره ، فلن يغفِرَ الله له ، لأنَّ إبراهيم عليه السلام يعلمُ أنّ الله لا يغفِرُ لإنسانٍ كافرٍ بالله ، ماتَ على كفره وشركه ، فهذه مسألة اعتقادية جاء بها جميعُ الرسل ، ويعلمُها جميعُ الرسل ، إذن لا يُلامُ إبراهيم على استغفاره لأبيه ، لأنَّ استغفاره له مشروط بالإيمان ، كأنّه باستغفاره يقول: اللهم إنْ آمنَ أبي فاغفر له ، وقد أخبرنا الله عن استغفاره لأبيه في **قوله تعالى**: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

---

(١) العصمة النبوية ص (٥٥).

ولكنّ أباه لم يؤمن ، وأصرّ على كفره ، عند ذلك لم يستمرّ إبراهيم عليه السلام في استغفاره له ، وإنّما تبرأ منه ، وقطع صلته به ، وآيات القرآن في هذه صريحةٌ ، **قال تعالى**: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

وحتى لا يستشهدَ أحدُهم بفعل إبراهيم عليه السلام ، وحتّى لا يستغفرَ لقريبه الكافر مقتدياً بإبراهيم في استغفاره لأبيه ، فقد وضّحت الآيةُ ملابساتِ ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ والمعنى: استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه بسبب الوعد الذي وعد إياه ، حيث وعد أباه أن يستغفرَ له ، وذلك في قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] وعندما تبيّن له حقيقة موقف أبيه تبرّأ منه: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ لقد تبرّأ إبراهيمُ من أبيه في النهاية ، وأظهرَ عداوته له ولقومه(١).

د ـ يوسف عليه السلام:

وفي قصّةِ يوسف الصديق عليه السلام ، التي قصها علينا القرآن الكريم ، صورةٌ مشرقة عن نزاهة هذا النبيّ الكريم ، وبراءته وعصمته ، مع ما أعطاه الله عزّ وجلّ من الجمال ، وما كساه من البهاء والجلال ، حتى افتُتِنَتْ به امرأةُ العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ، ولكنّه عليه السلام كان أصلبَ من الحديدِ ، وأقوى من الجبالِ ، فلم تؤثّر فيه تلك العواصفُ الهوج ، والمكايد التي اصطنعتها النسوةُ مع امرأةُ العزيز ، والتي قصَّ علينا القرآن الكريم طرفاً منها ، كما **قال تعالى**: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣١].

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن ص (١٠٦).

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنّ بعض الناس ممن ليس لهم قدمٌ راسخٌ في العلم ، قد اغترّوا ببعض رواياتٍ إسرائيليةٍ باطلةٍ مكذوبة ، لا يصحُ أن تروى بَلْهَ أن تذكر في كتب التفسير ، وقد نبه عليها العلماء الأثبات ، والحفّاظ الثقات ، لأنها تصادِمُ النصوص القرآنية الكريمة ، وتتنافى مع عصمة الأنبياء الأطهار(١) .

وهذا النصُّ الذي فُسّرَ تفسيراً خاطئاً لا يتفق مع عصمة الأنبياء ، ولا ينسجمُ مع النصوص القرآنية الأخرى هو **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]. لقد فسروا الهمَّ من يوسف على أنّه مطاوعةٌ منه لامرأة العزيز ، وعزمٌ على قربانها ، وفسّروا البرهانَ على أنّه الصورة التي ظهرَ بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعضُّ على أنامله ، حتى تركَ يوسفُ ذلك العمل القبيح ، وهذا التأويلُ باطلٌ ، ولا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ.

وقد نبّه كثيرٌ من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات ، وبيّنوا بطلانها ، لئلا ينخدعَ بعضُ المسلمين بها ، فيظنوا أنّها أخبارٌ حقيقة موثوقة.

إنَّ الآية الكريمة لها مفهومٌ دقيق ، ينبغي ألاّ يغفل عنه واسعُ العلم ، دقيقُ البصر ، ذلك أنَّ الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هَمَّ سوءٍ ، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة ، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها ، بعد أن أحكمت إغلاقَ الأبوابِ ، وحاصرته في الدار ، كما **قال تعالى**: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق عليه السلام فلم يكن هَمّ سوء ، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة ، وما خطر بباله عليه السلام شيءٌ مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادةِ السوء أو عمل الفاحشة ، وإنّما كان همه أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز ولهذا نجد المقاومة في موقفه ، والمقاومة العنيفة في حديثه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ﴾ .

---

(١) النبوة والأنبياء ص (٨١).

فالهم منها غير الهم منه ، **همت به طلباً** ، **وهم بها دفعاً** ، كما يقول بعض المفسرين.

أو كما قال البعض الآخر: إن الهمّ منها وقع فعلاً ، وأما هم يوسف فكان بالطبع ، أي إنه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفةِ السوء ، والإنسانُ غير مواخذٍ بما تشتهيه نفسُه ، أو يميل إليه طبعه ، ما لم يعزم على فعل الشيء ، وهذا ما فسره النسفي حيث قال: ﴿ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ هم عزم ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هم الطباع مع الامتناع.

ويرى بعض المفسرين أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً ، ويصبح المعنى ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤] المعنى لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهم بها ، ولكنّ عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم[١]. وهذا **أرجح الأقوال**.

الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

هناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة ، التي نسبها إليه مَنْ لا يعرفُ قدر النبوة ، ولا عظمة الرسالة ، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعةِ امرأة العزيز ، ووقوفه في وجهها بكلِّ صلابة وعزم ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

الوجه الثاني: فِرَارُه عليه السلام من امرأةِ العزيز بعد أن حاصرته ، وضيّقت عليه الخناق ، وراودته عن نفسه بالغصب والإكراه ، ولو كان يوسف همّ بالفاحشة لما فرّ منها ، لأن الذي يريدُ عمل الفاحشة يُقْدِمُ ولا يفر **قال تعالى**: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥].

الوجه الثالث: شهادةُ بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف ، حيث أشار بفحص ثوبه ، لأنه إذا كان هو الطالِبُ لها وهي الممتنعة ، فإنّ ثوبه سيُشَقُّ من أمام ، وإن كانت هي الطالبةُ ، وهو الممتنعُ الهاربُ منها ، فإنَّ ثوبه سيشقُّ من

---

(١) النبوة والأنبياء ص (٨٤).

خلفٍ ، **قال تعالى**: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨].

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام، إذ كيف يُعْقَلُ أن يفضِّلَ شخصٌ السجنَ على شيء يرغبه ويتمنّاه، ولو أنّه استجاب لدعوتها، وطاوعها على نفسها، لما لبث في السجن بضعَ سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به، فدعوى هَمّ يوسف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهرُ البطلان، يدرك ذلك كلُّ منصفٍ درسَ تاريخ هذا النبيِّ الكريم، وفهم معاني القرآن[١].

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٢ ـ ٢٣].

فقد أخبر الله تعالى بأنّه من المحسنين، وأنّه من عباده المخلصين، الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، ولا يكونُ ثناءُ الله تبارك وتعالى إلاّ على مَنْ صفت نفسُه، وطهرت سريرتُه مِنْ كلِّ نية سيئة، وكل عملٍ قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟.

وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى وبالطهارة والاستقامة، قال ﷺ: «**الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيم**»[٢]، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

الوجه السادس: اعترافُ امرأة العزيز نفسِها بعصمته وعفّته أمام جمع من نسوةِ المدينة، كما **قال تعالى**: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾

---

(١) النبوة والأنبياء ص (٨٥).

(٢) البخاري (٣٣٨٢).

[يوسف: ٣١ ـ ٣٢]. فهذه شهادةٌ صريحةٌ واضحةٌ على عِفّة يوسف وبراءته، صدرت من امرأة العزيز نفسها، التي اتهمته أمام زوجها بإرادة عمل الفاحشة، ولفظ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ يدل على الامتناع البليغ، والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمةٍ من الأمر، وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهذا بيانٌ على أنَّ يوسف عليه السلام بريءٌ ممّا فسر به بعضُ الناس الهمَّ والبرهان.

الوجه السابع: ظهورُ أماراتِ البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة، أمام جميع الشهود، ومع ذلك فقد أقدم عزيزُ مصرَ على سجنه، إيهاماً للناس، وستراً على زوجته، **قال تعالى**: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٥].

الوجه الثامن: استجابةُ الله عزّ وجلّ لدعوة يوسف حين طلب من ربّه أن يصرفَ عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به، ولو كانت له رغبةٌ في مطاوعة زوجة العزيز لما طلبَ من الله أن يصرِفَ عنه كيدهنّ، وفي ذلك **يقول الله تعالى**: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

الوجه التاسع: عدم قبول يوسف الخروجَ من السجن حتى تظهرَ براءته أمامَ الناس جميعاً، وذلك يدلُّ على منتهى شهامته وعفته ونزاهته، ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبعَ أو تسعَ سنوات، ولاقى فيه الشدائدَ، فلم يقبل الخروجَ من السجن حتى يقرَّ الجميعُ ببراءته، وتتنزّه ساحتُه من تلك التهم الشنيعة: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠].

الوجه العاشر: وأخيراً الاعترافُ الواضح الصريحُ من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدعُ ذرةً من شك في براءة يوسف ونزاهته وعصمته ممّا نُسِبَ إليه، وذلك حين جمعَ الملك النسوة، وسألهن عن يوسف الصديق، فأجبنه بجوابٍ صريحٍ قاطع، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

نَفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٢][1].

هـ ـ يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨] وقد سُمّيَ يونُسُ (ذا النون) كما سُمّي (صاحبَ الحوت) في **قوله تعالى:** ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، لأنه عاش في بطن الحوت فترةً، وبقى فيها حياً بإذن الله.

واللطيفُ أنَّ القرآن اعتبرها صحبةً بين يونسَ والحوت! وكأنَّ الحوتَ عندما ابتلعَ يونس عليه السلام كان صاحِباً مساعِداً له، ابتلعه لِحِرْصِهِ وإشفاقه عليه، لأنّه خافَ أن تأكله باقي الحيتان والأسماك، فأنقذه منهم بابتلاعه، بهدف حمايته، لا بهدفِ أكله، ولهذا صارت بينهما صحبة[2].

وقد أخبرنا الله أنّ ذا النون عليه السلام ذهبَ مغاضباً ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾، و﴿مُغَـٰضِبًا﴾: اسمُ فاعل، فعله الماضي رُباعي (غاضَبَ) والألف في الفعل ألفُ مفاعلة، تدل على المشاركة.

والمشاركة تدل على أنّ الغضبَ كان بين الطرفين: الطرف الأول هو يونس عليه السلام، لكنْ مَنْ هو الطرفُ الثاني؟ ذهب ناقلو الإسرائيليات إلى أنَّ الطرف الثاني هو الله سبحانه، أي يونس عليه السلام غادرَ قومه، وذهبَ عنهم مغاضباً لربّه، قالت الإسرائيليات: غضب يونس من ربه، لأنه لم يوقع العذابَ على قومه خلال ثلاثة أيام، ممّا جعله يبدو أمامهم كاذباً، وغضبَ الله منه، لأنّه غادرهم بدون إذن منه، وهذا فعلٌ لا يجوز أن يصدرَ عن مسلمٍ صالح، فكيف يصدرُ عن نبي كريم؟

لقد كانت المغاضبةُ بين يونس عليه السلام وبين قومه الكافرين: غضب هو منهم، لأنّهم رفضوا دعوته، وأصرّوا على الكفر، وغضبوا هم منه، لأنه

(١) النبوة والأنبياء ص (٨٨).
(٢) مواقف الأنبياء في القرآن ص (٣٤٩).

أنذرهم العذاب ، وأخبرهم أنّه سيقع بهم بعد ثلاثة أيام[١] .

فالمغاضبةُ كانت لقومه ، والمعاتبة كانت لعدم الصبر ، ولخروجه من بين قومه بغير إذنٍ من الله ، ولهذا أمرَ اللهُ رسولَه الكريم ﷺ أن يصبرَ على تكذيبِ المشركين ، وألا يكونَ ضيّقَ الصدر ، قليلَ الصبرِ ، كما كان شأنُ يونس عليه السلام مع قومه ، حيث ضربه الله تعالى مثلاً **فقال عز ومن قائل** : ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم : ٤٨ ـ ٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب ﴿لَّوْلَآ﴾ ومعلوم أن ﴿لَّوْلَآ﴾ في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود ، أي إنّها تفيدُ امتناعَ الجوابِ لوجود الشرط .

ومعنى الآية الكريمة : لولا أنّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه ، وقبول عذره ، لنبذ من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي : الفضاء وهو ﴿مَذْمُومٌ﴾ أي : معاتَبٌ بزلّته ، لكنّه رُحِمَ فنبذَ غيرَ مذموم[٢] .

وأما معنى قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ظنّ يونس أن الله لن يضيّق عليه بإبقائه عند هؤلاء الكفار ، المنتظرين للعذاب ، وسيوجّهه إلى قوم آخرين يدعوهم إلى الله .

فالتقدير هنا : التضييقُ ، ومنه **قوله تعالى** : ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ : ١١] أي : ضيق في الدرع لتكونَ الفتحةُ على قدر المسمار .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أرسل لي معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه ، فقال لي : لقد ضربتني أمواجُ القرآن . قلت : بماذا؟ قال : في **قوله تعالى** : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ ، أيظنُّ عبدٌ من عبيدِ الله أنَّ اللهَ لا يقدِرُ عليه ، فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟ قلت له : ليس ذلك من القُدْرَةِ ، إنّما ذلك من التقدير بمعنى التضييق ، **قال تعالى** : ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي ضيق عليه رزقه[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٥٠).
(٢) النبوة والأنبياء ص (٩١).
(٣) مواقف الأنبياء في القرآن ص (٣٥١ ، ٣٥٢).

والذي فعله يونس عليه السلام خلافُ الأولى ، وعَمِلَ ما يستحق عليه اللوم من الله ، ولذلك **قال تعالى**: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وفرقٌ بين اللوم والعقاب: العقاب يكونُ عن وقوع في ذنب ، بترك واجب ، أو فعل حرام ، أمّا اللومُ فإنه يكون عن فعل خلافِ الأولى ، مع جواز ذلك الفعل ، لامَ الله يونُسَ ، لأنه فعل خلافَ الأولى ، وقدّر له أن يَمُرَّ بتلك المحنة الشديدة.

وكانت المحنةُ الأولى ابتلاءً من الله له ، والابتلاءُ لا يكونُ بسبب الذنوب دائماً ، فقد يكونُ بهدف رفع درجات المبتلى عند الله ، ومن هذا الباب ابتلاءُ الأنبياء ، كما كانت محنةُ يونس عليه السلام درساً وعبرةً للمؤمنين من بعده ، وأخبرنا الله عنها في القرآن ، لنقف عندها متدبّرين ، ونأخذَ منها العبرة والعظة ، ونأخذ منها دروساً في العقيدة والإيمان والإقبال على الله ، واللجوء إليه ، والاعتماد عليه عند المحن والمصائب والابتلاءات[١].

وصف يونس عليه السلام نفسه بالظلم:

عندما وجد يونُسُ نفسَه في الظلمات ، أقبل على الله ، ذاكراً مسبّحاً ، داعياً متضرّعاً ، وكان تسبيحُه ودعاؤه سبباً لنجاته ، **قال تعالى**: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

أي: سبب نجاته أن سبّح الله في بطن الحوت ، ولو لم يسبّح اللهَ لهضمه الحوتُ ، وحوله إلى غذاءٍ له ، **قال تعالى**: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء ٨٧] وفي وَصْفِ يونسَ عليه السلام لنفسِه بالظلم ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. هذا معناه أنّ يونس عليه السلام أدركَ وهو في بطن الحوت أنّه تسرّع بالخروج من قومه ، قبل توجيه الله له ، وأنّ الله عاتبٌ عليه ، ولامه من أجل ذلك ، وقدّر أن يوقع به هذا البلاء ، ويمتحنه بهذه المحنة ، وعند ذلك انطلق لسانُه بأنه كان ظالماً في فعله وتصرفه وخروجه ، وطلب من الله أن يتجاوزَ عن

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٥٥).

ظلمه ، وهذا من بابِ شعوره بالتقصير في حق الله ، وحيائه من الله ، وطلبه تفريج الهم والكرب والضيق ، فهذا الاعترافُ منه من بابِ ذكره لله وتوسله إليه(١) .

و ـ عصمة النبي ﷺ :

● **أدلة عصمته ﷺ :**

دلّتْ نصوصُ القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد ﷺ في تبليغ شرع الله إلى الخلق .

وقد عُرِّفت عصمة النبيِّ بأنها : لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النَبيَّ على فعلِ الخيرِ ، ويزجُرُه عن الشرِّ ، مع بقاءِ الاختيار تحقيقاً للابتلاء(٢) .

١ ـ فمن القرآن الكريم :

أ ـ قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] فالآية نصٌّ في عصمة لسانه ﷺ من كل هوى وغرض ، فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أُمر به ، فيبلّغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وهذه الآية شهادةٌ وتزكيةٌ من الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ في كل ما بلغه للناس من شرع الله(٣) .

ب ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] .

فالآياتُ نصّت على أنّ الله سبحانه وتعالى لا يؤيّدُ من يكذِبُ عليه ، بل لابد أن يظهر كذبه ، وأن ينتقم منه ، ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس ، كما ما يزعمُ الكافرون فيما حكاه الله عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الشورى : ٢٤] لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات ، وحيث إنّ الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك ، فلم يهلكه الله ، ولم يعذبه ، فهو على هذا لم يتقوّل على الله

---

(١) مواقف الأنبياء ص (٣٥٦ ـ ٣٥٧) .
(٢) نسيم الرياض في شرح الشفا ـ للقاضي عياض ، للخفاجي (٤/ ٣٩) .
(٣) حقوق النبي على أمته (١/ ١٣٠) .

ما لم يقله ، ولم يفتر شيئاً من عند نفسه ، وبهذا ثبتتْ عصمتُه في كلِّ ما بلّغه عن ربه عز وجل[١] .

قال ابن كثير بعد أن فسّر هذه الآيات: والمعنى في هذا أنّـه صادقٌ راشدٌ ، لأنّ الله عزّ وجلّ مقرٌّ له ما يبلّغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[٢] .

ج ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥] .

فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله ﷺ ، وتثبيته وعصمته ، وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصره ومؤيده ، ومظهره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[٣] .

٢ ـ من السنة النبوية:

أ ـ حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وجاء فيه قوله ﷺ: «**ولكن إذا حدثتُكم عنِ اللهِ شيئاً فخُذُوا به ، فإنِّي لنْ أكذبَ على الله**»[٤] .

ب ـ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريدُ حفظَه ، فنهتني قريشٌ ، فقالوا: إنك تكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسولُ الله ﷺ بشرٌ يتكلّم في الغضبِ والرضا ، فأمسكتُ عن الكتابِ ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرجَ منِّي إلا حقٌّ**»[٥] .

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٣١).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٥٣).
(٤) مسلم (٧/ ٩٥).
(٥) مسند أحمد (٢/ ١٦٢ ، ١٩٢ ، المستدرك ، للحاكم (١/ ١٠٤ ، ١٠٥) وصححه ووافقه الذهبي.

ج ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنّي لا أقولُ إلا حقّاً**» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: «**إني لا أقول إلا حقاً**»[١].

- **عصمته ﷺ قبل مبعثه:**

دلت النصوص الثابتةُ على أنّ النبيَّ ﷺ معصومٌ من الكفر والشرك منذ نشأته، فلم يُعْهَدْ عنه ﷺ أنه سجد لصنم، أو استلمه، أو غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلُها قومُه، فقد فطره الله على معرفته، والاتجاه إليه وحده، وهذا هو المعلومُ من سيرته، فمن النصوص التي يُسْتَدَلّ بها على هذا الأمر ما يلي:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلبَ، فاستخرجَ منه علقةً، فقال: «هذا حظُّ الشيطانِ منك» ثم غسله في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسْعَوْنَ إلى أمه ـ يعني ظِئْرَه ـ[٢]، فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المخيطِ في صدره[٣].

فالحديث نصَّ على إخراجِ جبريل لحظِّ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه، فلا يقدرُ الشيطانُ على إغوائه، إذ لا سبيل له عليه، وهذا دليلٌ على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ[٤].

والنصوص في مثل هذا كثيرةٌ، وقد عُني بجمعها مَنْ ألّف في (دلائل النبوة) مثل الحافظ أبي نُعيم الأصفهاني، فقد عقد فصلاً في كتابه (دلائل النبوة) بعنوان: ذكر ما خصّه الله عزّ وجل به من العصمةِ، وحماه من التديّن بدينِ

---

(١) مسند (٢/ ٣٤٠، ٣٦٠)، والترمذي (١٩٩٠) حديث حسن صحيح.

(٢) ظئره: أي مرضعته حليمة السعدية.

(٣) مسلم (١/ ١٠١، ١٠٢).

(٤) حقوق النبي على أمته (١/ ١٣٤).

الجاهلية. . وقد أورد تحت هذا العنوان العديدَ من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[١].

وكذلك فعل البيهقي في (دلائل النبوة) أيضاً فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسولَه ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعايبها لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً[٢].

ومثلهما السيوطي في (الخصائص الكبرى) حيث قال: باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عمّا كان عليه أهل الجاهلية[٣].

● **إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته:**

وردت بعضُ النصوص التي قد يتوهّمُ منها البعضُ أنَّ رسول الله ﷺ كان على كفرٍ وضلالٍ قبل بعثته، فمن تلك النصوص:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فقد يتوهّمُ البعضُ أنّ هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي ﷺ للإيمان بالكلية قبل بعثته، بمعنى أنّه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك أنّ هذا الفهمَ خاطىءٌ، لأنّ الإيمان في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ مصدرٌ بمعنى المفعول، فيكون المراد: أي ما يجبُ الإيمانُ به من الفرائض والأحكام الشرعية التي كُلّف بها علماً وعملاً، فالمنفي هو الإيمان التفصيلي لا الإجمالي، فقد كان النبيُّ ﷺ قبل نزول الوحي إليه مبغِضاً للشرك وعبادةِ الأصنام، ومتّجهاً إلى الله وحده، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي آمن بها وطبقها، فهذا هو المعنى الصحيح للآية، كما ذكر ذلك علماءُ التفسير عند تفسيرها[٤]، قال ابن كثير:

---

(١) دلائل النبوة، للأصفهاني ص (١٤٣ ـ ١٤٧).

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٣٠ ـ ٤٢).

(٣) الخصائص الكبرى، للسيوطي (١/ ١٤٨، ١٥٢).

(٤) حقوق النبي على أمته (١/ ١٤٠).

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن[١].

قال الشوكاني: ومعنى ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرِفُ تفاصيل الشرائع، ولا يهتدي إلى معالمها، وخَصَّ الإيمان لأنه رأسها وأساسها[٢].

ب ـ ومن النصوص كذلك **قوله تعالى**: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

فقد يتوهّم البعضُ أنّ الآية تعني أنّ نبينا ﷺ كان على ضلال قبل مبعثه، وهذا فهمٌ خاطئ، وباطلٌ تردّه النصوص التي سبق إيرادها، والتي نصّت على أنّ النبيَّ ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذوراتِ أهل الفسق والعصيان[٣].

وقد أشار القرطبيُّ عند تفسيره لهذه الآية إلى بطلان هذا الفهم حيث قال: فأمَّا الشرك فلا يُظَنُّ به[٤].

وأمّا المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عِدّةِ معانٍ صحيحة لهذه الآية تشترك جميعاً في تنزيه النبيِّ ﷺ عن أن يُنْسَبَ إليه شيءٌ من الشرك، أو الكفرِ قبل بعثته، **ومن تلك المعاني ما يلي**:

أن يفسَّر الضلالُ هنا بمعنى الغَفْلَةِ، كما في **قوله تعالى**: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وكما في **قوله تعالى**: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. والمعنى أنّه وجدك غافلاً عما يُرادُ بك من أمر النبوة[٥].

وقال بعضُهم: معنى (ضالاً) **لم تكن تدري** ما القرآن والشرائع؟ فهداك الله إلى القرآنِ وشرائعِ الإسلام، وهو بمعنى **قوله تعالى**: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها إليك، لا تعرفها قبل الوحي إليك فهداك إليها[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢).
(٢) فتح القدير (٤/ ٥٣٠).
(٣) حقوق النبي على أمته (١/ ١٤٠).
(٤) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٩).
(٥) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦)، فتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٦) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦، ٩٧).

وقال بعضهم: معنى الآية أي وجدك في قوم ضُلاّل فهداهم الله بك[١].

ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، وهي معانٍ كلها حسان[٢].

ج ـ ومن النصوص كذلك **قوله تعالى**: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فليس المقصودُ بالغفلة هنا الشرك والغواية، إنّما المقصودُ منها الغفلة عن قصة يوسف مع أبيه وإخوته، كما يوضّحُ ذلك سياقُ الآية، فهذه القصة وأمثالها لا تُعْلَمُ إلا من الوحي، فلهذا لا يلحقه نقصٌ بسببها، وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية[٣]، قال الشوكاني: والمعنى أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة[٤].

● عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها أنه متّصفٌ بكل خُلُقٍ فاضلٍ من صدقٍ، وأمانةٍ، وبرٍّ، وصلة رحم، وإحسان، وجودٍ، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق، التي جبله الله عليها منذ نشأته، وحرى به ﷺ أن يكون كذلك، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداءُ الرسالة، وتبليغُها إلى الناس كافةً، فكان لابدّ من إعداده لهذه المهمة، ولذا فقد فطره الله على كلِّ خُلُقٍ فاضل كريم، وقد جمع الله خصال الخير كلها، فلم يكن يُدْعَىٰ إلا بالأمين.

ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

أ ـ قول خديجة بنت خويلد: رضي الله عنها حينما أتاها النبيُّ ﷺ خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء، وقال لها: «**إني قد خشيتُ على نفسي**» فقالت له: كلا، أبشرْ، فواللهِ لا يخزيك اللهُ أبداً، فواللهِ إنك لتصلُ الرحمَ، وتصدقُ

---

(١) فتح القدير (٥/٤٥٨)، تفسير القرطبي (٢٠/٩٧).
(٢) المصدر نفسه (٢٠/٩٧) بتصرف حقوق النبي على أمته (١/١٤٢).
(٣) حقوق النبي على أمته (١/١٤٢).
(٤) فتح القدير (٣/٤).

الحديثَ ، وتحمِلُ الكَلَّ ، وتُكْسِبُ المعدومَ ، وتقريَ الضيفَ ، وتعينُ على نوائب الحق(١) .

ب ـ إجماع قريش على الإقرار بصدقه: حينما جمعها ليصدعَ بالدعوة جهراً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي: يا بني فِهْرٍ ، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الرجلُ إذا لم يستطعَ أن يخرجَ أرسلَ رسولاً لينظرَ ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدّقِيَّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك إلا صِدْقاً ، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»(٢) .

فالشاهد من الحديث قولهم: (ما جربنا عليك إلا صدقاً) فالنبيُّ ﷺ انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه ، وانتفاء الكذب عنه ، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة(٣) .

ج ـ على الرغم من تكذيب قريش للنبيِّ ﷺ في دعوة النبوة ، إلا أنّ أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها ، فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنّا لا نكذّبك ، ولكن نكذِّبُ الذي جئتَ به ، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] .

وكذلك عندما سأل الأخنسُ بن شُريقٍ أبا جهلٍ بعدما خلا به يومَ بدرٍ ، فقال: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمّدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحدٌ من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل: ويحك ، والله إنَّ محمداً لصادقٌ ، وما كذبَ محمّدٌ قط ، ولكن إذا ذهبَ بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش(٤) .

هذه بعضُ النماذج التي تدلُّ على صدقه ﷺ ، وعصمته من الكذب قبل

---

(١) البخاري رقم (٤٩٥٣) ، فتح الباري (٨/ ٧١٥).
(٢) البخاري (٤٧٧٠).
(٣) حقوق النبي على أمته (١/ ١٤٨).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٠).

بعثته ، وكذا الحال بعد بعثته ﷺ ، فهذه أخبار نبينا محمد ﷺ وسيرته وشمائله معتنًى بها ، مستوفاة تفاصيلها ، لم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبرٍ صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها ، ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا[١] .

- **مسألة وقوع الخطأ منه :**

أمّا ما يقعُ من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية ، فمن الأدلة على ذلك حديثُ رافع بن خَدِيج رضي الله عنه قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدينةَ ، وهم يؤبّرون النخل (يلقحون النخل) فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كنا نصنعه. قال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**» فتركوه فنقصت. قال: فذكروا ذلك له ، فقال: «**إنّما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيٍ ، فإنّما أنا بشر**»[٢] .

وفي رواية أنس: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٣] ، وفي رواية طلحة: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً فلا تواخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لا أكذب على الله عز وجل**»[٤] .

وكذلك الأمر بالنسبة للأحكام البشرية الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة المحق من المبطل ، وعلم المصلح من المفسد ، فهذه أمورٌ اجتهادية ، يجتهد فيها برأيه ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنّكم تختصمون إليّ ، ولعلَّ بعضكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعتُ له من حقّه أخيه شيئاً فلا يأخذْه ، فإنّما أقطعُ له به قطعة من النار**»[٥] .

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكونَ معصوماً في هذا الجانب ، وذلك حتى

---

(١) حقوق النبي على أمته (٢/ ١٥٠).
(٢) مسلم (٧/ ٩٥).
(٣) مسلم (٧/ ٩٥).
(٤) مسلم (٧/ ٩٥).
(٥) البخاري رقم (٢٦٨٠).

تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس(١).

قال القاضي عياض: وتجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحلف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العِفاص والوكاء، مع مقتضى حكمة الله في ذلك(٢).

● **خلاف الأولى والأحسن والأفضل:**

الرسول ﷺ محفوظ بعناية الله، محاط برعايته، فلا يمكن أن تقعَ له مخالفة لأمر الله، أو يرتكب ذنباً يستحقّ عليه العقوبة، ولكنّه ﷺ قد يجتهدُ فيفعل خلافَ الأولى والأفضل والأحسن، فيعاتبه ربه، وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل.

وإليك بعضُ النصوص الكريمة التي ورد فيها العتابُ لرسول الله ﷺ:

أ ـ عتاب رسول الله ﷺ بشأن أسرى بدر:

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**».

فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذَ منهم فديةً، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى اللهُ أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**»؟ قلت: لا، والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنِّي أرى أن تمكنّا فنضربَ أعناقهم، فتمكِّنَ علياً من عقيلٍ فيضربَ عنقه، وتمكنُّني من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضربَ عنقه، فإنّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُه.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلتُ (يعني ما قاله عمر).

فلمّا كان من الغدِ جئتُ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت:

---

(١) حقوق النبي على أمته (٢/ ١٥٩).

(٢) الشفا (٢/ ٨٧٥).

يا رسولَ الله ، أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنتَ وصاحبُكَ ، فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجدْ تباكيتُ لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عَرضَ عليّ أصحابُكَ من أخذهم الفداءَ ، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل قول الله تعالى:** ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **إلى قوله:** ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ **فأحلّ الله الغنيمةَ لهم**[١].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدرٍ ، وجيء بالأسرى ، قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟**».

فقال أبو بكر: يا رسول الله ، قومُكَ وأهلُكَ ، استبقهم ، واستأنِ بهم ، لعلّ الله أنْ يتوبَ عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله ، كذّبوك وأخرجوك ، قرّبهم فاضربْ أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله ، انظر وادياً كثيرَ الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمْ عليهم ناراً.

قال: فقال العباس: قطعتَ رحِمَك. قال: فدخل رسول الله ﷺ ، ولم يردَّ عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر ، وقال ناس: يأخذُ بقول عبد الله بن رواحة.

قال: فخرجَ عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إنَّ الله ليُليِّنُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أَلينَ من اللبن ، وإنّ الله ليُشَدِّدُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكونَ أشدَّ من الحجارة ، وإنَّ مثلكَ يا أبا بكر مثل إبراهيمَ عليه السلام حيث قال:** ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. **وإنّ مثلكَ يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] **وإن مثلك يا عمرُ كمثل موسى ، قال:** ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

---

(١) مسلم رقم (١٧٦٣).

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أنتمُ اليومَ عالةً فلا ينفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو ضربِ عُنُقٍ**»(١).

وأما الآيات التي نزلت بشأن الأسرى، **فقوله تعالى**: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٧١].

لقد كان هذا العتاب توجيهاً من الله لرسوله ﷺ إلى الأفضل والأولى والأصحّ والأصوب لهم في تلك الحادثة(٢).

والحقيقة أنّ التحذيرَ الواردَ هنا، والدرسَ المرادَ تلقينه هو للمسلمين جميعاً، أمّا بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبلُ، ولن يكون له من بعدُ أيَّ ميلٍ للدنيا، فهذا التحذيرُ موجَّهٌ للمسلمين في شخص الرسول ﷺ، لكي يعتبروا، ويستفيدوا من التوجيه الإلهي(٣).

وما أجمل ما قاله ابن القيم حول هذه المسألة: وقد تكلّم الناسُ في أيِّ الرأيين كان أصوب: فرجحتْ طائفةٌ قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سيق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي سبقت الغضبَ، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى عليهما السلام، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى عليهما السلام، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرجَ من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً، حيث استقرّ الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأى ما يستقرّ عليه حكم الله آخراً، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

---

(١) رواه أحمد رقم (٣٤٥٢).
(٢) كتاب الرسول في القرآن، ص (٥٣).
(٣) العصمة النبوية، ص (٨٤).

قالوا: وأمّا بكاءُ النبيِّ ﷺ ، فإنّما كان رحمةً لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا ، ولم يُرد ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ، وإن أراده بعضُ الصحابة ، فالفتنةُ كانت تعُمّ ولا تصيبُ من أراد ذلك خاصة(١).

ب ـ إذنُ الرسول ﷺ المتخلّفين عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

لما عزم رسول الله ﷺ إلى تبوك استأذنه بعضُ المنافقين في التخلّف ، لأعذار أبدوها ، فأذنَ لهم فيه لسببين:

أحدهما: أنّ الله لم يقدّم إليه في ذلك أمراً ولا نهياً.

ثانيهما: أنّه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه ، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضررٌ.

فأنزل الله تعالى يبيّن له أنَّ تركَ الإذنِ لهم كان أولى ، لما يترتّب عليه من انكشافِ الصادقِ من الكاذبِ ، فيما أبدوه من الأعذار ، واستفتح ربُّ العزّةِ ما أنزله بجملةٍ دعائية هي قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على عادةِ العرب في استفتاح كلامهم بهذهِ الجملة ، أو بقولهم: (غفر الله لك) ، أو (جعلت فداك) ، أو نحوها يقصدون تكريمَ المخاطب ، إذ كان عظيمَ القدر ، ولا يقصدون المعنى الوصفيَّ للجملة(٢) ، ولو بدأ ربُّ العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لخيفَ عليه أن ينشقَّ قلبُه من هيبة هذا الكلام ، لكنّ الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ، ثم قال له: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بالتخلف حتى يتبيّنَ لك الصادقُ في عذره من الكاذب؟ وفي هذا بيانٌ لعظيم منزلته عند الله ، مما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه ، وبرّه به ، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب ، فليتأمّل كلُّ مسلمٍ هذه الملاطفةَ العجيبة في السؤال من ربِّ العالمين ، المنعم على

(١) زاد المعاد ، لابن القيم (٣/ ١١١).

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ، د. عماد الشربيني ص (١٨١).

الكلِّ ، المستغني عن الجميع ، ويستثير ما فيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وهل سمعتم بمعاتبةٍ أحسنَ من هذا إن كان ثَمَّ عتبٌ ، وأنس العفو قبل ذكر الذنب إن كان ثَمَّ ذنب ، وهكذا في أثناء عتبه براءته ، وفي طيِّ تخويفه تأمينه وكرامته[١] ، إن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ غايةٌ ما يمكِنُ أن يدعى فيها أن تكون دالةً على أنه ﷺ ترك الأَوْلى والأفضل ، وقد بينتُ أنَّ ترك الأولى ليس بذنب[٢].

ج ـ عتاب رسول الله ﷺ بشأن عبد الله بن أم مكتوم:

أجمع المفسرون والأخباريون على أنّ مطلع سورة (عبس) نزل عتاباً من الله لرسوله ﷺ لموقفه من الصحابي عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، ومطلعُ السورة النازلُ في تلك الحادثة هي قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١ ـ ١٦].

أتى عبدُ الله بن أم مكتوم النبيَّ ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأبي بن خلف ، وأمية بن خلف ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فقال له ابن أم مكتوم: يا رسول الله ، علّمني ممّا علمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرّرُ النداء ، ولا يدري أنّه مشتغِلٌ مقبِلٌ على غيره ، حتى ظهرت الكراهيةُ في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه ، فعبسَ رسول الله ﷺ وأعرضَ عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ، وكان رسول الله ﷺ بعدَ ذلك يكرِمُه ، وإذا رآه يقول: «**مرحباً بِمَنْ عاتبني فيه ربي**»[٣].

فأنتَ ترى من سبب النزول أنَّ النبي ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش ، وكان يحرصُ على دعوتهم ، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناسُ ، وقد جاءه هذا

---

(١) الشفا بتصرف (١/٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠).

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ص (١٨٢).

(٣) أسباب النزول ، للواحدي ص (٢٥٤).

الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه، فترك إجابته لما هو ـ في نظره ـ أهمّ وأعظم، فعاتبه الله على هذا، وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن[١].

د ـ ثبات الرسول ﷺ أمام مساومات الكفار:

إنّ الله هو الذي ثبّتَ الرسول ﷺ على الحقّ، وجعله يواجه مساوماتٍ وإغراءاتٍ وعروض الكافرين بمزيدٍ من الثبات، وقد امتنَّ الله على رسوله ﷺ في تثبيته على الحق، وأخبره أنه لولا فضله عليه بذلك التثبيت لاستجاب للمشركين، **فقال له**: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٧][٢].

وقد أحسن محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره للآيات فقال: ولولا أنْ عصمناك من الخطأ في الاجتهاد، وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين، والتنويه باتباعه ـ ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ـ لا تعارضُها مصلحةُ تأليفِ قلوب المشركين، فإنّ إظهارَ الهوادةِ في أمر الدّين تطمعُ المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعدُ مدًى مما سألوه، فمصلحةُ ملازمةِ موقفِ الحزمِ معهم أرجحُ من مصلحةِ ملاينتهم وموافقتهم، ولولا ذلك كله كدتَ تركنُ إليهم قليلاً، أن تميلَ إليهم، أي: تعدهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك، استناداً لدليل مصلحةٍ مرجوحةٍ واضحةٍ، وغفلة عن مصلحة راجحةٍ خفيةٍ، واغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عظيم ما وعدوا به من إيمانهم.

وركون الرسول ﷺ إليهم غيرُ واقع، ولا مقاربُ الوقوع، وقد نفته الآيةُ بأربع أمور هي: (لولا) الامتناعية، وفعل المقاربة (كاد) المقتضي أنه ما كان يقعُ الركون، ولكن يقع الاقترابُ منه، والتحقير المستفاد من كلمة (شيئاً) والتقليل المستفاد من كلمة (قليلاً)، أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخيف أن تقتربَ من

---

(١) النبوة والأنبياء (٩٩).

(٢) عتاب الرسول في القرآن ص (٩٠).

ركونٍ ضعيفٍ قليل ، ولكنَّ ذلك لم يقع ، ودخلت (قد) في حيّزِ الامتناع ﴿وَلَوۡلَآ﴾ فأصبح تحقيقها معدوماً ، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قربُ ميلك القليل ، ولكنّ ذلك لم يقع ، لأنّا ثبتناك(١) .

لقد أخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله ﷺ وتثبيته ، وعصمته وسلامته من شرّ الأشرار وكيدِ الفجار ، وأنّه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليُّه ، وحافظه ، وناصره ، ومؤيده ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها(٢) .

هـ ـ قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فهذه الآيةُ الكريمةُ ليس فيها ما يدلُّ على شك الرسول ﷺ في الوحي الذي نزل عليه ، وإنّما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادةُ العربِ في تقدير الشك ليبنَى عليه ما ينفي احتمال وقوعه ، كما تقول لابنك: (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إنْ وقع منك يا محمد شكٌّ ـ فرضاً وتقديراً ـ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوحٍ وإبراهيمَ ، فسأل علماءُ أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، فإنّهم على علم من ذلك ، فالغرضُ وصفُ الأحبار بالعلم ، لا وصفُ النبيِّ بالشك والريب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: لا واللهِ ما شكَّ رسول الله ﷺ طرفةَ عينٍ ، ولا سأل أحداً منهم(٣) .

و ـ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١ ـ ٢].

فإنّ هذا النصّ الكريم ليس فيه ما يدلّ على وقوع الذنب من الرسول ﷺ ، وإنّما هو خطابٌ للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ ،

---

(١) تفسير ابن عاشور (١٥/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) صحيح تفسير ابن كثير ، مصطفى العدوي (٢/ ٦٥٩).

(٣) النبوة والأنبياء ص (١٠٠).

والمراد به أمته ، كما يقول الملك لقائد جيشه : (لا تتسامحْ مع العدو ، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك ، وينقادوا لأمرك ، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً ، ولا تُظْهِرْ أمام عدوك الخوفَ والفزعَ إلى آخر ما يأمر به) فهو يخاطب القائد ، والمراد به الجند ، وينبّه الزعيمَ ، والمرادُ به الأمة ، والدليل أنَّ المقصود بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول ﷺ أنَّ الله تعالى ختم الآياتِ الكريمة بصيغة الجمع : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ ولم يقل : بما تعمل ، فهو مثل **قوله تعالى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] . هي خطابٌ للأمة في شخص الرسول ﷺ ، وإذا حملنا الخطابَ على الرسول ﷺ فليس فيه ما يدلّ على أنّ الرسولَ ﷺ همّ بطاعة الكافرين والمنافقين ، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى ، وإنّما غايةُ ما في الأمر أنَّ الله تعالى حذّره من مكر الكافرين ، وخداع المنافقين ، وأطلعه على خبيئةِ نفوسهم ، ليكونَ الرسول ﷺ منهم على حذرٍ ، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم(١) .

ز ـ أمر الرسول ﷺ بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

ففي هذه الآيةِ تحذيرٌ له ﷺ على إجابة كفّار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين ، وليس فيها ما يدلّ على أنّه طردهم فعلاً ، وإنّما هو عرضٌ عرضه المشركون على رسول الله ﷺ فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله .

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء ، لا يجترئون علينا ، قال : وكنتُ أنا وابن مسعود ، ورجل من هُذيل ، وبلال ، ورجلان لستُ أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدَّث نفسه ، فأنزل الله

---

(١) النبوة والأنبياء ص (١٠١).

عز وجل قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢](١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده خبَّاب وصُهيب وبلال وعمّار، وغيرهم من ضُعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطردهم فلعلّك إنْ طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله تعالى **قوله**: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢](٢).

وبعدما نهى الله رسوله ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين بطرد المؤمنين أمره أن يكرمَ المؤمنين إكراماً آخر، وذلك بأن يبادرهم بالسؤال عندما يجيئون إليه، ويبشّرهم برضا الله عنهم، ومغفرته لهم، ورحمته بهم، ليزدادوا عبادةً لله، ونشاطاً في طاعته، ويكثروا من التوبة والاستغفار، **قال تعالى**: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالرسول ﷺ لم يرتكبْ خطأً، لأنه لم يوافق الكفّار المشركين على طلبهم، ولم يطرد المستضعفين من مجلسه، وكل ما في الأمر أنّ نفسه حدَّثته بشيء، ووقع في قلبه ما شاء الله أن يقع، كما قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ولعلّه مال إلى الموافقة على طلبهم لحرصه على إيمانهم، ولكنّ الله تداركه، فأنزل الله عليه الآيات المذكورة من سورة الأنعام، لتنهاه عن ذلك، وأكّدها بآيات من سورة الكهف، **قال تعالى**: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] لقد شاء الله لرسول الله ﷺ الأفضل والأكمل وأرشده إليه، فالتزامه ﷺ مقرّراً الميزان الربانيّ الصحيح في التكريم والتفضيل، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله**

---

(١) مسلم (٢٤١٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٣٨ ـ ١٣٩).

لا ينظرُ إلى صوركم وأموالِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١] .

ح ـ زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

يحلو لبعض الناس أن يثيروا بعضَ الشبهات حولَ زواج النبي ﷺ بزينبَ رضي الله عنها ، التي كانت عند مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، وأن يقيموا زوبعةً من الزوابع الهوج حول عصمته ﷺ ، فقد زعموا أنّ محمداً رأى زينبَ فأحبها ، ثم كتم هذا الحبَّ ، ثم بعد ذلك أظهره ، ورَغِبَ في زينب ، فطلّقها زوجُها زيدٌ ، وتزوّجها رسول الله ﷺ ، وزعموا أنّ العتاب في الآية لكتمان هذا الحب .

وكذبوا بعضَ الأكاذيب الأثيمة ، فزعموا أنَّ النبي ﷺ مرَّ ببيت زيدٍ وهو غائبٌ ، فرأى زينبَ ، فوقع منها في قلبه شيءٌ ، فقال: سبحان مقلِّب القلوب فسمعت زينبُ التسبيحةَ ، فنقلتها إلى زيدٍ ، فوقع في قلبه أن يطلّقها ، حتى يتزوّجَ بها الرسول ﷺ إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة ، التي تلقّفها المستشرقون ومَنْ على شاكلتهم ، وأباحوا لأنفسهم الخوضَ في الأعراض ، والتكلّم في حق النبي الكريم ﷺ ، وتصويره بصورة يترفّع عنها كثيرٌ من الناس ، وكان سندهم في ذلك بعضَ الروايات الإسرائيلية ، التي دُسَّتْ في كتب التفسير ، وهي رواياتٌ باطلةٌ لم يصحَّ منها شيء ، كما قال : (أبو بكر بن العربي)[٢] :

فلا حجّة لمن ذهبَ هذا المذهبَ ، وفسَّرَ الآيات بما لا يليقُ بمنصب النبوة ولا بالعصمة من المتقدّمين من المفسرين ، الذين اعتمدوا على روايات ضعيفة وأسانيد واهية ، اتخذت فيما بعد لضجيجٍ أهوج ، وصيحاتٍ هسترية ، تطعنُ في السنة النبوية وأهلِها من أعدائها ، وترمي بالنقيصةِ وعدم العصمةِ أكمل الناس خُلقاً وأحمدهم سيرة[٣] .

---

(١) مسلم رقم (٢٥٦٤).
(٢) النبوة والأنبياء ص (١٠٦).
(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ص (١٩٥).

ولا حجَّةَ لهم في التعلّق بظاهر الآية ، ولا بالآراء التي قيلت في تأويلها ، ولا سند لها ، بل هي باطلةٌ لوجوه :

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدلُّ على أن رسول الله ﷺ صدر منه في هذه الواقعة مذمةٌ ، ولا عاتبه الله على شيءٍ منه ، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ ، ولا ذكرَ استغفار النبيِّ ﷺ منه ، ولا أنه اعترفَ على نفسه مخطئاً ، وأنّه لو صدرت عنه زلةٌ لوجِدَ من ذلك شيء .

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصة بصريح القرآن الكريم ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. ونُفي الحرج عن النبي ﷺ تصريحٌ بأنه لم يصدر منه ذنب البتة ، كما أنّ نفيَ الحرج ردٌّ على مَنْ توهّم من المنافقين نقصاً في تزوجه ﷺ امرأة زيدٍ مولاه ودعيّه الذي كان قد تبناه[1] .

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمةَ والعلّةَ مِنْ زواجه ﷺ من زينبَ رضي الله عنها بقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٌ مِّنۡهَا وَطَرًا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ ، ولو حصل في ذلك سوءٌ لكان قدحاً في الله تعالى ، وهو ما يؤكد أنه لم يصدرْ منه ﷺ ذنبٌ البتة في هذه القصة .

الوجه الخامس: أنّه لو كان ما زعموه صحيحاً ، لكان قوله ﷺ لزيدٍ كما حكى القرآن الكريم: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، نفاقاً ، لأنّه أظهرَ بلسانه خلافَ ما يضمِرُه في نفسه ، لكنّ الله عزّ وجلّ عصم نبيّه ﷺ من ذلك .

الوجه السادس: أنّ رسول الله ﷺ ، لم يكن يرى زينبَ للمرة الأولى ، فهي بنتُ عمته ، ولقد شاهدها منذُ ولدت ، وحتى أصبحت شابةً ، أي شاهدها مرّاتٍ عديدة ، فلم تكن رؤيته لها مفاجأةً ، كما تصوّرُ القصة الكاذبة ، ولو كان رسول الله ﷺ يحمِلُ أيَّ ميلٍ نحو زينب رضي الله عنها لتقدّم لزواجها ، وقد كان هذا أملُها وأملُ أخيها حين جاء ﷺ يخطبها منه ، فلمّا صرح لهما أنه يخطبها لزيد ، أبيا ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ص (١٩٧).

يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله ، وكانت هذه الآية توطئةً وتمهيداً لما ستقرّره الآياتُ التاليةُ لها من حكم شرعي يجبُ على المؤمنين الانضياعُ له ، وامتثالُه ، والعملُ به ، وتقبله بنفس راضية ، وقلب مطمئن وتسليم كامل.

الوجه السابع: أنّ ما أخفاه النبيُّ ﷺ وأبداه الله تعالى هو: أمرُهُ بزواج زينب ، ليبطلَ حكمَ التبنّي ، هذا ما صرّحت به الآيةُ لا شيءَ آخر غيره ، **قال تعالى**: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فكيف يعدلون عن تصريح القرآن الكريم إلى رواياتٍ لا زمامَ لها ولا خِطامَ ، وليس في هذا الإخفاءِ ما يعابُ عليه ﷺ أصلاً ، وإلاّ لكان ذنباً تجبُ منه التوبة؟ وليس في الآية الكريمة ما يشعِرُ بشيءٍ من ذلك ، وعليه فالإخفاء هو غايةُ العقل وعينُ الكمال ، لأنّ ذلك إنّما كان سِرّاً بينه وبين خالقه عزّ وجلّ ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه ، فكتمانه في الحقيقة ، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ويوضّحُ هذا ويبينه ما وقع منه في قصّة عائشة رضي الله عنها ، حين أتاه جبريل عليه السلام ، قبل أن يتزوّجها بأمدٍ بعيدٍ ، بصورتها على ثوب من حرير ، وقال له: هذه (امرأتك) ، وقد عرفها رسول الله ﷺ يقيناً ، ولم يشك في أنّها ستكونُ من أزواجه الطاهرات ، ومع ذلك فقد ترك هذا الأمرَ سرّاً مكتوماً بينه وبين ربه ، وقال: «**إنْ يكُ هذا مِنْ عندِ اللهِ يُمْضِهِ**»(١). أي إنه من الله ولابدّ ، فلأتركه إلى أن يجيءَ وقته الموعود ، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى ، وتمَّ ما أراد عز وجل.

وهنا نصلُ إلى أصحِّ المحامل في قصّة زينب رضي الله عنها ، وهو أنّ الله تعالى قد أعلمَ نبيّه ﷺ أنها ستكونُ من أزواجه ، فلمّا شكاها له زيدٌ ، وشاوره في طلاقها ، ومفارقتها ، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «أمسكْ عليكَ زوجَكَ ، واتّق الله» أي واتّق اللهَ في شكواك منها ، واتهامك لها بسوءِ

---

(١) فتح الباري ، لابن حجر (٨/٩).

الخُلق ، والترفع عليك ، لأنه شكا منها ذلك(١).

وأخفى رسول الله ﷺ في نفسه ما كان أعلمه الله به من أنّه سيتزوجها ، ممّا اللهُ مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها(٢).

ويصحِّحُ هذا قولُ المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لابدّ أن تتزوجها ، ويوضّحُ هذا أيضاً أنّ الله تعالى لم يبدِ من أمره ﷺ معها غيرَ زواجه لها ، فدلَّ على أنّه هو الذي أخفاه ﷺ ممّا كان أعلمه به ربه عز وجل.

وبهذا القول الذي تعطيه التلاوةُ من أنّ الذي أخفاه النبي ﷺ: هو إعلامُ الله له أنّها ستكونُ لها زوجةٌ له بعد طلاقها من زيدٍ ، قال به جمهورُ السلف ، والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي(٣) ، والقاضي عياض(٤) ، والقسطلاني في (المواهب) والزُّرقاني في (شرحها)(٥) ، وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها ، وتنزيه الرسل عمّا لا يليقُ بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع(٦).

إنَّ النبيَّ ﷺ لم يقدّمْ خشيةَ الناس على خشية الله ، لأنَّ الله لم يكلّفه بعمل شيءٍ فتركه ولم ينفذه لأنَّه يخشى الناسَ ، ولمّا أمره الله بالزواج بزينب نفّذ أمرَ الله ، ولو لم يفعل ذلك خوفاً من كلام الناس ـ وحاشاه أن يفعل ـ لقيل: كان يخشى الناسَ أكثر من خشيته لله ، فلامه وعاتبه ، وقال له: عليك أن تخشى الله أكثر من خشيةِ الناس ، لأنّه أحق أن تخشاه(٧).

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمّدٌ ﷺ كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

(١) السنن الكبرى ، للبيهقي (١٣٨/٧).
(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ص (١٩٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٩٠ ـ ١٩١).
(٤) الشفا (١٩١/٢).
(٥) شرح الزرقاني على المواهب ، نقلاً عن رد شبهات ص (١٩٩).
(٦) رد شبهات حول عصمة النبي ص (١٩٩).
(٧) عتاب الرسول في القرآن ص (١١٨).

زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧][(١)].

وكان الحقّ هو أنّ هذا الزواجَ كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها، حيث أُكرهتْ على قبولِ زيدٍ، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به، ويعلم نهايته، وزينب تحت مولاه زيد، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيمُ مبدأٍ كان معمولاً به، ومشهوراً عند العرب، هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحريمها إذا كان الابنُ من النسب ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ [الأحزاب: ٣٨][(٢)].

وكان رسول الله ﷺ يعلمُ أنَّ زيداً وزينبَ لن يتفقا، لأنَّ الله أخبره بذلك، كما أخبره أنّه سيتزوّجها هو بعد تطليق زيدٍ لها، وكان يُخفي هذا الخبرَ في نفسه، مع يقينه أنّ الله سيبديه ويظهره في حينه، وسببُ إخفائه له أنه كان يخشى ويتحرّج من كلام الناس، وشبهات المنافقين، حيث سيقولون: تزوَّج محمّدٌ امرأة ابنه، وعليه ﷺ أنْ لا يخشى الناسَ، لأن الله هو الأحقُّ أن تخشاه.

ولم يُخطئ رسول الله ﷺ في موقفه، ولم يفعلْ ما يعاتَبُ فيه أو يلامُ عليه، ولذلك لم يفعل ما يعاتبه الله في قوله له: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ لأنه ليس فيه ما يُلامُ عليه، لأنّ الله لم يأمره أن يخبرَ الناسَ، ويظهرَ لهم ما أخبره الله به، من أنّه سيتزوّج زينب بعد تطليقها رضي الله عنها، فتزوجها ﷺ، لأنّ الله هو الذي أمره بذلك فما في الآية هو إخبارٌ من الله عن موقف النبيِّ ﷺ من الحادثةِ، وكان موقفه سليماً صحيحاً والله أعلم[(٣)].

ط ـ ما الذي حرمه الرسول ﷺ على نفسه لمرضاة أزواجه؟

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ

---

(١) مسلم (١٧٧).

(٢) النبوة والأنبياء ص (١٠٨).

(٣) عتاب الرسول في القرآن ص (١٢٢).

قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ١ ـ ٥].

لهذه الآيات سببان للنزول، ورداً في رواياتٍ صحيحةٍ:

السبب الأول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يمكثُ عند زينب بنت جحش، ويشربُ عندها عسلاً، وتواصيتُ أنا وحفصة أنّ أيَّتُنا دخلَ عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجدُ منك ريحَ مغافير، أكلتَ مغافير[1]؟ فدخل على إحداهُما، فقالت ذلك له، فقال: «**لا، بل شربتُ عسلاً عند زينبِ بنت جحش، ولن أعودَ له**» فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: «**بل شربتُ عسلاً**»[2].

وفي لفظ آخر للبخاري، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكثُ عندها، فواطأت أنا وحفصةُ أنّ أيَّتُنا دخلَ عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير؟ إنِّي أجدُ منك ريحَ مغافير. قال: «**لا، ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً**»[3].

ويبدو أنّ التي جرى بينها وبينه هذا الكلام هي حفصةُ، ولكنّها لم تلتزم بقوله: «**لا تخبري أحداً**» حيث أخبرت شريكتَها في الحادثةِ عائشة بذلك، ولعلَّ هدفها من إخبارها هو تبشيرها بنجاح خطتهما، لإبعاد رسول الله ﷺ عن عَسَلِ زينب، وليس لإفشاءِ سرِّ رسول الله ﷺ، فهاهو قد حلف يميناً عن ذلك، فأنزل الله الآياتِ عتاباً للرسول ﷺ على يمينه، ودعاه إلى التكفير عنه، وأخبره عن

---

(١) المغافير: جمع مغفار من شجر صحراوي له شوك، يسمى العرفط، وهذا الصمغ حلوُ الطعمِ، كريه اللون.
(٢) البخاري رقم (٥٢٦٧)، مسلم رقم (١٤٧٤).
(٣) البخاري رقم (٤٩١٢).

إفشاء حفصة كلامه لها ، والتفتتِ الآياتُ إلى لوم حفصة وعائشة رضي الله عنهما ، وتهديدهما بالعقاب ، ودعوتهما إلى التوبة والاستغفار ، وإخبارِهما أنّ الله وجبريل والمؤمنين معه[١] .

السبب الثاني: مارية رضي الله عنها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ رسول الله ﷺ كانت له أمةٌ يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتّى حرّمها ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم: ١][٢] .

وروى الطبري عن زيدٍ بن أسلم: أنَّ رسول الله ﷺ أصابَ أمَّ إبراهيم في بيتِ بعضِ نسائه ، فقالت حفصة: أيْ رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراماً ، فقالت: يا رسولَ الله ، كيف تحرّم عليك الحلالَ؟ فحلف لها باللهِ لا يصيبُها ، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٣] .

أمُّ إبراهيم هي جاريتُه مارية القبطية ، التي أهداها له حاكم مصرَ المقوقس في السنة السابعة من الهجرة ، وهي أمته وملك يمينه ، وقد أنجبت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، الذي توفي وهو في السنة الثانية من عمره[٤] .

وقد رجَّح كثيرٌ من المفسرين قصّة حلفه على جاريته مارية ، مع أنّ قصة حلفه على العسل أصحُّ إسناداً .

ويمكن أن يجمع بينهما بالقول: إنَّ ما حدث أولاً هو تآمر حفصة وعائشة رضي الله عنهما لمّا شربَ العسل في بيت زينب ، فقالت له حفصة: أكلتَ مغافير؟ فحلف لها ألا يعود إليه ، وأمرها ألا تخبر أحداً ، فخالفت وأخبرت حليفتها عائشة ، وبعد ذلك وطىء مارية في بيت حفصة أثناء غيابها ، ولما عادت وغضبت حلف ألا يطأ مارية لترضى حفصة، وطلب منها ألا تخبر أحداً ، فأخبرت

---

(١) عتاب الرسول في القرآن ص (١٣٨).
(٢) فتح الباري (٩/ ٢٨٨).
(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ١٧٤).
(٤) عتاب الرسول في القرآن ص (١٣٨).

عائشة ، وأنزل الله الآيات يعاتب الرسول ﷺ على يمينه ، وطلب منه أن يدفع الكفارة ، ويهدد أزواجه المخالفات بالعقاب[١].

*** توجيه تحريم الرسول ﷺ الحلال:**

نتوقّفُ الآن لتوجيه موقف الرسول ﷺ واليمين الذي حلفه ، ونوع التحريم الذي حرّمه على نفسه ، والذي عاتبه عليه **بقوله**: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾.

وإذا كنا نعتقدُ أنّ التحليل والتحريم لله وحده ، وأنّه لا يجوزُ لأيِّ إنسان أن يحرّم ما أحلّ الله ، فكيف حرّم الرسولُ ﷺ ما أحلّ الله له؟ هناك معنيان للتحريم:

الأول: تحرم لغوي عام ، وهو بمعنى الامتناع ، فإذا امتنعَ إنسانٌ عن فعل شيءٍ ، قيل حرّم هذا الشيءَ عن نفسه.

والثاني: تحريمٌ شرعي خاص ، وهو أن يمتنعَ المسلمُ عن فعلِ شيءٍ ، لأنّ الله نهاه عنه ، وهدَّده بالعذاب إن هو فعله.

والامتناع عن فعل شيءٍ يُسمَّى تحريماً لغةً ، وهو ألا يكون امتناعاً شرعياً إلا إذا حرّمه الشرع ، وأمر بالامتناع عنه أو زعم الممتنِعُ عنه أنّ الشرع حرّمه.

وتحريم رسول الله ﷺ شربَ العسل على نفسه ، وتحريمه وطءَ جاريته من النوع الأول ، فهو تحريمٌ لغوي قائمٌ على معنى امتناعه من فعل الحلال المباح ، وليس من التحريم الشرعي ، لأنَّ الرسول ﷺ يقول: إن التحريم الشرعي حق الله ، وأنّه لا يجوزُ له تحريم شيء تحريماً شرعياً أباحه الله.

ومن التحريم بمعناه اللغوي القائم على الامتناع ، **قوله تعالى** عن موسى عليه الصلاة والسلام وهو طفيل رضيع ، التقطه آل فرعون: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]. والمعنى: أمر الله شفتي الطفل الرضيع موسى أن تمتنعَ في قبولِ ثدي أي امرأةٍ مرضعٍ ، فإذا وضعت ثديها في فمه رفضَه ، بحثاً عن ثدي أمه ، وانتظاراً لعودته إليها ، واعتبرت الآيةُ هذا الامتناعَ تحريماً[٢].

---

(١) المصدر نفسه ص (١٤٦).

(٢) عتاب الرسول في القرآن ص (١٤١ ، ١٤٢).

ومن هذا التحريم ما حرّمه نبيُّ الله إسرائيل (يعقوب) عليه والسلام على نفسه ، والذي أخبرنا عنه **قوله تعالى** : ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣] .

إنّ يعقوب عليه السلام نبيٌّ ، يعلمُ أنَّ التحليل والتحريم لله وحده ، وهو لم يحرّمْ على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً ، وإنّما حرّمه تحريماً لغوياً ، أي امتنع عن تناوله امتناعاً شخصياً .

والرسول ﷺ امتنع عن شرب العسل ، وعن معاشرة جاريته مارية ، امتناعاً شخصياً ، ليُرضيَ بذلك حفصة ، وليس امتناعه عن ذلك امتناعاً شرعياً ، ولم يحرّم بذلك على نفسه ما أباحه الله له بالمفهوم الشرعي ، فهو يعتقدُ أنّه مازال مباحاً له ، ولكنّه امتنع عن فعل ذلك المباح ، واعتبرت الآيةُ امتناعَ الرسول ﷺ عمّا امتنعَ عنه تحريماً ، لأنّه تحريمٌ بالمعنى اللغوي ، وهو الامتناعُ الشخصي عن بعض ما أباح الله له(١) .

إنّ عتاب الله لرسوله ﷺ لا يعني أنّه وقع في ذنب أو زلة أو خطأ ، إنّما يعني أنّ الله يرشِدُه إلى ما هو أولى وأفضل ، فما فعله جائز ، لكنْ كان الأولى والأفضل له أن لا يغفله ، وكان الأفضلُ أن لا يحلف على ما حلف عليه ، والله يريدُ لرسوله ﷺ دائماً ما هو أولى وأكمل ، ولذلك عاتبه هذا العتابَ الرقيق ، الذي وعاه رسول الله ﷺ حقَّ الوعي(٢) وقد كفّرَ رسول الله ﷺ عن يمينيه اللذين حلفهما ، وعاد إلى شرب العسل عند زينب ، وعاد إلى معاشرة جاريته(٣) .

ي ـ صلاة الرسول ﷺ على زعيم المنافقين :

كان عبد الله بن أُبي بن سلول زعيماً للمنافقين ، وكان شديدَ العداوة للرسول ﷺ ، لأنه يراه حرمه مُلكاً في المدينة ، فقد كان زعيماً لقومه الخزرج قبل الهجرة ، وقد اتفق الأوسُ والخزرجُ على أن يتوّجوه ملكاً عليهم للقضاء على

---

(١) عتاب الرسول في القرآن ص (١٤٧) .
(٢) المصدر نفسه ص (١٥٠) .
(٣) المصدر نفسه ص (١٥٠) .

خلافاتهم ونزاعاتهم ، وبينما كانوا يُعدّون لحفل تتويجه ملكاً عليهم شرحَ الله صدور فريقٍ منهم للإسلام ، فبايعوا الرسول ﷺ بيعةَ العقبةِ الأولى وبيعةَ العقبةِ الثانية ، ونتجَ عن ذلك هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وبذلك فاتت فرصةُ الزعامةِ على عبد الله بن أبي ، فأكلَ الحقدُ قلبه على رسول الله ﷺ ، وصار يكيدُ له ، ويتآمر عليه ، واستمرّ عبد الله بن أُبي مع المنافقين الذين معه في العداوة للمسلمين ، ورسم المكايد والمؤامرات ضدّهم ، من السنة الثانية حتى السنة التاسعة للهجرة(١).

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مرض عبد الله بن أُبي مرضَ الموت ، وجاءه الرسول ﷺ يعودُه ، ولمّا توفي جاء ابنُه الصالح عبدُ الله إلى النبيّ ﷺ ، وأخبره بموت أبيه ، وطلب منه أن يعطيَه قميصَه ، ليكفّنه فيه ، فاستجابَ له رسول الله ﷺ ، وأعطاه قميصَه ، وكُفِّنَ عبدُ الله بن أُبي المنافقُ الكافرُ في قميص رسول الله ﷺ(٢).

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لمّا توفي عبدُ الله بن أبي ، جاء ابنُه إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسولَ اللهِ أعطني قميصَك اكفّنه فيه ، وصلِّ عليه ، واستغفرْ له ، فأعطاه النبيُّ ﷺ قميصه(٣).

والسبب الذي حمل رسول الله ﷺ على أن يكفِّن المنافق الكافر بثوبه ، هو الردُّ على يدٍ كانت لابن أُبيٍّ عنده ، فقد روي البخاري عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لمّا كان يومُ بدرٍ أتي بأسارى ، وأتي بالعباس ، ولم يكن عليه ثوبٌ ، فنظرَ النبيُّ ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبدُ الله بن أُبي يقدر عليه ، فكساه النبي إيّاه ، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه قال ابن عُيينة: كانت له عند النبي ﷺ يدٌ ، فأحبَّ أن يكافئه(٤).

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا ماتَ عبدُ الله بن

---

(١) المصدر نفسه ص (٦٨ ، ٦٩).
(٢) عتاب الرسول في القرآن ص (٧٥).
(٣) البخاري رقم (١٢٦٩) ، مسلم (٢٧٧٤).
(٤) البخاري (٤٦٧١).

أُبي ابن سلول ، دُعي رسول الله ﷺ ليصلّي عليه ، فلمّا قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه ، فقلتُ : يا رسول الله أتصلِّي على ابنِ أبي ، وقد قال يوم كذا وكذا وكذا؟ أعدّدُ عليه قوله فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : «**أخِّر عنِّي يا عمر**»! فلمَّا أكثرتُ عليه : قال : «**إنِّي خُيِّرت ، فاخترتُ ، لو أعلمُ أنِّي إن زدتُ على السبعين يُغْفَرُ له لزدتُ عليها**» فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرفَ ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله عليه **قوله تعالى** : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٨٤] ، فعجبتُ بعد ذلك من جُرأتي على رسول الله ﷺ[١] .

فالنبيُّ ﷺ لم يُخطِئْ في استغفاره لعبد الله بن أُبي زعيم المنافقين ، لأنّه فعل ذلك من باب فرط رحمته ورأفته وشفقته ، ولأنّ الله لم ينهه عن الاستغفار للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً ، لأنّه فهم من الآية التخيير وليس النهي ، فاختار ما يتّفقُ مع رحمته ورأفته ، مع علمه أنّ الاستغفار لن ينفعهم ، لأنهم كافرون منافقون .

وأمّا **صلاته على المنافقين** ، والآية التي تنهى عن ذلك أنزلها الله عليه بعد صلاته وليس قبلها ، والآيةُ التي كانت أنزلت قبل صلاته على ابن أُبي تحدّثت عن الاستغفار وليس الصلاة : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

لقد فهم منها تخييرُ الله له بالاستغفار لهم أو تركه ، والصلاةُ من صور الاستغفار ، فصلاته على ابنِ أُبي وفقَ فهمه التخيير من تلك الآية ، وهو يختارُ المتفق مع رحمته ، وهو في صلاته مطبّقٌ لما فهمه من الآية ، ولا يُلامُ على اجتهاده ، ولا على فعلٍ قام به ليس عنده فيه توجيه من الله ، ولما أنزل الله عليه آيةً ينهاه فيها عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، التزم بذلك التوجيه الرباني ، ولم يخالفه ، فإذا مات أحد المنافقين بعد ذلك لم يصلِّ عليه رسول الله ﷺ ، ولم يمشِ في جنازته ، ولم يَقُمْ على قبره ، ملتزماً في ذلك بتوجيه الله له ، وقبل أن يُقْبَضَ ﷺ أخبر أمينَ سرّه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

---

(١) البخاري (٤٦٧١).

بأسماء المنافقين ، لئلا يصلَّى على أحدٍ منهم بعده[١] .

بذلك يتبين لنا أنَّ كلّ الأنبياء معصومون ، لأنهم مصطَفَوْن من قبل العزيز الغفار ، لأداء مهمة الرسالة ، والتي تحتاجُ لصفة العصمة في الأنبياء والمرسلين .

عاشراً ـ من اختلف في نبوتهم:

هناك أشخاص صالحون ، ورد ذكرهم في القرآن دون التصريح بكونهم أنبياء أو غير أنبياء ، فاختَلفَ في شأنهم العلماء ، وهم :

١ ـ لقمان :

لا يوجدُ دليلٌ على نبوة لقمان ، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنّه آتاه الحكمة ، وذكر بعض ما يدلُّ على حكمته في وعظه لابنه[٢] **قال تعالى :** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان : ١٢] .

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنّه كان حكيماً ، ولم يكن نبياً[٣] ، وحكى بعضهم اتفاقَ أهل العلم على ذلك ، فلم يعتد بخلافِ مَنْ خالف[٤] .

٢ ـ ذو القرنين وتبع :

جاء ذكر ذي القرنين في سورة الكهف : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا

---

(١) عتاب الرسول في القرآن ص (٧٦) .

(٢) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة ، محمد كندو (٣/ ١٢٣٦) .

(٣) آراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ، محمد الشايع ص (٤٢٨) .

(٤) شرح صحيح مسلم (٢/ ١٤٤) ، تفسير البغوي (٦/ ٢٨٦) .

ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٩٨].

ومن ضمن هذه الآية **قوله تعالى**: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، فهل كان هذا الخطابُ بواسطة نبي كان معه، أو كان هو نبياً؟

جزم الفخر الرازي في تفسيره بأنّه كان نبياً، كما نقله الحافظ في (الفتح)[١] وقال بعد ذلك: قد اختُلِفَ في ذي القرنين، فقيل: كان نبياً كما تقدم، وهذا مروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعليه ظاهرُ القرآن.

وذكر الحافظ في شأنه آثاراً كثيرة تدلُّ على كثرة الاختلاف فيه[٢].

وعلى كل حال فإنَّ القولَ بعدم نبوته هو ما عليه جمهورٌ أهل العلم[٣].

الأفضلُ أن يتوقَّفُ في إثبات النبوة لذي القرنين وتُبّع، لأنه صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أدري أتّبع نبيّاً أم لا، وما أدري ذي القرنين نبياً أم لا**»؟[٤] فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري فنحن أحرى بألاّ ندري[٥].

وورد ذكر تُبّع في القرآن الكريم في **قوله تعالى**: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧] **وقال تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨٢).
(٢) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (٣/ ١٢٣٧).
(٣) تفسير البغوي (٦/ ١٩٨)، تفسير ابن عطية (٣/ ٥٣٨).
(٤) رواه الحاكم والبيهقي، انظر صحيح الجامع الصغير (٥/ ١٢١).
(٥) الرسل والرسالات ص (٢٢).

٣ ـ الخضر :

لم يذكر اسم الخَضرِ في القرآن ، وإنما ذكرتْ فيه قصته مع نبي الله موسى عليهما الصلاة والسلام ، وصرّحت السنّةُ باسمه ، كما في حديث ابن عباس ، عن أُبي بن كعب عن النبيِّ ﷺ في ذكر القصة(١) .

وقد اختُلِفَ في نبوة الخضر ، والذي عليه أكثرُ أهل العلم أنّه نبيٌّ ، ثم اختلفوا: هل هو رسول أم لا؟ وقال القرطبي: هو نبيٌّ عند الجمهور ، والآية تشهَدُ بذلك(٢) ، قال طائفة: هو ولي(٣) .

والصحيحُ قولُ الجمهور بأنّه نبي لا ولي ، وقولُ مَنْ قال منهم بنبوته دون رسالته(٤) ، ويقول العلامة الألوسي: . . . والمشهورُ ما عليه الجمهور ـ يعني القولُ بنبوته ـ وشواهِدُه من الآيات والأخبار كثيرة ، وبمجموعها يكادُ يحصل اليقين(٥) .

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمةُ النبوة ، وهذا العلمُ هو ما يوحَىٰ إليه من قبل الوحي.

الثاني: قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧٠]. فلو كان غيرَ نبيٍّ لم يكن معصوماً ، ولم يكن لموسى وهو نبيٌّ عظيم ، ورسولٌ كريم ، واجبُ العصمة ـ كبيرُ رغبة ولا عظيمُ طلبه في علم وليٍّ غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهابَ إليه ، والتفتيش عليه ، ثم لمّا اجتمعَ به

(١) البخاري رقم (٧٤).
(٢) فتح الباري (٦/ ٤٣٤).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٤٣٤).
(٤) آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (٤١٩).
(٥) روح المعاني (١٥/ ٣٢٠).

تواضعَ له ، وعظّمه ، واتبعه في صورةٍ مستفيد منه ، دلّ على أنّه نبيٌّ مثله ، يوحىٰ إليه كما يوحىٰ إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم عليه السلام .

الثالث : أنّ الخضر أقدمَ على قتل الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاّم ، وهذا دليلٌ مستقل على نبوته ، وبرهانٌ ظاهِرٌ على عصمته[١] ، لأنَّ الولي لا يجوزُ له الإقدامُ على قتل النفوس بمجرّد ما يُلقى في خَلَدِه ، لأن خاطره ليس بواجبِ العصمة ، إذ يجوزُ الخطأ عليه بالاتفاقِ ، ولمَّا أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر ، لشدة محبتهما له ، فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر ، وعقوقه ، دلّ ذلك على نبوته ، وأنّه مؤيّدٌ من الله بعصمته[٢] .

الرابع : ومن أوضح ما يُستدلُّ به على نبوة الخضر **قوله تعالى** : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ﴾ [الكهف: ٨٢]. وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرّعَ بذلك أهل الباطل في دعواهم أنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ حاشا وكلا[٣] : أي يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به ، وأوحى إلي فيه[٤] .

● **وأمّا ما يتعلق بحياته وتعميره** ، فالقولُ الصحيح القولُ بوفاته ، وهو ما عليه المحقّقون من أهل العلم[٥] .

والأدلة من الكتابِ والسنّةِ تدلُّ على قول من قال بوفاته ، وتؤيده :

فمن الكتاب الكريم :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. فالخَضِرُ إن كان بشراً ، فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوزُ تخصيصه منه إلا بدليل

---

(١) الرسل والرسالات ص (٢٣).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٣).
(٣) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني (٣/ ١٢٤٠).
(٤) الرسل والرسالات ص (٢٤).
(٥) المنار المنيف ، لابن القيم ص (٧٢) ، فتح الباري (٦/ ٤٣٤ ، آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (٤١٩).

صحيح، والأصل عدمُه حتى يثبتَ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال ابن عباس: ما بعثَ الله نبياً إلا أخذَ عليه الميثاقَ لئن بُعِثَ محمّدٌ وهو حيٌّ ليؤمنَنَّ به وينصرَنَّه[١]، فالخَضِرُ إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن النبي ﷺ لكان أشرفُ أحواله أن يكونَ بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره بأنْ لا يصلَ أحدٌ من الأعداء إليه، ولم يثبت أنَّ الخضر اجتمعَ مع النبيِّ ﷺ، فدلَّ ذلك على موته[٢].

ومن السنة المطهرة:

قوله ﷺ: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ لا يبقى على ظهرِ الأرضِ أحد**»[٣].

وقوله ﷺ: «**تسألوني عن الساعة، وإنّما علمُها عندَ اللهِ، وأقسمُ باللهِ ما علىٰ الأرضِ نفسٌ منفوسةٌ تأتي عليها مئةُ سنة**»[٤].

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديثُ الصِّحاحُ تقطع دابرَ دعوى حياة الخضر[٥].

٤ ـ إخوة يوسف: هل هم الأسباط؟

اتّفق أهلُ العلم على أنّ المرادَ بالأسباط في **قوله تعالى**: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] **وقوله سبحانه**: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣] **بأنّهم أبناءُ يعقوب عليه السلام**، واختلفوا هل هم أبناؤه لصلبه أم لا[٦]؟.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٣٠).
(٢) البداية والنهاية (١/ ٣١٢).
(٣) البخاري رقم (١١٦)، مسلم رقم (٢٥٣٧).
(٤) مسلم رقم (٢٥٣٨).
(٥) نقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٣١٣).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٠)، تفسير القرطبي (٢/ ١٤١)، تفسير الطبري (١/ ٦١٨).

فمَنْ قال: إنهم أبناؤه من ذريته، حكم بعدم نبوة إخوة يوسف، ومن قال: إنّهم أبناؤه لصلبه حكم بنبوة إخوة يوسف.

واختلَفَ هؤلاء في الجوابِ عمّا وقع منهم.

فقال بعضهم: إنّ زلّتهم قد غُفرتْ بندمهم، واستغفارِ أبيهم لهم، ولا يستحيلُ في العقلِ زلّةُ النبي[١].

ويُرَدُّ بأنّ الأنبياء معصومون من الكبائر.

وقال آخرون: إنّهم لم يكونوا أنبياء حين فِعْلِهم بأخيهم يوسف ذلك، وإنّما نبأهم الله بعد توبتهم[٢].

ويُرَدُّ بأنَّ القولَ الصحيح أنّ الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها[٣].

والراجح ـ والله أعلم ـ **القولُ بعدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام**، يقول ابن كثير: اعلم أنّه لم يقمْ دليلٌ على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق (يعني سياق قصتهم) يدلُّ على خلاف ذلك.

ومن الناس من يزعمُ أنّهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظرٌ، ويحتاج مدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى **قوله تعالى**: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمالٌ، لأنّ بطون بني إسرائيل يقالُ لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنّه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً، لأنهم كثيرون، ولكنْ كلُّ سبطٍ من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليلٌ على أعيانِ هؤلاءِ أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[٤].

* * *

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٣٣).
(٢) تفسير ابن عطية (٣/ ٢٢٠)، تفسير السعدي ص (٣٦٣).
(٣) آراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (٤٢٤).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٤).

الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً ـ سمات دعوة الأنبياء.

١ ـ الربانية.
٢ ـ الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية.
٣ ـ الزهد في الدنيا ، وإيثار الآخرة.
٤ ـ التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب.
٥ ـ إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له جل وعلا.
٦ ـ البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد.
٧ ـ وضوح الهدف والغاية من الدعوة.
٨ ـ الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء.
٩ ـ اختصاصها بالعلم النافع المنجي.
١٠ ـ الإيمان بالآخرة والاهتمام بها.
١١ ـ دعوة حضارية لها أسلوبها الخاص في الحياة.

ثانياً ـ خصائص الأنبياء

١ـ اصطفاؤهم بالوحي والرسالة.
٢ ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.
٣ـ تخييرهم عند الموت.
٤ـ يقبر النبي حيث يموت.
٥ـ لا تأكل الأرض أجسادهم.
٦ ـ أحياء في قبورهم.
٧ ـ لا يورثون بعد موتهم.
٨ ـ إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالة.

* * *

الفَصْلُ الثَّالِث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً ـ سمات دعوة الأنبياء:

إنَّ الدعوات السماوية واحدةٌ من سماتها ، لأنّها جميعاً من مصدر واحد ، ولها غايةٌ واحدةٌ ، وأبرز هذه السمات:

١ ـ الربانية:

إنّ أوّل وأهم ما تمتاز به دعوة الأنبياء أنها وحيٌ وتكليفٌ من الله عز وجل ، فليست هي نابعة من نفوسهم ، وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تتكوّن في زمانهم ، من ظلم وبغي وجَوْر ، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق ، وتألّمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس ، أو من شعورهم الرقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفيّاض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيءَ من ذلك أبداً ، إنّما هي وحيٌ من الله ، وتكليفٌ منه جل وعلا ، **قال تعالى**: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] **وقال تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

لذلك لا يخضعُ الرسول لعوامل نفسية داخلية ، أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال الأوضاع وشاء المجتمع ، وقد **قال الله** عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ولا يستطيعُ الرسول أن يحدِثَ تغييراً أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء ، الذين تكون رسالتُهم وكفاحُهم من وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع ، والظروف والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها في كثير من الأحوال ، فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون مع الأحزاب ، ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به (دُر مع الدَّهْر كيف دار)[١].

٢ ـ الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحقّ ، قائمين على نشره ، وكانوا مخلصين للدعوة ، متجرّدين عن الأغراض الشخصية ، لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي ، أو الربح الدنيوي ، إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه ، كما **قال تعالى** على لسان هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ﴾ [هود: ٥١] وكذلك **قال تعالى** على لسان خاتم الأنبياء ﷺ وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] **وقال تعالى**: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل ، وفي نصحهم إرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح ، إنّما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][٢].

٣ ـ الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة:

لم تكن دعوةُ الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا ، والاستهانة بقيمة الدنيا

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، لأبي الحسن الندوي ص (٣).
(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٣٦) ، النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (٣٧).

ومتاعها دعوةً باللسان فقط ، ودعوةً لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا أول المؤمنين بها ، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم ، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨].

فكانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحّوا بها في سبيل دعوتهم ، وفوّتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من اللامعين في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود: ٦٢] ، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وكان من تأثير صحبته ﷺ على أزواجه رضي الله عنهن أنهنّ كلَّهنّ آثرن الله ورسوله ﷺ ، وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ﷺ على الرخاء وخَفْضِ العيش مع غيره[١].

لقد آثر الرسلُ الباقيةَ على الفانية ، لأنهم أيقنوا أن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠] ، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الآخرة ، وقد خاطب الله رسولنا الكريم ﷺ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١][٢].

٤ ـ التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إنّ القرآن الكريم تحدّث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٤٦).

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٣٦) ، النبوة والأنبياء ص (٤٠).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود: ٨٤].

فالأنبياء جميعاً ركّزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى، ووجود الصانع المدبر الحكيم، وتحقيق العبودية لله تعالى، ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنّهم ركّزوا على الإيمان بالغيب، وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين، وشعاراً للمهتدين، وعلامة للمتقين.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقد زخرت الكتب السماوية، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصدّقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئة الله القاهرة، والاعتماد الكامل على صحّة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين أنزلت عليهم، وأخبروا بها.

أما الإيمان الذي لم يقم إلاّ على الحس والتجربة والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدوّن في الكتب، فإنّه إما أن يرفض أن يقبله ويصدق به، أو أن يتعثر ويتلجلج في قبوله، والتصديق به، أو يأوله بما يتفق مع ما ألفه، ولذلك **قال تعالى**: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل ٦٦].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين: فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل،

وشرحَ صدره للإسلام ، وفريق ضاق عقله وصدرُه عن كثير ممّا جاء من الله ، وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً **فقال تعالى** : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقد ذكر القرآن الكريم من صفات الله تعالى وأفعاله ومن الوقائع والحوادث ، وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل ، وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر الله لهم من الآيات ، كانفلاق البحر لموسى عليه السلام وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظُّلةِ على طائفةٍ من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فرقٍ منهم قردةً خاسئين ، وحياة المقتول الذي جُهِلَ قاتله بضربه بجزءٍ من البقرة المذبوحة ، وتحوّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي عُلِّمَهُ سليمانُ ، وفهمُه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به ، غدوُّها شهر ، ورُواحها شهر ، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفةٍ عين ، وقصة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وإسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن الكريم والصحف السماوية ، ما لا يقبله إلا المؤمن بالغيب ، إيمان من آمن بالله الذي وسعت قدرتُه كلَّ شيء[1].

ذلك لأنَّ الإيمانَ الذي يقومُ على الحسِّ والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيّدُ بالسنن الكونية ، والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواس الخمس ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، إنّما هو إيمانٌ مغلولٌ ، وإيمانٌ محدودٌ مشروط ، لا يصلح للاعتماد إلا في نطاق عالم الشهادة ، ولا يسايرُ الأديان ، ولا يتّفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديق مطلق بعالمي الشهادة والغيب على حد سواء ، وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة ، وتفان في الجهاد والتضحية،

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٤٩) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

ولا يصلحُ في الحقيقة لأنْ يسمّى إيماناً ، إنّما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضلَ فيه ، ولا يختصّ بالدين ، فكلّ عاقلٍ في حياته ، يؤمِنُ بتجاربه ، ونتائج استقرائه ، وما تؤدّي إليه حواسّه ، ويرشد إليه عقله[١] .

وأمّا المؤمنُ بالغيب ، المؤمنُ بقدرة الله المطلقة ، وإرادته الحرة ، المصدّق للرسل في كلِّ ما جاؤوا به ، ونطقوابه ، وأخبروا به عن الله ، فهو في راحةٍ وهدوءٍ ، وانسجامٍ ووئامٍ مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم استراح ، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول ﷺ وعصمته في ما يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢ ـ ٣] ثم آمن واطمأنّ وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، وصحّ به النقل في سهولةٍ ويسرٍ ، كأنّه كان منه على ميعادٍ ، وكان على أتمّ الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرقَ بين النفسيتين ، نفسيةِ المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ﷺ ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد ، **قال تعالى**: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧ ـ ٨].

وذكر نفسية الرجل الذي تعوّد أن لا يؤمنَ ، وأنْ لا يدينَ ، وأن لا يعيشَ إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله الظاهر السطحي ، وشهواته ومصالحه **فقال**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١][٢].

---

(١) قوانين عالم الشهادة لا تصلح إلا لعالم الشهادة ، أما الغيب فسبيله الخبر الصادق عن الله سبحانه (ن).

(٢) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، ص (٥٠).

٥ ـ إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جلّ وعلا:

من سمات دعوة الأنبياء، تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين، وإفراد العبادة لله وحده، وأنّه النافعُ الضارّ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء، والنسك له وحده، وكانت حملتُهم مركزةً موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثّلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقدُ أهل الجاهلية أنّ الله خلعَ عليهم لباسَ الشرف والتألّه، وجعلهم متصرّفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك، يبعث على كلِّ قطر ملكاً، ويقلّده تدبيرَ تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام(١).

وكلُّ مَنْ له صلةٌ بالقرآن ـ وهو الكتابُ المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرفُ اضطراراً وبداهةً أنَّ القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدفَ النبوّة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون، وإليها ينتهون، والقرآن يقول بالإجمال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وتارة يقول بالتفصيل فيسمي نبياً نبياً(٢).

فإخلاصُ الدِّين لله، وإفرادُ العبادةِ له هو الهدفُ الأسمى الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء عليهم السلام، في كلِّ عصرٍ وزمانٍ، وفي كلِّ بيئةٍ ومكانٍ فلم يكن هدفُ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيفَ إلى خالقه العظيم القدير، وأن يصرفوا وجهةَ البشر من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، مصداقاً **لقوله تعالى**: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٣٦).
(٢) المصدر نفسه.

٦ ـ البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء البعدُ عن الأساليب الصناعية ، والتصنع والتكلّف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] تصوير لحالِ جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ﷺ جميعاً.

فهم دائماً يخاطِبون الفطرةَ السليمة ، والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوجٍ ، لا يتوقف فهمُه على ذكاءٍ نادر ، وعلم فائق ، وألمعية بارعة ، ودراسةٍ واسعةٍ للعلوم ، وإحاطةٍ بالمصطلحات العلمية ، ومعرفةِ المنطق والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته ، ويطابِقُ حالَ الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ، ولا يفترضونها ، إنّما كلامهم كالماء الزلال السلسال ، الذي يسيغه كلُّ واحدٍ ، ويحتاج إليه كل واحد[(١)].

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يقيمُ الحجّة القاصمة على خصمه العنيد ، ويقطعُ عليه الطريقَ بأيسر الطرق ، وأظهر البراهين الدامغة ، **قال تعالى:** ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولهذا نجدُ أنّ أنجحَ طريقٍ للدعوة هو سلوكُ سبيل الأنبياء في مخاطبة الفطرة ، والبعد عن التصنّع والمناهج الكلامية[(٢)].

قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضتُ البحرَ الخضّمَ ، وتركتُ أهل الإسلام وعلومَهم ، وخضتُ في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربِّي برحمته ،

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٩٢).

(٢) عقيدة التوحيد ص (٣٣٧).

فالويلُ لفلان ، وها أنا أموتُ على عقيدة أمي (١) .

قال الفخر الرازي :

نهايـةُ إقـدامِ العقـولِ عقـالُ ... وأكثـرُ سَعْـي العـالميـنَ ضَـلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحـاصِـلُ دنيـانـا أذًى ووبـالُ
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنا طولَ عمرنا ... سـوى أنْ جمعنـا فيـه قِيـلَ وقـالـوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتَها ... رجـالٌ ، فمـاتـوا ، والجبـالُ جبـالُ

لقد تأملتُ الطرقَ الكلاميةِ والمناهجَ الفلسفيةِ ، فما رأيتُها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيتُ أقربَ الطرق طريقةَ القرآن ، إقرأ في الإثبات : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، واقرأ في النفي : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] ، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي (٢) .

وقال أبو حامد الغزالي : «**إنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجّة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً ، وما ركبوا ظهرَ اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات ، كلُّ ذلك لعلمهم بأنّ ذلك مثارَ الفتن ، ومنبع التشويش ، ومن لا تقنعه أدلةُ القرآن لا يقمعه إلا السيفُ والسنان ، فما بعد بيانِ الله بيان**»(٣) .

٧ ـ وضوح الهدف والغاية في الدعوة :

ومن سمات دعوة الأنبياء وضوحُ الهدف والغايةِ في الدعوة ، فهم يدعون الناس إلى هدف واضح ، وإلى فكرة بيّنة ، لا لُبْسَ فيها ولا غموض ، استمع إلى **قوله تعالى** مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسالةٍ ربّانية واضحة بينة ، لا غموض فيها ولا خفاء ، ومن مظاهر هذا الوضوح أنّهم قد أُرسلوا في أقوامهم وبلغاتهم ، حتى

---

(١) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (١٥٩) .
(٢) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (١٥٩) .
(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ، للغزالي ص (٨٩ ـ ٩٠) .

يمكن التفاهم معهم ، وإيصال الرسالة إليهم ، وأنّ الدعوة كانت تنزل منجّمة حتى يفهمَ السائلُ ، ويقتنعَ المجادلُ ، ويسهلَ التطبيقُ.

ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أنّ الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداءً ، ويستمرون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه[١].

٨ ـ الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء :

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ، ورعاية طبائع الناس واستعدادهم ، ورعاية المكان الصالح والزمان الصالح ، ونشاط النفوس ، وإقبال القلوب ، ورعاية التدرّج والتيسير ، وهذا ما تقتضيه طبيعة الإسلام السمحة ، وحكمة الله البليغة ، وفِطَرُ الأنبياء الحكيمة ، ونطقت به الآثار ، وشهدت به الحوادث ، وزخر به تاريخ التشريع ، وسيرة الرسول ﷺ.

قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦]. **وقال تعالى :** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢]. **وقال تعالى :** ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]. **وقال تعالى :** ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج : ٧٨].

وقد كان رسول الله ﷺ يأمرُ أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لمّا بعثهما إلى اليمن : «**يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا**»[٢].

وقال ﷺ : «**إنما بعثتم ميسّرين ، ولم تُبْعَثوا معسّرين**»[٣].

وقد كان يرجِئُ تطبيق شيءٍ فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظمُ وأهمُّ منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : «**لولا حداثةُ قومك بالكفرِ لنَقَضْتُ البيتَ ، ثم لبنيتُه على أساسِ إبراهيم عليه السلام**»[٤].

---

(١) دعوة التوحيد.
(٢) صحيح البخاري (٢/ ٦٢٢).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢١٥).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢١٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظةِ في الأيام كراهة السآمة علينا(١).

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذُ بن جبل يصلّي مع النبيِّ ﷺ، ثم يرجع، فيؤمُّ قومه، فصلّى العشاء، فقرأ البقرة، فانصرف رجلٌ، فكان معاذٌ ينالُ منه، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «**فتان فتان**» ثلاث مراراً(٢).

وعن ابن مسعود قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنِّي لأتأخرُ عن الصلاةِ في الفجر ممّا يطيلُ بنا فلانٌ فيها، فغضبَ رسول الله ﷺ، ما رأيته غضبَ في موعظةٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ، ثم قال: «**يا أيها الناس، إنَّ منكم منفِّرين، فَمَنْ أَمَّ منكم الناسَ فليتجوَّزْ، فإنَّ خلفه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ**»(٣).

والنصوص في ذلك والشواهدُ أكثر من أن تُحصى(٤)، وهذا كلّه مستفيضٌ متواتر من سيرته ﷺ، مفروض في سيرة الأنبياء السابقين، للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. **قال تعالى**: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ولكن كلُّ هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعدادِ النفوس، إنّما هو للتعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء.

أمّا ما يفرّق بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام، وحدود الله، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ على اختلاف عصورهم ـ أصلبُ فيه من الحديد، وأثبتُ عليه من الجبالِ، لا يعرفون تنازلاً، ولا يعرفون هوادة، ولا يرضون مساومة(٥).

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٣٥).
(٥) المصدر نفسه.

٩ ـ اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفّل الأنبياءُ صلواتُ الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع، وبالعلمِ الذي لا سعادةَ للإنسان ولا نجاةَ له بغيره، وهو العلمُ الذي يَعْرِفُ به الإنسانُ خالقه، وفاطرَ هذا الكون، ومدبّرَ هذا العالم، وصفاتِه العليّة، والصلةَ التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم، وموقفه من ربّه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يُسخطه، وما يشقي الإنسانَ في الدار الآخرة وما يُسْعِدهُ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها، وما يترتّب على ما يصدرُ منه من قولٍ واعتقادٍ، وعملٍ من الثواب والعقاب، والنتائج البعيدة الطويلة المدى، وهذا هو العلمُ الذي يستحق أن يُسمّى (علم النجاة)[١].

١٠ ـ الإيمان بالآخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامحها وشعائرها التشديدُ على جانب الآخرة، واللهجُ بها، والإشادةُ بذكرها، والتنويهُ بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم، ويشعُرُ كلُّ مَنْ يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوّق كلامهم أنَّ الآخرة دائماً نُصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها، وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيءٌ طبيعي، قد ملك عليهم مشاعرهم، واستولى على فكرهم، وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم، وقد جاشت نفسُه، وفاضت عواطفه، حيث ذكر الآخرة، وتمثل هولها وفزعها **قال تعالى**: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٩١].

والإيمان بالآخرة، وتمثُّل ما فيها من سعادةٍ دائمةٍ، وشقاءٍ دائمٍ، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاءٍ، وللكفّار العصاةِ من عقابٍ، هو الحافزُ الحقيقي إلى دعوتهم، وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم، ويطيّر نومهم،

---

(١) المصدر نفسه.

ويكدِّر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ، ولا يقرُّ لهم قرار ، وهو حافزٌ أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم ممّا يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجِباً لدعوتهم ، وإنذارهم ، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمانُ بالآخرة إلى أتباعهم ، والمؤمنين بهم ، وتجلّى لهم مدى الحياة وتفاهتها ، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها ، وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، قال مؤمن من آل فرعون ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى عليه السلام ، لمّا أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم ، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب في جذوع النخل: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦][(١)].

والأنبياء يبعدون كلَّ البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم ، أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ، ينكرون على الناس حب العلو والاستعلاء والاستيلاء بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي **قال تعالى**: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. إنّما يطمعونهم في رحمة الله ، ويخوفونهم من عذاب الله ، ويجعلون مناط الأمر الثوابَ والجزاءَ في الآخرة ، إنّما يذكرون أنّ هذا الإيمان والطاعة والاستغفار يجلبُ رحمة الله ، ويستدرُّ الرزق ، ويُنزل الأمطار ، ويدفع ما هم فيه من جَدْب وضيق ، فيقول نوح عليه

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٤٤).

السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٢٥]، وهذه طبيعةُ الإيمانِ والاستغفارِ، وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواصّ الأدوية، ونواميسَ الفطرة[١].

١١ ـ دعوة حضارية، لها أسلوبها الخاص في الحياة:

إنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديدٍ خاص، جديرٍ بأن يسمّى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصولٌ ودعائمُ، وعلاماتٌ وشعائرُ، تمتازُ بها عن الحضاراتِ الأخرى، الحضارات التي تُسمّى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً، امتيازاً في الأساس وفي الروح، وفي الأشكال والتفاصيل[٢].

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمامَ هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى، والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة، والقلب السليم، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله، والإنابة والرحمة على بني الإنسان، ورقّة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة **قال تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكان إبراهيم عليه السلام ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان رسول الله ﷺ ـ وهو حفيده ـ مجدّدَ هذه الحضارة ومتممّها، وهو الذي بعث فيها الروحَ، وأفاض عليها الخلودَ، وأرسى قواعدها، وشدّ بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية[٣].

إنّ هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرفُ الوثنيةَ والشركَ، ولا تسمح

---

(١) المصدر نفسه ص (٤٥).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٣).
(٣) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٦٤).

به في لونٍ من الألوان ، وفي أي مكان وزمان ، فكان أكبرُ دعاء إبراهيم وأكبرُ همه ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ، وكان أكبرُ وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

إنها لا تعرِفُ التهالك على الشهوات ، والتكالُبَ على حطام الدنيا ، والتناحُرَ على جِيفَ المادة ، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب ، إنّها دعوةٌ لم تزل عقيدتُها: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

إنّها حضارة لا تعرِفُ الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان ، «**فالناسُ كلهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ألا بالتقوى**» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣][١].

قال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «**دعوها فإنها منتنة**»[٢].

إنّها حضارةٌ **تُعْرَفُ في العقيدةِ** بالتوحيد ، **وفي الاجتماعِ** باحترام الإنسانية ، والمساواةِ بين أفرادها.

وفي **دائرة الأخلاق والمنهج** بتقوى الله ، والحياء والتواضع ، وفي **ميدان الكفاح** بالسعي للآخرة ، والجهاد في سبيل الله ، وفي **ساحة الحرب** بالرحمة والعاطفة الإنسانية ، وفي **أنواع الحكومات** بترجيح جانبِ الهداية على جانبِ الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، **تعرف في التاريخ** بخدمة الإنسانية المخلصة ، وإنقاذها من براثن الجاهلية ، والدعواتِ المضلّة الطاغية ، **وفي العالم** بآثارها الزاهرة الزاهية ، وخيراتها المنتشرة الباقية ، إنها عُجِنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدُها عن الطابع الديني ، واللون الرباني ، والروح الإيماني[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٤١١).

(٢) البخاري رقم (٣٥١٨).

(٣) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص (٦٥).

ثانياً ـ خصائص الأنبياء:

الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام هم صفوةُ البشر وسادتهم ، وهم من بني آدم ، لهم خصائص البشر وصفاتهم ، لا يخرجون عن صفاتهم البشرية ، ولكنّ الله عزّ وجلّ اصطفاهم ، وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس ، وخصّهم لذلك ببعض الخصائص والصفات ، التي لا يشترِكُ معهم بقيةُ البشر فيها ، وهذه الخصائص لا تخرِجُهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل ، **قال تعالى** على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

ومن أهم خصائص الأنبياء:

١ ـ اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]. وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

٢ ـ تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: «**والنبيُّ نائمةٌ عيناه ، ولا ينام قلبُه ، وكذلك الأنبياء تنامُ أعينهم ، ولا تنام قلوبهم**»[(١)].

وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**إنا معاشرَ الأنبياءِ ، تنامُ أعيُننا ، ولا تنامُ قلوبُنا**»[(٢)].

٣ ـ تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِنْ نبيٍّ يمرَضُ إلاّ خُيِّرَ بين الدُّنيا والآخرة**»[(٣)].

---

(١) البخاري رقم (٣٥٧٠).

(٢) البخاري رقم (٣٥٧٠).

(٣) المصدر نفسه رقم (٤٥٨٦).

وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قُبِضَ فيها يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**»[(١)].

٤ ـ يقبر النبيُّ حيثُ يموت:

صحَّ عنه ﷺ قوله: «**لم يُقْبَرْ نبيٌّ إلّا حيثُ يموتُ**»[(٢)]، ولهذا فإنّ الصحابةَ رضي الله عنهم دفنوا الرسول ﷺ في حُجرةِ عائشة رضي الله عنها حيثُ قُبِضَ[(٣)].

٥ ـ لا تأكل الأرض أجسادَهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله حرّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء**»[(٤)].

٦ ـ أحياءٌ في قبورهم:

صحَّ عنه ﷺ أنّه قال: «**الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلّون**»[(٥)].

كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مررتُ على موسى ليلةَ أُسرِيَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يصلّي في قبره**»[(٦)].

أمّا عن كيفية هذه الحياة، فهذا أمرٌ غيبي، لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صحّ عن رسول الله ﷺ فيجبُ الإيمانُ من غيرِ تكييفٍ، ولكنْ مع إيماننا بأنَّها حياةٌ برزخيةٌ ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوزُ سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدّدِ منهم، فإنّهم لا ينفعون ولا يضرون، **قال تعالى**: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦].

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز الجليل (٣/ ٣٣).

(٢) صحيح الجامع رقم (٥٢٠١).

(٣) وقفات تربوية (٣/ ٣٤).

(٤) صحيح أبي داود، للألباني رقم (٩٢٥).

(٥) السلسلة الصحيحة رقم (٦٢١).

(٦) مسلم رقم (٢٣٧٥).

٧ ـ لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُوْرَثُ ، وما تركتُ بعدَ مؤنةِ عاملي ونفقةِ نسائي صدقة**»[(١)].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «إنا معشر الأنبياء» وإنما هي بلفظ «**لا نُوْرَثُ ما تركنا صدقةٌ**»[(٢)].

٨ ـ إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عزّ وجل أنبياءَه ورسله ، وخصّهم بمزيد عنايةٍ وتوفيقٍ وأخلاقٍ عاليةٍ ، لم تكتمل لغيرهم من البشر ، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم ، وسياسة الشعوب ، فخصّهم الله بأخلاقٍ ساميةٍ ، وآدابٍ عاليةٍ ، وحكمةٍ بالغةٍ ، وعزائمَ ، وعقيدةٍ صحيحة.

ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه السلام ، وتهيئته للرسالة قبل إرساله ، وتأييده له بعدها ، حيث **يقول عز وجل**: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

فحياةُ موسى عليه السلام كلُّها عظاتٌ ، وآياتٌ بينات على سنته تعالى في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

* أنّ الله سبحانه جعل نجاته ممّا أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناسُ دماراً ، وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٧ ـ ٨].

* أن الله سبحانه كتبَ لموسى حياةً سعيدةً في بيتِ مَنْ يُخشى عليه منهم ، فعاشَ بين أظهرهم عيشةَ الملوك ، **قال تعالى**: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

---

(١) رواه النسائي في الكبرى رقم (٦٣٠٩) مسند أحمد (٩٩٧٣) إسناده صحيح.

(٢) البخاري رقم (٦٧٣٠) مسلم رقم (١٧٥٧).

* أنّ الله حرّمَ عليه تحريماً كونياً أن يَرْضَعَ من امرأةٍ سوى أمه ، فكان ذلك فيما يرى الناسُ بلاءً أحاط به ، وهو في نفس الأمر لطفٌ من الله ورحمة بموسى ليرجِعَه إلى أمه ، وهم لا يشعرون ، فاجتمعت له السلامةُ والنجاةُ ، وعطفُ الأمهات ، وعزُّ الملوك ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٢ ـ ١٣].

وهنـاك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمّنت الكثيرَ مما حباه الله به من العلم والحكمة ، والمروءة والنجدة ، ونصر المظلوم ، والأخذ على يد الظالم ، والعطف على الضعيف ، وقوة الإيمـان بالله ، والصدق في الالتجـاء إلـيـه ، والتوكل عليـه ، والـتـواضع مع عزّة الـنفس ، وغير ذلك مكـارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها مَنْ يختارُه للرسالة ، وقيادة الأمم ، **وتلخيص ذلك فيما يلي:**

* حفظ الله على موسى صفاءَ روحِهِ ، وسلامةَ فطرته ، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان ، لم يتأثّر بما يتأثّر به مَنْ قضى الأيام الأولى من حياته في بيئةٍ استشرى فيها الفسادُ ، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد ، ولم يصبه ما يصاب به أبناء الوجهاء ، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً: من الجهل والاستهتار ، أو الرخاوة والخلاعة والمجون ، بل صانه الله عن كلِّ ما يشينه ، وآتاه العلم النافع ، والحكمة البالغة ، وسداد الرأي ، كما حفظ عليه نعمته من قبلُ في بدنه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

* جبل الله نبيه موسى عليه السلام على الحزم ، والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم ، فيتجلّى ذلك من الخصومة التي كانت بين رجل من بني إسرائيل وآخر مصري ، وإنصافه للمظلوم.

كما طبعه الله على الرفق بالضعيف ، والعطف عليه ، ومدّ يدِ المعونة إليه ، يتبيّن ذلك فيما كان منه من النجدة حينما وردَ ماءَ مدين ، فوجد عليه أُمّةً من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدرَ الرِّعاء وأبونا شيخ شيخ كبير ، فسقى لهما ، فجمع له بين

شدة البطش بالظالمين ، وكمال الرفق بالمستضعفين .

* كان من آثار عناية الله بموسى عليه السلام ورعايته له أن قوّى فيه الوعيَ الدينيَّ ، واستحكمت فيه الصلةُ بينه وبين ربِّه ، فأحبَّ ما يحبه الله من العدل والإنصاف ، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان ، لذلك فزع إلى ربه ، واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى المصري نحبَه من وكزته ، وأسرع في الأوبة إليه مِنْ ذنبه ، فغفر الله له ، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، شكراً لله على نعمته ، ووفاء له بما غفر من ذنبه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦ ـ ١٧] .

* فاض قلبُه إيماناً بالله ، وعظمت ثقته به ، وتوكله عليه ، فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاءَ أن يهديه سواء السبيل ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] .

ولما اشتدّت به الحاجةُ ، وأخذ منه الجوعُ مأخذه توجّه إلى ربه ، وسأله من فضله ، وأبت عليه عزّةُ نفسه أن يشكوَ حاجته لغير ربه ، أو يُعرِّض لمن سقى لهما بطلب الأجر ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] .

وقد استجاب الله دعاءه ، وهيأ له بيئةً صالحةً يحيا فيها حياةً طيبةً ، فقد عرض عليه الرجل الصالح ـ لما عرف عنه من القوة والأمانة ـ أن يزوّجَه إحدى ابنتيه ، على أن يرعى له الغنم ثمانيَ حجج ، فإنْ أتمَّ عشراً كان ذلك مكرمة منه ، فالتزم موسى بذلك ، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكلُ ويتزوَّجُ من كسب يده ، وأشهد ربَّه على ذلك ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] وقد ثبت أنّه أتمَّ أبعدَ الأجلين ، فدل على أنه طُبعَ على حبِّ الخير ، وفعلِ المعروف[١] .

* * *

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٧٨ ـ ٨٠ ، عبد الرزاق عفيفي ، وقفات تربوية (٣/ ٤٠).

الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم عليهم الصلاة والسلام

أولاً ـ هديهم في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد .

ثانياً ـ هديهم في السلوك والأخلاق .

ثالثاً ـ التعرض للأذى والصدّ عن سبيل الله عز وجل من قبل الأعداء وأنصار الباطل .

رابعاً ـ التدرج في الدعوة ، ومراعاة المصالح والمفاسد .

خامساً ـ مراعاة السنن الربانية .

سادساً ـ أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء .

سابعاً ـ تفاضل الأنبياء .

* * *

الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم عليهم الصلاة والسلام

أولاً ـ هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان ، وكمال التوحيد:

إنّ أعلمَ الناس بالله عزّ وجلّ هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وهذا العلمُ به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق ، والتوحيدَ الكامل لله عز وجل ، لأنّه كلّما كان العبدُ أعلمَ وأعرفَ بربه سبحانه كان أشدَّ خوفاً وتعظيماً وعبادةً ومحبة وإخلاصاً ، وإن ممّا اختص الله سبحانه به رسله ، ومَنَّ عليهم به هو تكميلُ هذا العلم النفيس في نفوسهم ، والذي هو أشرفُ العلومِ وأزكاها .

ومن الأدلة على شرف هذا العلم ، وأنّ أولى الناس به هم الأنبياءُ والرسلُ[(١)] ما يلي :

قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] .

وقوله تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] .

وقوله تعالى عن قول يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦] وذلك بعد أن جاءَ البشير بقميص يوسف عليه

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ٥٣).

السلام ، فارتدّ البصرُ إلى يعقوب عليه السلام ، وأخبرهم أنّه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفعُ عنه اليأسَ ، ويثمِرُ الرجاءَ ، وهذا الأثرُ العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عزّ وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] ، أي وأعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمونه ، فأعلمُ من صفاتِ اللهِ وقدرته الباهرةِ ، وبطشه بأعدائه ما جهلتم ، وأعلم أنَّ العاقبة للمتقين ، وأن بأسه لا يُـرَدُّ عن القوم المجرمين(١).

وقوله تعالى عن مقالة نوح عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

وقوله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وقوله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقوله ﷺ عن نفسِه عندما تنزّه بعضُ الصحابة عن شيء رخّص فيه الرسول ﷺ ، فبلغه ذلك فخطبَ ، فحمِدَ الله ، ثم قال: «**ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعهُ ، فوالله إنّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشيةً**»(٢).

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ٥٤).

(٢) البخاري رقم (٦١٠١) ، مسلم رقم (٢٣٥٦).

والعلم بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا له آثارٌ إيمانية مباركة منها:

١ ـ شدة تعظيمهم لله عزّ وجل وخوفهم منه:

مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء شدةُ تعظيمهم لله عز وجل، وخوفهم منه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أ ـ مناجاة نوح عليه السلام لربّه بشأن ابنه:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

ويظهر من هذه الآيات علمُ نوح عليه السلام بربه عزّ وجلّ، والذي أثمر عنده هذا الأدبَ العظيم مع ربِّه، والخوف منه سبحانه، فتراه وهو يدعو ربّه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختمُ دعاءَه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه السلام بأسماء الله عزّ وجلّ وصفاته وآثارها، لأنّ المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة، التي اقتضت أن يكون ابنُ نوح مع الهالكين، ولم يكن مع الناجين، ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه، واتهامه لنفسه بالظلم، وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الله أكبرُ! هذا نوحٌ عليه السلام الذي أمضى تسعمئة وخمسين عاماً في دعوة قومه، وصبر وصابر، وناله من الأذى والاستهزاء الشيءَ العظيم، ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربّه سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨][1].

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ٥٧).

ب ـ محاجّة شعيب عليه السلام لقومه ، وردّه عليهم عندما خيّروه بين الخروج من قريتهم ، أو العودة في ملتهم:

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

أي: يمتنعُ عن مثلنا أن نعودَ فيها ، فإن هذا من المحال ، فآيسهم عليه السلام من أن يوافقهم من وجوهٍ متعددة:

من جهة أنّه هو ومن معه كارهون لملّتهم ، مبغضون ما هم عليه من الشرك.

ومن جهة ثانية جعل ما هم عليه كذباً ، وأشهدهم أنّه إن اتبعهم وهو من معه فإنّهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنّةِ الله عليهم ، إذ أنقذهم الله منها.

ومنها أنّ عودتهم في ملّتهم بعد أن هداهم الله ـ من المحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له بالعبودية ، وأنّـه الإله وحده ، الذي لا تنبغي العبادةُ إلاّ له وحده ، لا شريك له ، وأنَّ آلهةَ المشركين أبطلُ الباطل ، وأمحلُ المحال ، لأنّ الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق من الباطل ، والهدى من الضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة في خلقه ، التي لا خروجَ لأحدٍ عليها ، ولو تواترت الأسباب ، وتوافقت القوى ، فإنّهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه ، ولهذا استثنى ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ** ﴾ ، أي: فلا يمكننا ولا غيرُنا الخروج على مشيئته التابعة لحكمه وحكمته ، **قال تعالى:** ﴿ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ** ﴾ ، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه[(١)].

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ٦٠) ، تفسير السعدي عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

ونلاحظ في الآيات الكريمة: أنَّ شعيباً بقدر ما يرفعُ رأسَه، وبقدر ما يرفع صوتَه في مواجهةِ طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه، بقدر ما يخفِضُ هامته، ويسلّم وجهه في مواجهة ربه الجليل، الذي وسع كل شيء علماً، فهو في مواجهة ربه، لا يتألّى عليه، ولا يجزمُ بشيءٍ أمامَ قدره، ويدع له قيادة زمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾، إنّه يفوّض الأمرَ لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه، إنّه يملك رفضَ ما يَفْرِضُه عليه الطواغيتُ من العودةِ في ملّتهم، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة، ويعلن الاستنكارَ المطلقَ للمبدأ ذاته، ولكنّه لا يجزمُ بشيءٍ عن مشيئة الله به وبهم، فالأمرُ موكولٌ إلى هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربّهم وسعَ كل شيء علماً، فإلى علمه ومشيئته تفويضُه واستسلامُه.

إنّه أدبُ وليِّ الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألّى بعد ذلك على مشيئته وقدره، ولا يتأبّى على شيء يريدُه به، ويقدّره عليه.

وهنا يدع شعيبُ طواغيتَ قومه وتهديدَهم ووعيدهم، ويتّجه إلى وليه بالتوكل الواثق يدعوه أن يفصلَ بينه وبين قومه بالحق ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾(١).

ج ـ تعظيم موسى عليه السلام لربه وخوفه منه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي **قوله تعالى**: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ إذا تجلّى الله له ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ الأصمّ الغليظ ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: انهال مثل

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

الرمل ، انزعاجاً من رؤية الله ، وعدم ثبوته لها ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ ﴾ حيث رأى ما رأى ﴿ صَعِقًا ﴾ أي: مغشياً عليه ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ تبيّن له حينئذٍ أنّه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى أولى أن لا يثبتَ لذلك ، فاستغفرَ ربَّه لما صدرَ منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً ، لذلك ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ أي: تنزيهاً لك ، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من جميع الذنوب ، وسوءِ الأدبِ معك ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي جدد عليه السلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك(١).

د ـ تعظيم عيسى عليه السلام لربه سبحانه ، وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عن سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١٢٠].

وفي هذه الآيات الكريمة من المعاني الشريفة اللطيفة ما يحتاجُ إلى تأمل وتدبر ، ففي ردّ عيسى عليه السلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربّه عزّ وجلّ ما يدلُّ على معرفته لخالقه الكريم.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله ، وخطابهم وسؤالهم ، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟.

قال المسيح عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ ولم يقل: لم أقله ،

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

وفَرْقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمرَ على علمه سبحانه بالحال وسره ، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ ، ثم برّأ نفسَه عن علمه بغيب ربه ، وما يختصّ به سبحانه ، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ثم أثنى على ربه ، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها ، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ثم نفى أن يكونَ قال لهم غير ما أمره ربُّه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ، ثم أخبرَ عن شهادته عليهم مدّةَ مقامه فيهم ، وأنّه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأنّ الله عزّ وجلّ وحدَه هو المتفرّدُ بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ثم وصفه بأنّ شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعظم ، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام ، أي شأن السيد رحمةُ عبيده ، والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك ، فإذا عذّبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فهذا عدلك ، فلولا أنهم عبيدُ سوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم تعذبهم ، لأنّ قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته ، فلماذا يعذّب أرحمُ الراحمين؛ وأجودُ الأجودين؛ وأعظمُ المحسنين: عبيدَه لولا فرط عتوّهم وإبائهم عن طاعته ، وكمال استحقاقهم العذاب ، ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، ولم يقل: الغفور الرحيم ، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى ، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلى النار ، فليس المقام مقام استعطافٍ ولا شفاعةٍ ، بل مقامِ براءة منهم. فلو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدّ غضبه عليهم ، فالمقامُ مقامُ موافقةٍ للربِّ في غضبه على مَنْ غضب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يُسألُ بهما عطفه ورحمته ومغفرته ، إلى ذكر العزّةِ والحكمة المتضمنتين لكمالِ القدرةِ وكمالِ العلم.

والمعنى: إن غفرتَ لهم فمغفرتُك تكونُ عَنْ كمالِ القدرة والعلم ، وليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم ، وهذا لأن العبد قد يغفِرُ لغيره لعجزٍ عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمالُ: هو مغفرةُ القادر العالم ، وهو العزيزُ الحكيم ، وكان ذكر هاتين

الصفتين في هذا المقام عينُ الأدبِ في الخطاب[(١)].

هـ ـ تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه :

فقد قال رسول الله ﷺ: «**فوالله إنِّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشية**»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفتِ الريحُ قال: «**اللهم إنِّي أسألُكَ خَيْرَها ، وخَيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أرسلتْ به ، وأعوذُ بكَ من شرِّها ، وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ به**».

قالت: وإذا تخيّلت السماءُ تغيّرَ لونه ، وخرجَ ، ودخلَ وأقبل وأدبرَ ، فإذا أمطرت سُرِّي عنه ، فعرفت ذلك عائشة ، فسألته فقال: «**لعلّه يا عائشة**» فسألته فقال؛ «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(٤)].

٢ ـ كثرة ذكرهم لله عز وجل ، وشدة تضرّعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم :

ومن هذه النماذج ما يلي :

أ ـ تضرّعهم إلى الله وسؤاله قضاء حوائجهم :

قال تعالى : ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

---

(١) مدارج السالكين ، لابن القيم (٢/ ٣٧٨ ، ٣٧٩).

(٢) البخاري رقم (٦١٠١) ، مسلم رقم (٢٣٥٦).

(٣) البخاري رقم (٦٤٨٦).

(٤) وقفات تربوية (٣/ ٦٧).

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٩٠].

فقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملّق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنّه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدّة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلَى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه(١) .

وفي **قوله تعالى**: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ، أي: إنّ في صبرِ أيوب عليه السلام ودعائه عبرةً للعابدين من بعده ، ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه ، وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل ، وإدريس ، وذا الكفل ، وأنهم من الصابرين ، وأنّ الله عزّ وجلّ جازاهم بأنْ أدخلهم في الصالحين(٢) .

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر ، فدلَّ على أنّهم وفّوها حقها ، وقاموا بها كما ينبغي ، ووصفهم أيضاً بالصلاح ، وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته(٣) ، والإنابة إليه كل وقت ، وصلاح اللسان ، بأن يكون رطباً من ذكر الله ، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله ، وكفِّها عن المعاصي ، فبصبرِهم وصلاحِهم أدخلهم الله في رحمته ، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين ، وأثابهم الثوابَ العاجِلَ والآجل ، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوَّه بذكرهم في العالمين ، وجعل لهم لسانَ صدقٍ في الآخرين ، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً(٤) .

وفي **قوله تعالى**: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، قال ابن القيم: فإنّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه

---

(١) بدائع التفسير ، لابن القيم (٣/ ١٨٩).
(٢) وقفات تربوية (٣/ ٧٠).
(٣) تفسير السعدي (٣/ ٢٩٥).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٢٩٥).

للربّ تعالى ، واعترافِ العبد بظلمه وذنبه ، ما هو من أبلغ أدوية الكربِ والهمِّ والغمِّ ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإنَّ التوحيدَ والتنزيه يتضمنان إثباتَ كلِّ كمال لله ، وسلبَ كل نقصٍ وعيبٍ ، والاعترافُ بالظلم يتضمّنُ إيمانَ العبد بالشرع والثوابِ والعقابِ ، ويوجِبُ انكساره ، ورجوعه إلى الله ، وإقالة عثرته ، والاعتراف بعبوديته ، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسل بها : **التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف**[١] .

وقد وصف الله سبحانه : نبيّه يونس عليه السلام بأنّه كان من المسبّحين في وقت الرخاء ، **فقال تعالى**: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]. وفي **قوله تعالى**: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه ، وتسبيحه ، وتحميده وفي بطن الحوت[٢] .

هذا هو أدبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عزّ وجلّ وتسبيحهم في الرخاء والشدة ، وفي كلِّ حينٍ ، مع دعائهم لربهم ، واعترافهم بظلمهم لأنفسهم .

ويبقى في الآيات السابقة وصفُ زكريا ويحيى عليهما السلام **بقوله تعالى**: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وفي قوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي: يبادرون إليها ، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ، ويكمّلونها على الوجهِ اللائق الذي ينبغي ، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصةَ فيها ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ ﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوبَ فيها من مصالح الدنيا والآخرة ، ويتعوّذون بنا من الأمور المرهوبِ منها من مضارّ الدارين ، وهم راغبون لا غافلون راهبون. و﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ أي: خاضعين متذلّلين ، متضرّعين ، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[٣] .

---

(١) بدائع التفسير ، (٣/ ١٩٠).
(٢) تفسير السعدي (٤/ ٢٧٢).
(٣) تفسير السعدي (٣/ ٢٩٧) وقفات تربوية (٣/ ٧٣).

هذه صلة الأنبياء بربهم: ذكر، وتسبيح ودعاء[(١)].

ب ـ خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعةً من الأنبياء في سورة مريم، أثنى عليهم **بقوله تعالى**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: ٥٨].

فهذه خيرُ بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان لهم عند تلاوةِ آيات الرحمن عليهم المتضمّنة للأخبارِ بالغيوب، وصفات علام الغيوبِ، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد. ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة ما أوجبَ لهم البكاءَ والإنابة والسجودَ لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ وفي إضافة الآيات إلى اسمه (الرحمن) دلالةٌ على أنَّ آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحقِّ، وبصّرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالةِ، وعلّمهم من الجهالة[(٢)].

ج ـ دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربّهم بالثبات على الحق، والموت على التوحيد والإسلام:

من ذلك **قول الله تعالى** عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. **وقوله تعالى** عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]. **وقوله تعالى** عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا...﴾ [الممتحنة: ٥].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما أخذت قومَه الرجفةُ قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦].

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٧٣).

(٢) تفسير السعدي (٣/ ٢٠٩).

وقوله تعالى: عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ومن دعاء يوسف عليه السلام: ينبغي للعبد أن يتضرّعَ إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة، ويتوسَّلُ بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يتمّها عليه، ويحسن له العاقبة، وليس هذا من (يوسف) تمنياً للموت ـ كما ظنَّ بعضُهم ـ بل هو دعاءُ اللهِ أن يُحْسِنَ خاتمته، ويتوفّاه على الإسلام. كما يسأل العبدُ ربَّه ذلك كلَّ وقت(١).

وقد جمعت هذه الدعوةُ الإقرارَ إليه، والبراءةَ من موالاةِ غيرِ الله سبحانه، وكون الوفاةِ على الإسلام أجلُّ غايات العبدِ، وأنّ ذلك بيدِ الله، لا بيدِ العبدِ، والاعترافِ بالمعاد، وطلبِ مرافقة السعداء(٢).

د ـ القوة في طاعة الله وعبادته:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

ومعنى ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قال: أولو القوّة في العبادة، والعلم بأمرِ اللهِ. وروي عن قتادة قال: أُعطُوا قوةً في العبادةِ، وبَصَراً في الدّين(٣).

والشواهد في ذكر عبادةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرةٌ منها:

قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٥٢) وقفات تربوية (٣/ ٧٥).
(٢) بدائع التفسير (٢/ ٤٧٦).
(٣) مجموع الفتاوي (١٩/ ١٧٠) وقفات تربوية (٣/ ٧٧).

وقوله تعالى في مدح إسماعيلَ عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وقوله تعالى في مدح إسحاق ويعقوب عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقوله تعالى: في وصف عبادة داود عليه السلام وإنابته، وكثرة تسبيحه وخشوعه حتى إنّ الجبالَ والطيرَ تردِّدُ معه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

ووصف نوبته بقوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقد وصف لنا الرسولُ ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه السلام، وقوّته فيها، فقال: «**أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داودَ، وأحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثه، وينامُ سدسَه، وكانَ يصومُ يوماً، ويفطِرُ يوماً، ولا يفرُّ إذا لاقى**»[1].

وأمّا عن نبينا محمد ﷺ وكثرةِ عبادتِه، وقوّته فيها، فهي كثيرةٌ جداً، ولا غرابةَ في ذلك، فهو الذي امتلأ قلبُه معرفةً بربّه سبحانه، وحبّاً وتعظيماً له، وهو الذي **قال له ربُّه عزّ وجلّ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٤].

وهو الذي **قال له ربه عز وجل**: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]. وقال له: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ومن أحواله ﷺ في عبادته وقوته فيها:

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: صلّيتُ مع النبيّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فافتتحَ البقرةَ، فقلتُ: يركَعُ عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ يصلّي بها في الركعةِ،

---

(١) البخاري رقم (١١٣١) وقفات تربوية (٣/٧٨).

فمضى ، فقلت: يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مسترسلاً ، إذا مرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبّحَ ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل ، وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ ، ثم ركع ، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**» فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**» زاد في روايةٍ: «**ربنا لك الحمد**» ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجدَ فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجودُه قريباً من قيامه[(١)].

* وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبيُّ ﷺ حتى تورّمت قدماه ، فقيل له: قد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدّمَ من ذنبك وما تأخر ، قال: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟!**»[(٢)].

٣ ـ كمال التوكل على الله:

وإليك شيئاً من الأمثلةِ:

قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام في محاجته لقومه: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

ولمّا علم نبيُّ الله هود عليه السلام أنّ ربّه على صراطٍ مستقيمٍ في خَلْقه ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة ، والرحمة والإحسان والفضل ، ووضع الثواب موضعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان ، والعطاء والمنع ، والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمالَ الحمدِ والثناء: أوجبَ له ذلك العلمَ والعرفانَ ، إذ

---

(١) مسلم رقم (٧٧٢).

(٢) البخاري رقم (٤٨٣٦) ومسلم رقم (٢٨١٩).

نادى على رؤوس الملأ في قومه بجنانٍ ثابتٍ ، وقلبٍ خائفٍ بل متجرّد لله : ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

فكيف أخافُ مَنْ ناصيتُه بيد غيره ، وهو في قهره وقبضته ، وتحت قهرِه وسلطانه ، وهل هذا إلا مِنْ أجهلِ الجهل وأقبحِ الظلمِ؟!(١).

ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه السلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر. **قال تعالى**: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٣].

وما قصه علينا عن محمد ﷺ وهو في غار ثور **قال تعالى**: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

٤ ـ حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات من ثمار التوكّل الصادقِ ، الذي ينبعُ من العلم بالله عز وجل ، ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها.

قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٦].

حقاً إنّ هذا لهو البلاءُ المبين ، والامتحانُ العظيم ، للثقة بالله عز وجل ، والرضى بحكمه ، والاستسلام لأمره ، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله:

---

(١) بدائع التفسير (١/ ٤٣١ ، ٤٣٢) وقفات تربوية (٣/ ٨٢).

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي أسلم الوالدُ والولدُ لأمر الله عز وجل وحكمه.

الله أكبر ما أعظمَ هذه النفوس، وأنبلَها وأطهرَها، وأعظمَ إيمانها بالله وتوحيده؟!(١).

ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار، **قال تعالى**: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

روى البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمّدٌ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣](٢).

ما قصّه الله عزّ وجل في سورة يوسف عن يعقوب عليه السلام، وحسن ظنه بالله عز وجل، والرضا بحكمه النابع من صدقه وتوكله، وثقته بربه سبحانه، **قال تعالى** في وصف رجائه، وحسن ظنه بربه سبحانه، بعد ما فقد ابنَه الثاني، وقبله كان قد فقد يوسفَ عليه السلام: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٣ ـ ٨٧].

وإنّ هذا الرجاءَ العظيمَ من يعقوب عليه السلام في ربّه عز وجل، وحسن ظنه به، واستسلامه لحكمه ليظهرَ من قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣] وقد توسّل عليه السلام إلى ربه باسمه (العليم) و(الحكيم) وذلك لعلم يعقوب عليه السلام بربه، وعلمه بأسمائه وصفاته، ودلالاتها وآثارها، فكأنّه يقول: إنه هو (العليم) بحالي في الحزن والأسف

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ٨٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٨) البخاري رقم (٤٥٦٣).

(الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ.

وكذلك يتَّضحُ هذا الرجاءُ في الله عز وجل وعدم اليأسِ من رحمته من قوله: ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾؟

٥ ـ الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترى حياتَهم كلَّها قائمةً على الاستعانة بالله وحده، والاعتصام به سبحانه، وأنّهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدّهم الله به من توفيقه وعزّته عز وجل وهذه الصفةُ بارزةٌ في هديهم جميعاً، نكتفي منها بما يلي:

قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه، وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥].

وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام عندما تعرّض لفتنة النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤][1].

---

(١) وقفات تربوية (٩٦/٣).

ثانياً ـ هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق:

لقد خصّ الله عزّ وجلّ أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك ، فجاءوا قدوات لمن بعدهم ، يُهتدَى بأخلاقهم ، ويقتدى بسلوكهم ، كما كان الشأنُ في توحيدهم وإيمانهم ، ومعرفتهم بربهم ، ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية ، وصفات نبيلة ، فما هي إلا من آثار التصوّر الصحيح ، والإيمان العظيم ، فالارتباطُ بين المعتقَد والسلوك ارتباطٌ قوي ، وبينهما تناسَبٌ طردي ، تشهدُ له الأدلة والتجارب ، فكلّما صحَّ الاعتقاد وكان سليماً ، فإنّ الأخلاق تعلو وتنمو ، وتشرقُ ، والعكس بالعكس.

وحسبنا أن نستعرضَ بعض هذه الأخلاق الرفيعة ، لتدلُّنا على بقيتها ، لعلَّ القلوبَ ترقُّ ، والعزائمُ تستيقظ ، لتلحق بهذه الصفوة المباركة ، فتهتدي بأخلاقهم ، وتسير بسلوكهم ، وخاصة في مثل زماننا المعاصر ، الذي يشهد أزمةَ أخلاق ، وسوء ممارسات في التعامل بين الناس ، فإن كنّا محبين للأنبياء حقيقةً فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[١] .

ومن هذه الأخلاق ما يلي :

١ ـ خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل :

قال تعالى عن دعوة نوح عليه السلام لقومه : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

فنوحٌ عليه السلام خوّفهم إنْ لم يطيعوه عذابَ الله ، فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ .

وهذا من نصحه عليه السلام لهم ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي ، كإخوانه من المرسلين ، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم[٢] .

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٩٧).
(٢) وقفات تربوية (٣/ ٩٧).

وهذا التخوفُ على الناس من عذاب الله عز وجل كان عندَ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك **قول الله تعالى** عن شعيب عليه السلام يحذر قومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقد وصف الله عزّ وجلّ نبيه محمد ﷺ **بقوله** : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢ ـ النصح للناس :

قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢].

وقوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨].

وقوله تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بعد هلاك قومه : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقوله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام بعد هلاك قومه : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ولقد بلغ النصحُ والشفقةُ على الناس من نبينا محمد ﷺ حتى كادَ هذا الأمرُ أن يهلكَه ، فخاطبه **الله عز وجل قائلاً** : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم نصحاً لهم ، وشفقة عليهم(١).

ومن هذا الباب ، أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٢٢) ، وقفات تربوية (٣/ ٩٩).

لأبيه ، والتي كانت كلّها نصحٌ وشفقةٌ ورحمةٌ مع أدبٍ جمٍّ ، وحلم وتلطف ، من الابن النبي إلى أبيه الكافر :

قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٧] .

ومع أنّ الأبَ الشقيَّ ردَّ نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهدّده ، وتوعّده بالرجم ، وطالبه بالهجر والمقاطعة ، إلاّ أنّ الابنِ البار الخائف على أبيه من عذاب يمسّه من قبل الرحمن قال : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ فلما أيس من إيمانه ، تبرأ منه ، واعتزله ، وترك الاستغفار له ، ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاوِلُ الشفاعة فيه يوم القيامة ، ولكن حقّت كلمةُ العذابِ على الكافرين[١] .

ومن ذلك **قوله تعالى** عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم : ٥٥] .

أي وكان مقيماً لأمر الله على أهله ، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة الإخلاص للمعبود ، وبالزكاة المتضمنة الإحسان إلى العبيد ، فكمّل نفسه ، وكمّل غيره ، وخصوصاً أخصّ الناس عنده ، وهم أهله ، لأنهم أحقّ بدعوته من غيرهم[٢] .

٣ ـ الصبر :

الصبر من الأخلاق الأساسية في الإمامة في الدين :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ١٠٠) .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٠٠) .

وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه السلام بعد تلك الابتلاءات المتنوّعة، والتي ثبّته الله عز وجل فيها، وتجاوزها بنجاح: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم، وخشيتهم من الله سبحانه كثيرةٌ لا يتّسع المقام لذكرها، وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه، أنّ مِنْ أهمِّ أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم أخذُ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك، وإرجاع الناس إلى عبادة الله عز وجل، وذلك حتى يقتديَ بصبرهم مَنْ جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين، فيثبتوا ولا يضعفوا، ويستبشروا ولا ييأسوا، **قال تعالى**: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهذا **إبراهيم عليه الصلاة والسلام** تعرّض لمحنٍ عظيمةٍ فصبر لها صبرَ الموحّدِ لربّه، الموفي لوعده، ذلك حين ألقي في النار، وحين أُمِرَ بذبح ابنه، وفلذة كبده، وحين أُمِرَ بتركه بوادٍ غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

وهذا موسى عليه السلام وما واجه من الأذى والتهديد من فرعون وملأه، ثم ما واجه من الأذى والتعنت من قومه بني إسرائيل، حتى إنّ الرسول ﷺ قال عن موسى عليه السلام: «**يرحمُ اللهُ موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[(١)].

وهذا **عيسى عليه السلام** جاءه من الأذى والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتى تآمروا على قتله وصلبه، فصبر على ذلك كله، ولكنّ الله عزّ وجل رفعه إليه[(٢)].

---

(١) وقفات تربوية (٣/١٠٧).

(٢) وقفات تربوية (٣/١٠٨)، البخاري رقم (٦١٠٠).

والأنبياء والمرسلون يتفاوتون في الصبر، فبالرغم من الصبر العظيم من يوسف عليه السلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوى، فقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعله الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه، وإظهار آياته، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومجاهدة المكذّبين لهم، والصبر على أذاهم، هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسفُ عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظمُ من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خَصّهم الله بالذكر في **قوله تعالى**: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] **وقوله تعالى**: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ...﴾ **[الشورى: ١٣]**، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة(١).

وفي قصة يوسف عليه السلام من جوانب الصبر العظيمة ما يدلنا على ما هو أعظمُ صبراً من يوسف عليه السلام، ففي قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. **عبرتان**:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلبُ سؤال الله ودعائه أن يثبّتَ القلبَ على دينه، ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلبُ صبا إلى الآمرينَ بالذنوبِ، وصار من الجاهلين، ففي هذا توكل على الله، واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان به والطاعة.

وهذا كقول **موسى عليه السلام** لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. لما قال فرعون:

---

(١) وقفات تربوية.

﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وكذلك **قوله تعالى**: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

فلا بدّ من التقوى بفعل المأمور، والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه السلام: اتقى الله بالعفّة على الفاحشة، وصبر على أذاهنّ له بالمراودة والحبس، واستعان بالله ودعاه، حتى يثبته على العفّة، فتوكّل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس، ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أنّ ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً.

فيوسفُ خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثرَ الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنّه لو وافق امرأة العزيز لنال الشهوة وأكرمته بالمال والرئاسة، فاختار يوسف الذلَّ والحبسَ وتركَ الشهوة والخروجَ من المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق وإن آذاه بالحبس والكذب، فإنّها كذبت عليه، فزعمتْ أنّه راودها، ثم حبسته[1].

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء أخوته له في الجُبِّ وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإنّ هذه أمورٌ جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، وليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأمّا صبره عن المعصية، فصبرُ اختيارٍ ورضًى، ومحاربةٍ للنفس، ولا سيّما مع الأسباب

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٠ ـ ١٣٥) باختصار.

التي تقوى معها دواعي الموافقة ، فإنّه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية ، وعزباً ليس له ما يعوّضه ، ويردّ شهوته ، وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلدِ غربته مما يستحي منه مَنْ هو بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس له وازعٌ كوازع الحرِّ ، والمرأة جميلةٌ ، وذاتُ منصب وجمالٍ ، وهي سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص ، ومع ذلك توعّدته إن لم يفعل بالسجن والصَّغار ، ومع هذه الدواعي كلِّها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه(١)؟! .

وكذلك كان **صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى** عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم من الله ، باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم ـ أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً في فعله ، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على تنفيذ أمر الله أكملُ من صبر يعقوب على فقد يوسف(٢) .

هذا هو صبرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهذه هي تضحياتهم .

وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم ، وأن ننتفع به كما انتفعوا ، فلابدّ في هذا الصبر من شروطٍ ثلاثٍ :

أ ـ أن يكون الصبر بالله ، والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر ، وأنَّ صبرَ العبد بربه لا بنفسه ، كما **قال تعالى** : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ . . . ﴾ [النحل : ١٢٧] .

ب ـ أن يكون لله ، وهو أن يكون الباعثُ له على الصبر محبة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرب إليه ، لا لإظهار قوة النفس ، والاستحماد إلى الخلق ، وغير ذلك من الأغراض .

ج ـ أن يكون الصبر مع الله ، وهو دورانُ العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٦) .

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٦٩) .

أحكامه الدينية سائر بسيرها ، مقيماً بإقامتها ، أي يجعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه(١).

٤ ـ الكرم:

من الأمثلة على صفة الكرم الكرمُ الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة ، **قال تعالى:** ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٦] ، **وقوله تعالى:** ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦ ـ ٢٧] ، متضمنٌ وجوهاً من المدح وآداب الضيافة ، وإكرام الضيف:

● منها: قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ والروغان الذهابُ بسرعةٍ واختفاءٍ ، وهو يتضمّن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمّن ترك تخجيله ، وألاّ يعرّضه للحياء ، وهذا بخلافِ مَنْ يتثاقل ، ويتبادَرُ على ضيفه ، ثم يبرز بمرأى منه ، ويحلّ صرةَ النفقة ، ويزنُ ما يأخذ ، ويتناول الإناء بمرأى منه ، ونحو ذلك ، مما يتضمّن تخجيلَ الضيف وحياءه فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين.

● وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مدحٌ آخر لما فيه من الإشعار بأنَّ كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنَّه لا يحتاجُ إلى أن يستقرِضَ من جيرانه ، ولا أن يذهبَ إلى غير أهله ، إذ قِرَى الضيف حاصلٌ عندهم.

● وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يتضمّن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام ، لم يأتهم ببعضه ، ليتخيّروا من أطيبِ لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ، ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين ، فإنّهم يعجبون به ، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

● وقوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ متضمناً المدحَ وآداباً أخر.

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٥٧).

• ثم عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه الصيغة مؤذنةٌ بالتلطّف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا(١).

وهذا يوسف عليه السلام يقول الله عز وجل على لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]. أي خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم(٢).

وأما إذا جئنا إلى **كرم الرسول محمد** ﷺ وجوده، فهو الكرم الذي لا يضاهىٰ، والجود الذي لا يبارى، ويكفينا من ذلك قول الأعرابيِّ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهرُ العقولَ، حتى قال مقولته المشهورة لمّا رجع إلى قومه، وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: يا قوم أسلموا، فإنّ محمّداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة(٣).

٥ ـ الوفاء:

أمّا صفة الوفاء فهي بارزةٌ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين بلّغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة، وجاهدوا في الله حق جهاده.

فمنهم **إبراهيم** عليه الصلاة والسلام، الذي قال عنه ربه تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] أي بلغ جميعَ ما أُمرَ به، وقال ابن عباس ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ما أُمِرَ به، وقال قتادة ﴿وَفَّىٰٓ﴾ طاعة الله، وأدّى رسالته إلى خلقه، وهذا القولُ هو اختيارُ ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله(٤).

ومدحَ الله سبحانه نبيّه **إسماعيل** عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]. قال ابن كثير: وقال بعضم: وإنّما

---

(١) بدائع التفسير (٤/ ٢٤٣) وقفات تربوية (٣/ ١١٩).
(٢) مسلم رقم (٢٣١٢).
(٣) مسلم رقم (٢٣١٢).
(٤) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٧) من سورة النجم.

قيل له ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأنّه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فصدق في ذلك[١].

وقد وفّى **موسى** عليه السلام لربّه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوةَ اللهِ عزّ وجلّ، وصبره على أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم، وقد كان له موقفُ وفاءٍ قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه السلام مع شيخ مدين حينما أجر نفسه عشر سنين، وهي أتمُّ الأجلين عند الشيخ والد البنتين حتى يتزوّج إحداهما، وكان قد خيّره بين الثماني والعشر، فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْرِ العرب فأسأله، فقدمتُ فسألتُ ابنَ عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله إذ قال فعل[٢].

إنَّ العقل والقلم ليعجزان عن الإحاطةِ بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عزَّ وجلَّ، سواء من جهة الكم أو الكيف، ولكننا استعرضنا بعض هذه الأخلاق الكريمة لترشدنا إلى غيرها.

ثالثاً ـ التعرّض للأذى، والصدّ عن سبيل الله عزّ وجلّ مِنْ قِبَلِ أعداء الدعوة، وأنصار الباطل:

من سنن الله في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرّضهم للأذى، ووقوف المفسدين في طريق دعوتهم، يصدونهم، ويشوّهون دعوتهم، ويؤذونهم بصنوف الأذى والابتلاء، **قال تعالى**: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ولمّا جاء الرسول ﷺ إلى ورقة بن نوفل ابن عمٍّ خديجة رضي الله عنها، وأخبره بما رأى في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزّل على موسى: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكونُ حياً، إذ يخرجُك قومك،

(١) المصدر نفسه عند الآية (٥٤) من سورة مريم.
(٢) البخاري رقم (٢٦٨٤).

فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزّراً[١] .

ومن **صور الأذى** والصد عن سبيل الله عز وجل التي تعرّض لها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام :

١ ـ السخرية ، ورميهم تارة بالسحر ، وتارة بالجنون والسفاهة ، وتارة بالكذب والضلالة :

والشواهد في القرآن على هذا كثيرة منها :

قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. **وقال تعالى** : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥] .

وقال **عز وجل** عن قوم هود عليه السلام : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] .

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] .

ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيبٍ لنبيهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥] .

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] .

وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] .

وقال عزَّ وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحّد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣][٢] .

---

(١) البخاري رقم (٣).
(٢) وقفات تربوية (٣/ ١٦٣).

٢ ـ القتل والسجن والإخراج من الأرض:

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وقال تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وإخباره تعالى عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه السلام **بقوله تعالى:** ﴿۞ **قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا**ۚ...﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقول قوم لوط لنبيهم عليه السلام وأهله في **قوله تعالى:** ﴿۞ **فَمَا كَانَ** جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولما قصّ الله عز وجل علينا خبرَ قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم عليهم السلام في سورة إبراهيم [١٣] **قال بعد ذلك:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾.

وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى عليه السلام بالقتل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ [غافر: ٢٦].

وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن، أو الإخراج، أو القتل، والذي ذكره الله عز وجل في **قوله:** ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال نوح عليه السلام عندما هُدِّد بالرجم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨].

وقال شعيب عليه السلام عندما هُدِّدَ بالإخراج من بلده: ﴿**عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال لوط عليه السلام بعدما هُدِّدَ بالإخراج: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨ ـ ١٦٩][1].

---

(١) وقفات تربوية (٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

وقد يلجأ المبطلُ إلى القوّة المادية ، فيقتل بعضَ أنبياء الله ، ويعذّب بعضاً آخر ، بعد أن تعوِزُه الحجّة ، وينقصه البرهانُ والدليل ، فيكون التجاؤه إلى التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه ، وعلامةً على نصر أعدائه ، ورُبَّ معذب أو قتيل كتب الله له النصر ، ولدعوته الظفر والتأييد ، وربَّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذل ، وسجّل عليه الخذلان ، فكان الأول حياً في موته ، منتصراً في قبره ، وكان الثاني ميتاً في حياته ، مكبوتاً في جبروته وكبريائه ، فهو نصر معنوي ، يظفر فيه الحقّ بالباطل ، وتظهر فيه الحجّة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوة الروح على قوة المادة ، وقد يكونُ مع النصر المعنوي نصرٌ مادي ، كإنجاء الله إبراهيم من النار ، بعد أن دبّروا له ما دبّروا ، وصنعوا له ما صنعوا ، وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش لقتله ، كلُّ ذلك نصر مادّي ، ومعه نصر معنوي[1] .

٣ ـ التضييقُ في الرزق ، وانتهاجُ سياسة التجويع والحصار الاقتصادي :

ويتّضحُ هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ ومَنْ آمن معه مقاطعةً اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك ، ومحاربتهم في شِعْبِ أبي طالب ، حتى مسّهم الضرُّ ، وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً ، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من محاولةٍ لتضييق سبل الرزق لمن حول رسول الله ﷺ ، حتى يتفرّقوا عنه ، وينشغلوا في بطلب المعاشِ ، **قال تعالى** : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون : ١٧] .

وهي قولةٌ يتجلّى فيها خُبثُ الطبع ، ولؤم النحيزة[2] ، ذلك أنّه لخسّة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كلُّ شيء في الحياة ، كما هي في حسهم ، فيحاربون بها المؤمنين. . . وهي خطة غيرهم ممّن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ، ناسين الحقيقة البسيطة ، التي يذكّرهم

---

(١) دعوة الرسل ، محمد العدوي ص (٢٤١).
(٢) النحيزة : الطبع والجبلة.

القرآنُ بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧](١).

٤ ـ إثارة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضحٌ من **قوله تعالى** عن فرعون مصر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وكذلك ما حاوله اليهود زمنَ الرسول ﷺ من إثارةِ النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم، ولكنّهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ(٢).

٥ ـ اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتّضحُ هذا جلياً من **قوله تعالى** عن المقولة الجائرة لفرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧](٣).

٦ ـ اتّهام الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام بأنّهم طُلّاب مُلْكٍ ودنيا، وليسوا مخلصين فيما ينادون به:

قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقوله تعالى أيضاً في مقولة فرعون لموسى عندما رأى معجزة العصا: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه وعن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالُوٓا۟

---

(١) ظلال القرآن (٦/ ٣٥٧٩).
(٢) وقفات تربوية (٣/ ١٧١).
(٣) وقفات تربوية (٣/ ١٦٧).

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وفي **قوله تعالى**: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]: هذه الكلمة مِنْ ملأ فرعون هي إذكاءٌ لشعور الرفعة وأبّهة السلطان، وتأريثٌ للعداوة والبغضاء لموسى وأخيه، لأنّه يحاول بعمله هذا أن يَسْلُبَ فرعون مُلكه، ويقضي على نفوذه وعظمته، وهي دسيسةُ خبيثةٌ دنيئةٌ ألفناها من بطانات الرؤساء، وتعوّدناها من حواشي السوء، إذا كرهوا رجلاً دسّوا عليه تلك الدّسيسة، واتّهموه بتلك التهمة، لأنّهم يعلمون أنّ الرؤساء لا يتأثرون بشيءٍ تأثرهم بما يمسّ سلطانهم، ويتعلق بسلطانهم، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنّهم لا يناقشون فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً، ولا شبه دليل من ذلك المبلِّغ الدسّاس، وهي طبيعةٌ من طبائع التسلط، وخُلقٌ من أخلاقه، ولا تخص رجلاً دونَ آخر، ولا تتعلّق بجيلٍ دونَ جيلٍ.

وقد يعلم ملأ فرعون أنّ موسى عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً، وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض، وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكنّ بطانات السوء تأبى إلا أن تظهِرَ المصلحَ بتلك الصورة، التي من شأنها أن يطيرَ لها لبُّ فرعون ومَنْ على شاكلته من الظلمة المستبدين، لذلك لجأوا إلى تلك الدسيسة، دسيسة أنّهما يريدانِ مُلكاً، ولا يريدان رسالة[1].

وهذه الصور من الأذى والصدّ عن سبيل الله تعالى تبيّنُ لنا سنةَ الله عزّ وجل في الصراع بين الحق والباطل، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص.

رابعاً ـ التدرّج في الدعوة، ومراعاة المصالح والمفاسد:

أوّل ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من ربه تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذلك أوّل نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بالتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢] فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ثم أمره أن ينذرَ عشيرته الأقربين، ثم أنذرَ قومه، ثم أنذرَ مَنْ حولهم من العرب، ثم أنذر العربَ قاطبةً، ثم أنذرَ

---

(١) دعوة الرسل ص (٢٢١) بتصرف.

العالمين ، فأقام بضعَ عشرةَ سنةً بعد نبوته ، ينذِرُ بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمَرُ بالكفِّ والصبرِ والصفحِ ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتِلَ منْ قاتله ، ويكفَّ عَمّنْ اعترَّ به ولم يقاتله.

ثم **أمره بقتال المشركين** حتى يكونَ الدين كلّه لله.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر بأنْ يتمَّ لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يُعْلِمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل مَنْ نقضَ عهده ، ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم ، فجاهد الكفّارَ بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره أن يجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

١ ـ **قسم أمره بقتالهم** ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم ، وظهر عليهم.

٢ ـ وقسم لهم عهدٌ مؤقّت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتمَّ لهم عهدهم إلى مدتهم.

٣ ـ وقسم لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجّلهم أربعةَ أشهرٍ ، فإذا انسلخت قاتلهم وهي الأشهر الأربعة المذكورة ، وهي الأشهر الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

فالحُرُم هاهنا: أشهرُ التسيير ، أوّلها يومُ الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو يومُ الحجّ الأكبر ، الذي وقع فيه التأذين بذلك ، وآخرُها العاشر من شهر ربيع الآخر ، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] ، فإن تلك واحدٌ فردٌ ، وهو شهر رجب وثلاثة سردٌ: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ولم يسيّر المشركين في هذه الأربعة ، فإنّ هذا لا يمكن ،

لأنّها غير متوالية ، وهو إنّما أجّلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم ، فقتل الناقض لعهده ، وأجّل مَنْ لا عهدَ له ، أو له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يُتَمَّ للموفي بعهده عهدَه إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم.

وضرب على أهل الذمة الجزية ، فاستقرّ أمرُ الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: **محاربين له** ، **وأهل عهد** ، **وأهل ذمة** ، ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين: **محاربين** ، **وأهل ذمة** ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: **مسلم مؤمن بربه** ، **ومسالم له آمن** ، **وخائف محارب**.

وأما **سيرته في المنافقين** ، فإنّه أُمِرَ أن يقبلَ منهم علانيتهم ، ويكلَ سرائرَهم إلى الله ، وأن يجاهِدَهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يُعرِضَ عنهم ، ويُغْلِظ عليهم بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يصلّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنّه إن استغفرَ لهم فلن يغفرَ الله لهم ، فهذه سيرته في أعدائه من الكفّار والمنافقين(١).

هذا هو خط دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلى أن مكّن له في الأرض ونصره.

وفترةُ النبيِّ ﷺ قبل الهجرة والإذن بالقتال محلّ اتفاق بين الأنبياء جميعاً ، حيث إنّ هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكفّ اليد ، أمّا بعد الهجرة ، فكان الجهادُ الذي نصر الله به نبيّه ﷺ ، وبما أيده به من المعجزات.

أما الأنبياء الذين لم يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء ، فكان نصرُ الله عزّ وجلّ ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح ، وذلك النصرُ يجيء بمعجزةٍ منه سبحانه ، وآيةٍ من آياته ، فينصر الله سبحانه به أنبياءه ، ويهلك به أعداءه ، كما نصر نوحاً بالطوفان ، وهوداً بالريح ، وصالحاً

(١) زاد المعاد: (٣/ ١٥٩ ـ ١٦١).

بالصاعقةِ ، وشعيباً بعذاب يوم الظلّة(١) .

ومن **أهم ملامح الدعوة** في فترات الاستضعاف ـ والذي يتّضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة ـ **الصفحُ والصبرُ على الأذى ، وكفُّ اليد ، والاستعانةُ بالله على كلِّ وسائل الأذى والصدّ والاستفزاز** ، الذي يقومُ به أهلُ الباطل ، وأعداءُ الدعوة .

إنّ القول بالصفح والصبر في الدعوة وكفّ اليد لا يعني أبداً تركَ الجهر بالدعوة إلى التوحيدِ ، وتبصير الناس بدينهم ، وتصحيح مفاهيمهم ، وتوعيتهم بكيد أعدائهم ، كما أنّه لا يعني بحالٍ من الأحوال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه ، وتعرية الباطل ، وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً ، وما سوى ذلك يجب أن يبقى على أشدّه في الدعوة والبلاغ والتربية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية ، وحسب الاستطاعة ، وقدر ما يملك من فعل الأسباب ، وأنْ توطّئَ النفوسُ على تحمّل الأذى والابتلاءات التي تترتب على دعوة الناس وتبليغهم دينهم حتى إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره ، فإذا العزائمُ قوية تتحمّل الأذى ، وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمامَ تهويشِ الباطل وتخويفه ، أو أمام ترغيبه ومساوماته(٢) .

خامساً ـ مراعاةُ السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

وقال عز وجل : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر : ٤٣] .

والتاريخُ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة ، والمواقف المتماثلة ، يساعد

(١) وقفات تربوية (٣/ ١٨٥) .
(٢) وقفات تربوية (٣/ ١٩٦) .

على كشف هذه السنن التي هي غايةٌ في الدقة والعدل والثبات.

وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائدُ عظيمة، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صلابةً في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث، فإنّ الذي يعلمُ تكونُ لديه بصيرةٌ وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحَيْرَة والخوف والقلق(١).

ومن السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

١ ـ سنّةُ سوءِ عاقبةِ المكذّبين:

إنّ الذين يكذّبون بآيات الله ورسله، ويظلمون الناس بغير حق، ويَسْعَوْن في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوءِ العاقبة، **قال تعالى:** ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ ـ ٣٩].

٢ ـ العاقبة للمتقين:

قال تعالى عقب قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فمن سنن الله تعالى أنَّ العاقبةَ للمتقين، والهلاكَ للمكذّبين المعاندين.

قال تعالى عن هود عليه السلام مع قومه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وما جرى من تحقُّق هذه السنة في الماضي، سيجري مثلُه إن شاء الله تعالى في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين يستحقّون نصر الله عز وجل(٢).

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، د. محمد صامل السلمي ص (٦٠).
(٢) وقفات تربوية (٣/٢٠٧).

٣ ـ الابتلاء سنةٌ جاريةٌ للمؤمنين :

وهذه السنّة من الوضوح بحيث لا تحتاجُ إلى تعليق ، حيث تواترت بها الأدلّةُ الكثيرةُ من القرآن والسنة ، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك ، ويكفي **قوله تعالى**: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]. **وقوله تعالى**: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ ، ثم الأمثلُ فالأمثلِ ، فيبتَلى الرجلُ على حَسَبِ دينه ، فإن كان في دينه صَلْباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حَسَبِ دينه ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ**»(١).

وحكمةُ هذا الابتلاء عظيمةٌ ، وفوائدُه في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفةٌ ، وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوسُ على هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات(٢).

٤ ـ سنّةُ إناطةِ التغييرِ بالبشر :

وتُعتبر هذه من سنن الله سبحانه الخالدة ، التي أناطَ بالبشرية مسؤولية رقيّهم وانحطاطهم ، ومسؤولية إتباعهم للخير أو الشر ، حيث إنّهم مُنِحوا قدراً من الحرية والاختيار ، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عزّ وجلّ الرسل ، التي جاءتهم بالهداية الربانية ، التي فيها خيري الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين ، **قال تعالى**: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فإذا وجدت أسبابُ الهداية فإنّ النتائجَ تتبعها ، كما **قال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) سنن الترمذي رقم (٢٤٠٠) صححه الألباني رقم (١٠٠٣).
(٢) وقفات تربوية (٣/ ٢١٠).

لذلك فإنّ التغيير يبدأُ من النفس، سواء بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشرّ إلى الخير أو العكس، والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم، كما **قال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد: ١١].

ولقد تعامل رسول الله ﷺ مع هذه السنة في تغيير النفوس والمجتمع، ومن تأمّل هذه الآية الكريمة التي قرّرت حدوثَ التغيير من الله سبحانه مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب، وهذا الترتيبُ يضع البشرية أمامَ مفرق طرق، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، **قال تعالى**: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ وهذه السنةُ لا يمكِنُ إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني، الذي يربط بين السنن والأحداث التاريخية، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إنّ اتباع المنهج الرباني يغطّي خير السنن، ويصرف الصوارف، **قال تعالى**: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨][1].

٥ ـ سنة زوال الأمم بالعلوّ والطغيان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرّرُ سنةً من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه، إنّها سنةُ زوال الأمم بالترف والفساد، زوال الأمم بالتجبر والطغيان، زوال الأمم بالبطر والكبرياء، **قال تعالى**: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات، واجتناب المعاصي، فعصوا وفسقوا، وحققوا

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٤).

أسباب الزوال والانهيار ، فحقّت عليهم سنةُ الأخذِ والزوال ، والتدمير والتنكيل ، جزاءَ فسقهم وعصيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[(١)].

٦ ـ سنة إهلاك الأمم بالظلم والإجحاف:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

فإذا ما فشى الظلمُ ، وعدمُ إقامة العدل في أمة من الأمم ، فقد تحقّقت فيهم أسبابُ الهلاك ، وحقت عليهم سنةُ الله بالهلاك ، ووقعت عليهم القاصمة ، لأنَّ الله سبحانه تعالى قد حرّم الظلمَ على نفسه ، وجعله بين العباد محرّماً ، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنّي حرّمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّماً فلا تظالموا**»[(٢)].

فإذا اختلّت الموازينُ ، وانعدمتِ القيمُ ، وتحكّم الأقوياءُ في رقاب الضعفاء ، وقسم المجتمع إلى طبقاتٍ سادة وعبيد ، وتلاعبَ السادةُ بحدود الله وأوامره ، فقد حقّت عليه سنةُ الله ، التي لا تحابي أحداً من خلقه ، ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً ولا تحويلاً ، جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**إنّما هلك الذين مِنْ قبلكم أنّهم كانوا إذا سرَقَ فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ ، وأيمُ اللهِ ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها**»[(٣)].

٧ ـ سنة لكل أمة أجل:

قد يرى الناسُ موجبات العذاب والانهيار ، قد حلّت بأمة من الأمم ، ثم لا يرون زوالها بأنفسهم ، لكنَّ عمر الأمم أطولُ من عمر الأفراد ، ولا تقع إلا بأجل محدودٍ لابدّ من استيفائه ، **قال تعالى:** ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. **وقال تعالى:** ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥]. **وقال تعالى:** ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٥).
(٢) مسلم رقم (٢٥٧٧).
(٣) البخاري رقم (٣٤٧٥) مسلم رقم (١٦٨٨).

٨ ـ سنةُ الأيام سِجَالٌ بين الناس :

فمن رحمة الله سبحانه أنْ جعل مداولةَ الأيام سِجالٌ بين الناس ، من شدّةٍ ورخاءٍ ، وقوّة وضعف ، وعزّ وذلّ ، وصحةٍ وسقمٍ ، وغنًى وفقر ، امتحاناً لهم حتّى يعلمَ منهم ـ وهو أعلمُ بما يفعلون ـ الشاكرين من الجاحدين ، والصابرين من الجازعين ، والمجاهدين من القاعدين ، والمنفقين من الممسكين ، **قال تعالى** : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠](1) .

٩ ـ سنة نصر الله للمؤمنين :

لقد قضت حكمةُ الله سبحانه وسنته الجارية على استحقاقِ المؤمنين لنصره إذا أتوا بشروطِ هذه السنّة ، ومن هذه الشروط :

أ ـ الاستقامة على منهج الله ، قال تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] .

ب ـ عدم الإشراك به سبحانه ، وتحقيق الإيمان ، والعبودية الشاملة ، **قال تعالى** : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

ج ـ ذكر الله كثيراً ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

فإذا ما حقق المؤمنون شروطَ هذه السنة ، كما كان الأمر في عهد داود وسليمان ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، فإنّ نصرَ الله لهم قريب ، **قال تعالى** : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] . **وقال تعالى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٥).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧][١].

١٠ ـ سنة التدافع بين الحق والباطل:

وهذه السنةُ من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوفُ عندها، وعدمُ نسيانها أو الغفلة عنها، والمتأمِّلُ في دعوةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمسُ هذه السنة بوضوحٍ وجلاءٍ، فالنبيُّ ﷺ تعامَلَ مع هذه السنة، وظهرت جلياً في الفترة المدنية مع حركة السَّرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبيُّ ﷺ ضدَّ المشركين.

وهذه السنّةُ متعلقةٌ تعلّقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التنصيصُ عليها في **قوله تعالى:** ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وفي **قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة: أنّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل، المتمثّل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] مما يفيد أنَّ دفعَ الفسادِ بهذا الطريق إنعامٌ يعمُّ الناسَ كلَّهم[٢].

وتأتي آيةُ الحجِّ بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم سبحانه بقتال عدوِّهم، ويختتم الآيةَ بتقريرٍ لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

لقد أدرك الصحابةُ هذه السنة، وعلموا أنَّ القضاء على الباطل وتدميره، لابدّ له من أمةٍ لها قيادة ومنهج، وقوة تدمغ الباطل وتزهقه، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاجُ إلى عزائم تنهضُ به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصابٌ ترتبط به، لقد علّمهم النبيُّ ﷺ كيف يتعاملون مع هذه السنة، فاستجابوا لأمرِ الله تعالى

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٩).
(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٣/ ٥١٤).

عندما أمرهم بالجهادِ في سبيله ، فقد شرع الله عز وجل الجهادَ لهذه الأمة ، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة ، لا يبطله جورُ جائرٍ ، ولا عدلُ عادلٍ ، وما تركه قومٌ إلا أذلهم الله ، وسلّط عليهم عدوَّهم ، وقد شرع الله عز وجل الجهادَ على مراحل ، ليكونَ أروض للنفس ، وأكثرَ ملاءمةً للطبع البشري ، وأحسنَ موافقةً لسير الدعوة وطريقة تخطيطها(١) .

هذه بعض السنن التي نلاحظها في دراسة دعوة الأنبياء والرسل .

وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائدُ عظيمة ، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها ، والنجاة منها ، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صلابةً في الموقف ، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث ، فإنّ الذي يعلم تكون لديه بصيرةٌ وطأنينةٌ ، أما الذي يجهلُ فليس لديه إلا الحَيرةُ والخوف والقلق .

والسنن الربانية نوعان : سنن خارقة ، وسنن جارية :

فالسنن الخارقة : هي التي يجريها اللهُ على خلاف مألوف الناسِ على يد رسولٍ من رسله ، تأييداً من الله له بتلك المعجزة ، كما حوّل العصا حيةً في يد موسى عليه السلام ، **قال تعالى** : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠] .

وكما أنبع الماءَ من الصخرةِ عندما ضربها موسى بعصاه ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ [البقرة: ٦٠] .

والسنة الجارية نوعان :

سنةٌ متعلقة بالأمورِ الطبيعية ، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار ، والشمس والقمر ، فهي تجري وفقَ ناموسٍ محدّدٍ قدّره الله لها .

وسنة متعلقة بدين الله ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فهي ثابتةً لا تتبدّل ، مثل نصره لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، كما أنّه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكمٍ ، فإنّ ذلك لا ينتقض ولا يتبدّل ولا يتحوّل ، فهو سبحانه لا يفرّق

---

(١) السيرة النبوية للمؤلف (١/ ٦١١ ـ ٦١٢) .

بين المتماثلين ، وإذا وقع تغييرٌ فذلك لعدم التماثل ، كما أنّ من سنته التفريقَ بين المختلفين ، كما دلَّ على ذلك القرآن ، **قال تعالى**: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥][١].

ومن هذا الباب صارت قصصُ المتقدّمين عبرةً لنا ، ولولا القياسُ واطراد فعله وسنته لم يصحَّ الاعتبارُ بها ، لأنّ الاعتبارَ إنّما يكونُ إذا كان حكمُ الشيء حكمَ نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[٢].

فهذه السنن الشرعية إنّما تدرك من خلال النظر في التاريخ ، وملاحظة مصائر الأمم ، وقيام الحضارات وسقوطها وأسبابُ ذلك[٣].

والسنن الربانية تجيءُ في القرآن غيرَ محدّدة ، لكي تشملَ على أكبر قدرٍ من الوقائع ، وتلامسَ أكبرَ عدد من التفاصيل ، والجزئيات[٤].

كما أنّ معرفة السنن الربانية تفرضُ على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوزَ مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك ، وأن تحسنَ التعامل مع تلك السنن ، ومع قوى الكون ، مستمِدّةً ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

سادساً ـ أصناف المدعوّين في دعوة الأنبياء:

فصّل القرآن الكريم أصنافَ المدعوّين الذين اتّصل بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلا تكادُ تجدُ طبقةً من الناس إلاّ والقرآنُ يقدّم لك نموذجاً لاتصالِ الأنبياء بهم ، ومن هذه النماذج:

١ ـ الملوك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٠).
(٢) جامع الرسائل ، لابن تيمية ص (٥٥).
(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (٦٠).
(٤) تفسير التاريخ ، عماد الدين خليل ص (١٠٩).

ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [يونس: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٣١].

٢ ـ الأغنياء المترفون:

قال **هود عليه السلام** لقومه في القرآن الكريم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

وقال **صالح عليه السلام** لقومه في القرآن الكريم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

٣ ـ الفقراء والمستضعفون:

هذا كلام **قوم نوح** لنوح عليه السلام: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

وقال تعالى عن **قوم موسى** عليه السلام: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا

شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ ـ ٦].

٤ ـ المطففون:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٥].

٥ ـ الشاذون:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢].

٦ ـ المسجونون:

قال تعالى: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

٧ ـ الأقربون:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ

أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٥](١).

سابعاً ـ تفاضل الأنبياء:

أ ـ التفاضل بين الأنبياء ثابتٌ بأدلةِ الكتاب والسنة:

- **فمن الكتاب:**

قوله سبحانه: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فالمراد به موسى عليه السلام، إذ هو المشتهر بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتكليم، وقد **قال له سبحانه:** ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]. **وقال تعالى:** ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

- **ومن السنة:**

ما رواه أبو هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أعطيتُ جوامعَ الكلم، ونُصِرْتُ بالرعبِ، وأُحلّتْ لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرضُ طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافّةً، وخُتِمَ بي النبيون**»(٢)، فقوله ﷺ: «**فضلت على الأنبياء**» دليل على وقوع التفاضل بينهم، والأمةُ مجمعةٌ على أنّ بعض الأنبياء أفضلُ من بعضٍ(٣).

ب ـ وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتفصيل:

بعد أن ذكرنا تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على وجه الإجمال، وذكرنا الأدلة على ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية، نذكر الآن وجوه التفضيل على التفصيل، وهذه الوجوه هي:

---

(١) المحكم في العقيدة ص (١٥٩ ـ ١٦٢).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٧١).
(٣) مباحث في المفاضلة في العقيدة، محمد الشظيفي ص (١١٧ ـ ١١٨).

الوجه الأول: التفضيل بالتخصيص بمنقبةٍ:

كتكليم موسى عليه السلام، فمن خُصَّ بمنقبةٍ عظيمةٍ أفضلُ ممّن لم يخصَّ.

الوجه الثاني: التفضيل بالبينات والآيات:

كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال ﷺ: «**أعطيتُ جوامعَ الكلم، ونصرتُ بالرعب**»[١].

الوجه الثالث: التفضيل بالتأييد بالملائكة:

كما قال سبحانه في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وروح القدس هو جبريل في أظهر الأقوال[٢]، فمن كان تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل.

وقال ابن السعدي في الآية: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ولكنّ ما لعيسى أعظمُ ممّا لغيره، لهذه خصّه بالذكر، وعليه فكلُّ مَنْ كان من تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل.

الوجه الرابع: التفضيل بالشرائع:

كما قال ﷺ: «**وأُحلّت ليَ الغنائمُ، وجُعِلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً**»[٣]، وكما قال سبحانه عن محمد ﷺ في شأن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكما حكى الله قول عيسى لليهود: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فكل من كانت شريعتهُ أتمَّ وأيسرَ فهو أفضل.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٧١).
(٢) مباحث المفاضلة في العقيدة ص (١٢١).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٧١).

الوجه الخامس: التفضيل بإنزال الكتب:

كما **قال سبحانه**: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، فمن أُنزل عليه الكتابَ أفضلُ ممّن لم ينزل عليه كتاب.

الوجه السادس: التفضيلُ بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين مَنْ أُنزل إليهم كتاب.

الوجه السابع: التفضيل بالدرجات:

كما **قال سبحانه**: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] يعني مراتبَ متباعدة، ووجوه متعددة[١].

الوجه الثامن: والتفضيل بالمراتب في السماء:

كما في حديث المعراج[٢].

الوجه التاسع: التفضيل بكثرة الاتباع:

كما في حديث (الصحيحين) أنّ النبيّ ﷺ عُرِضَتْ عليه الأمم، فرأى النبيَّ وليس مَعَه أحدٌ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ومعه العشرةُ، والنبيَّ ومعه السوادُ الأعظم[٣].

قال بعضُ أهل العلم: والتفضيلُ المرادُ لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال:

- أن تكون آيتُه ومعجزاتُه أبهرَ وأشهرَ.
- وأن تكونَ أمّتَه أزكى وأكثر.
- أو يكون في ذاته أفضل وأظهرَ، وفضله في ذاته راجعٌ إلى ما خصّه الله به

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٣/٢).
(٢) صحيح مسلم (١/١٤٥) فتح الباري (١٣/٤٧٨).
(٣) مباحث في المفاضلة عن العقيدة ص (١٢٢).

من كرامته ، واختصاصه من كلامٍ أو خلةٍ أو رؤيةٍ ، أو ما شاء الله من ألطافه ، وخصوص ولايته واختصاصه[١] .

والرسولُ الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوّة لهم يكونُ أكملَ من غيره من جهةِ تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم عليهما السلام[٢] .

فهذه جملةٌ من وجوه تفاضلِ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم[٣] .

ج ـ أولو العزم من الرسل :

أفضلُ الرسل أولو العزم منهم ، **قال سبحانه** وتعالى آمراً نبيه محمد ﷺ وهو أفضل الخلق : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

فامتدحهم الله عزّ وجلّ بالعزم ، وخصّهم بالذكر من بين رسله ، وأمرَ نبيّه محمداً ﷺ ـ وقد فضله على جميع خلقه ـ أن يقتديَ بهم[٤] ، فأفضلُ أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين هم أولو العزم[٥] .

قال ابن كثير: لا خلافَ أنّ الرسلَ أفضلُ من بقيةِ الأنبياءِ ، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم[٦] .

وواضحٌ من الآية السابقة أنَّ الصفةَ البارزةَ في أولئك الرسل أولي العزم هي **الصبر** ، ذلك أنها هي الصفةُ التي يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسّى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة .

وكل الرسل ذوو صبر وثبات وتحمّل ، فلابدّ أن يكون اختصاصُ (أولي

---

(١) الشفا (١/ ٢٢٧ ، ٢٢٨).
(٢) الفتاوي (١٥/ ١٣١).
(٣) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٢٣).
(٤) المصدر نفسه ص (١٣٠).
(٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. لابن تيمية ص (٧).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧).

العزم) بهذا الوصفِ الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً عن زيادةِ صفةِ الصبر عن الرسل العاديين ، وقدرة فائقة على تحمّل الشدائد ، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة ، التي مرّت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد.

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداةُ البشرية وقادتها ، وهم موضع القدوة والأسوة ، فإنّ في حياة أولي العزم من الرسل عِبَراً خاصة ، لطول جهادهم ، وكثرة المواقف الصعبة التي تعرّضوا لها ، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة ، التي تنخلعُ لها القلوب ، واطمئنانهم إلى قدر الله ، ووعده بالنجاة والنصر... ثم فيما حلّ بالمكذّبين من أقوامهم من هلاكٍ وتدمير.

إنّ الدعاة بصفة خاصة هم أَوْلىٰ الناسِ بأخذِ العبرة من سير الرسل جميعاً ، ولكنّهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل ، وعلى رأسهم محمد ﷺ ، لأنّه ما مِنْ موقفٍ يتعرّضون له في دعوتهم إلا وله مثيلٌ أو شبيه في سيرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل ، والجهد الشاق ، وتذهب قوى الباطل بدداً ، ويبقى الحق راسخاً في الأرض ، يظلل الناسَ بظلاله الوارفة ، وينعَمَ الناسُ في ربوعه بالأمن ، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحّوا في سبيله بأمنهم وراحتهم ، وأموالهم وأنفسهم ، يذهبُ منهم مَنْ ذهب شهيداً في سبيل الله ، ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرّده لله ، **قال تعالى**: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣][١].

١ ـ تعيين أولي العزم:

أولو العزم خمسةٌ وهم: محمّد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وهم الخمسة المذكورون نصّاً في **قوله تعالى**: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]. وفي **قوله سبحانه**: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) ركائز الإيمان ص (٢٨٤ ـ ٢٨٥).

فقد خصّهم الله عزّ وجلّ بالذكر في هاتين الآيتين من بين الأنبياء ، وهو تنبيهٌ إلى فضلهم بين سائر الأنبياء ، وقد خصّهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظمَ الأمور وأفضلها وأغلظها ، وهو الميثاقُ الذي قال فيه : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

والوصايا التي شرعها لخلقه ، وذلك ما أخذ على جميع النبيين ، وبَعث به جميع النبيين ، وهو العهدُ الذي بين اللهِ وخلقه ، وهو إقامة الدين ، وعدم التفرق فيه ، وإسلام الوجه له سبحانه ، والدعوة إلى ذلك ، والمجاهدة فيه ، والموالاة فيه ، والبراءة فيه .

وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم مَن قام بهذا الميثاق ، ولذا خُصّوا بالذكر ، وهم الذين تفزعُ الأمم إليهم في الموقف يوم القيامة بعد أبيهم آدم ، فيتراجعونها ، حتى تنتهي إلى محمد ﷺ ، كما في حديث الشفاعة[١] .

يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلّفين :

الطبقة الأولى: مرتبة الرسالة ، وهي العليا على الإطلاق ، فأكرم الخلق وأخصّهم بالزلفى لديه رسلُه .

قال : وأعلاهم منزلة **أولو العزم** منهم ، المذكورون في قوله تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدورُ الشفاعة ، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ .

قال : **الطبقة الثانية : من عداهم من الرسل ،** على مراتبهم من تفضيل بعضهم على بعض[٢] .

٢ ـ في تفاضل أولي العزم:

ذكر الله عز وجل أولي العزم في آيتي الأحزاب والشورى المذكورتين ، وقد

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٩٥) صحيح مسلم (١/ ٦٣).

(٢) طريق الهجرتين لابن قيم ص ٢٤٩ ، مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٣٥).

بدأ سبحانه في الآيتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم ، وذكر بعدهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام.

وقد بدأ سبحانه في آية الأحزاب بذكر محمد ﷺ لشرفه وفضله عليهم ، وذلك لأنّ في الآية ذكرٌ للنبيين في الجملة ، تعميماً ، ثم خصّ الله سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم في العموم ، فناسب ذلك الابتداء بذكر محمد ﷺ ، لكونه أفضل هؤلاء المفضلين.

وفي الآية ذكرٌ للميثاق المأخوذ على النبيين ، فهي متعلقة بالأنبياء خاصة ، ولذلك قدم محمد ﷺ في الذكر للوجه المذكور ، **قال سبحانه**: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

أمّا آية الشورى فمتعلقة بالشريعة التي بعثوا بها ، ولذلك بدأ سبحانه بنوح قبل محمّد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الآية في ذكر دين الإسلام ، وما وصى الله به الرسل ، فناسب ذلك أن يبدأ بنوح عليه السلام ، لأنّ رسالته أول الرسالات ، ففيه بيانٌ جلي أنّ أول رسالات الرسل أوصتْ بما شُرِعَ لأمة محمد ﷺ من الدين ، فهو دينٌ أصيل مستقيم ، لا عوج فيه ولا اضطراب ، ثم ذكر سبحانه مِنْ بين من توسّطوا بين محمد ونوح أشهر أصحاب الشرائع وأفضلهم(١).

فمحمّد ﷺ هو أفضلُ أولي العزم بلا خلاف ، يقول ابن كثير: ولا خلافَ أنّ محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام على المشهور(٢).

يرى ابن كثير أنّ نوحاً آخرهم في ترتيبهم في الفضل ، وقوله: (على المشهور) كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضل بعد محمد ﷺ ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٠) روح المعاني (٢١/ ١٥٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٣٧).

وقد قطعَ بأنّ إبراهيم بعده في الفضل في موضع آخرَ ، فقال في إبراهيم: هو أشرفُ أولي العزم بعد محمّد ﷺ(١).

٣ ـ بعض خصائص أولي العزم:

● إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

فمن فضائله وخصائصه عليه الصلاة والسلام أنّه خليلُ الرحمن ، لم يشاركه في الخلة إلاّ محمّد صلى الله عليهما وسلم ، **قال سبحانه:** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقد جعله الله إماماً للناس ، يقتدون به ، ويهتدون بهديه ، **قال سبحانه:** ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. **وقال سبحانه:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. **وقال سبحانه:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقد أجرى الله على يديه بناءَ بيته ، الذي جعله قياماً للناس ، ومثابة وأمناً ، وعهد الله إليه ولابنه تبعاً تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذِ مقامِهِ مصلى ، **قال سبحانه:** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. **وقال تعالى:** ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقد حصر اللهُ النبوّة والكتابَ من بعده في ذريته عليه الصلاة والسلام **قال سبحانه:** ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فلم يأتِ نبيٌّ بعد إبراهيم إلاّ من ذريته ، وهو عليه الصلاة والسلام أول من يُكْسَى يومَ القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابنِ عباسٍ قال: قام فينا النبي ﷺ يخطبُ فقال: «**إنّكم محشرونَ**

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٧٠).

حُفاةً عراةً غُرْلاً ـ كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نعيده ـ الآية وإنّ أوّلَ الخلائقِ يُكْسَىٰ يومَ القيامةِ إبراهيمُ»(١) .

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين **قال سبحانه :** ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ٤١]. فجمع له بين الصديقية والنبوة ، وفضائله عليه الصلاة والسلام أكثرُ من أن تحصَى ، وما علمناه غيضٌ من فيضٍ مما جهلناه في إبراهيم عليه الصلاة والسلام(٢) .

● **نوح عليه السلام :**

فقد جاهد في الله حقّ جهاده ، وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم ، واجتيال الشيطان لهم ، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً ، سراً وجهراً ، صابراً على أذى قومه ، لا تُثنيه عن الدعوةِ إلى ربه سفاهاتهم وتعدّياتهم ، **قال سبحانه :** ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت : ١٤ ـ ١٥]. **وقال سبحانه** في نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ١٠]. **وقال سبحانه عن قوم نوح :** ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٣].

● **موسى عليه السلام :**

وأمّا موسى عليه السلام فهو كليمُ الله ، اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية ، **قال سبحانه :** ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤]. **وقال سبحانه :** ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ**

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٩٤) فتح الباري (١١/ ٣٧٧).

(٢) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٤٣).

أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤]. وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضعَ من كتاب الله، وهو عليه السلام المعنيُّ في **قوله سبحانه**: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد آتاه الله عز وجل تسعَ آياتٍ بيّناتٍ[1] إلى فرعون وقومه، ظهرت بهنّ حجته، وقامت بينته، أيده الله بهنّ، **قال سبحانه**: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]. **وقال عز وجل**: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

● **عيسى عليه السلام:**

فاختُصَّ من بين سائر الخلق بأنّه ولد لأم من غير أب، وإنّما نفخ جبريل في درع جَيْبِ مريم، فحملت بعيسى عليه السلام، وتكلّم في المهد، وآتاه الله من البينات ما فضّله به، كما في **قوله تعالى**: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وحكى الله كلام عيسى في المهد، فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غررٌ: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

وقد **قال سبحانه** في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢٢].

---

(١) التسع هي: العصا، واليد، والسنين، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وكان من الآيات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ما **قاله سبحانه**: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

* وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حيٌّ في السماء، وهو في السماء الثانية كما حديث الإسراء **قال سبحانه** في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨]. وهذا من خصائصه عليه السلام، إذ ليس في الأنبياء حيٌّ إلا هو[(١)].

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان، كما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع، وهذا من خصائصه عليه السلام، **قال سبحانه**: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]. وقد تواترت الأخبار عن النبيِّ ﷺ بنزول عيسى عليه السلام[(٢)]. قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً مقسطاً**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم؟**»[(٤)].

٤ ـ تفضيل نبينا محمّد ﷺ على جميع الخلائق:

محمّدٌ ﷺ هو أفضل الأنبياء على الإطلاق، بل هو خير الخلائق أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرةً فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ

---

(١) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٤٦، ١٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٨).

(٣) البخاري في الفتح (٤/ ٤١٤) مسلم (١/ ١٣٥).

(٤) البخاري في صحيحه مع فتح الباري (٤/ ٤١٤) مسلم (١/ ١٣٥).

بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] والمعنى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ محمد ﷺ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم(١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥]، ذكر المفسرون أنّ الآية في محاجة اليهود، وأنّ المعنى: وإنّكم لم تنكروا تفضيلَ النبيين، فكيف تنكرون فضل النبيِّ ﷺ(٢)؟!.

وقد احتجّ العلماء **بقوله تعالى** في الأنعام: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] لكون النبي ﷺ أفضل الأنبياء، لأن ما تفرّق في الأنبياء من خصال الفضل اجتمعت فيه ﷺ(٣).

وقال ﷺ: «**أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرْتُ بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيّما رجلٍ من أمتي أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ، وأحلَّتْ ليَ الغنائمُ، وكان النبيُّ ﷺ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصةً، وبُعِثتُ إلى الناسِ كافةً، وأعطيتُ الشفاعة**»(٤).

وفي أحاديث الشفاعة في بيان فضله ﷺ على الأنبياء ما هو ظاهرُ، وقد وصف النبيُّ ﷺ ذلك اليوم بأنّه يومٌ يرغبُ إليه فيه الخلقُ كلّهم حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام(٥).

وقال ﷺ: «**آتي بابَ الجنةِ يومَ القيامةِ فاستفتحُ، فيقول الخازنُ: مَنْ أنت؟ فأقولُ: محمّد، فيقولُ: بكَ أمرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلكَ**»(٦).

وقال ﷺ: «**أنا أكثرُ الأنبياء تَبَعاً**»(٧).

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٤).
(٢) تفسير البغوي (٣/ ١٢٠) تفسير السعدي (٤/ ١٤٣).
(٣) تفسير الخازن (٢/ ١٥٧).
(٤) صحيح مسلم (١/ ٣٧٠) فتح الباري (١/ ٥٣٣).
(٥) صحيح مسلم (١/ ٥٦٢).
(٦) مسلم في صحيحه (١/ ١٨٨).
(٧) المصدر نفسه (١/ ١٨٨).

وقال ﷺ: «**أنا سيّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ، وأوّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عنه القبرُ، وأوّلُ شافعٍ، وأوّلُ مُشَفَّعٍ**»(١).

وقال ﷺ: «**أنا أكثرُ الأنبياءِ تبعاً**»(٢)، وقال: «**لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإنّ من الأنبياءِ ما يصدقه من أمته إلّا رجلٌ واحدٌ**»(٣).

وقال ﷺ: «**أنا سيّدُ ولدِ آدمَ ولا فَخْرَ**»(٤). وفي معنى: (ولا فخر): أي: لا أتبجّحُ بهذه الأوصاف، وإنّما أقولها شكراً لربِّي، ومنبهاً أمتي على إنعامه عليّ، وإنّما نفى الفخرَ الذي هو الكِبْرُ الواقع في النفس، المنهيُّ عنه، الذي قيل فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: ١٨]. ولم ينفِ فخرَ التجمّل بما ذكره من النعم التي بمثلها يُفْتَخَرُ، ومثله **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. يعني الأشرينَ، ولم يُرد الفرحَ بنعمة الله تعالى(٥).

وقد **قال سبحانه**: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فأمر سبحانه بالفرح بفضله(٦).

ولقد أجمعت الأمة على أنّه أفضل الخلق(٧).

د ـ توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء:

لا بدّ من اعتقادِ التفاضل بين الأنبياء، واعتقادِ فضل الرسل على الأنبياء، وفضلِ أولي العزم على بقية الرسل، وفضلِ محمّد ﷺ على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصةً

(١) مسلم في صحيحه (١٧٨٢).
(٢) المصدر نفسه (١/١٨٨).
(٣) المصدر نفسه (١/١٨٨).
(٤) صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/٢١).
(٥) صفة الصفوة، لابن الجوزي (١/١٨٣).
(٦) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٥٣).
(٧) المصدر نفسه ص (١٥٣).

على بعض الأنبياء[١] ، فقد قال ﷺ: «**لا تفضّلوا بينَ الأنبياء**»[٢] وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ ، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ، ضربَ وجهي رجلٌ من أصحابك ، فقال: «**أضربته؟**» قال: سمعتُه بالسوق يحلِفُ: والذي اصطفى موسى على البشر ، قلت: أي خبيث ، على محمّد ﷺ ، فأخذتني غضبةٌ ، فضربتُ وجهه ، فقال النبي ﷺ: «**لا تخيّروا بين الأنبياء**»[٣] . وفي رواية: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**»[٤] .

وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: «**لا تخيّروني على موسى**»[٥] .

وفي حديث ثان قال ﷺ: «**لا ينبغي أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى**»[٦] .

والحاصل أنّ في الحديثين ينهى رسول الله ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء ، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصّةً .

حُمِلَ الحديث في يونس على أنّ النبي ﷺ هو المراد ، وهو أفضل منه ومن سائر الأنبياء ، وجميع الخلق قطعاً ، كما تقدّمت الدلائلُ عليه من الكتاب والسنة والإجماع ، وقد وجّه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال في أقوال متعددة منها:

* أن النهي وردَ قبل أن يعلمَ النبيُّ ﷺ أنّه سيدُ ولد آدم ، وأنّه أفضلُ الأنبياء ، فلما علم أخبر به ، وأنّ النهيَ عن التفضيل منسوخ بالقرآن[٧] .

* أنّ النهيَ من باب التواضع ، وهضم النفس ، ونفي الكبر والعجب .

* أنَّ المرادَ بالنهي منعُ التفضيل الذي يؤدّي إلى الخصومة والتشاجر ، وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع المسلم عند النبي ﷺ كما في حديث

---

(١) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٥٨).
(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٥٠) مسلم (٤/ ١٨٤٤).
(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ٧٠) ، مسلم (٤/ ١٨٤٤).
(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٥٠) ، مسلم (٤/ ١٨٤٤).
(٥) مسلم (٤/ ١٨٤٤).
(٦) مسلم (٤/ ١٨٤٦).
(٧) الشفا (١/ ٢٢٦) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢).

أبي سعيد وأبي هريرة ، فهذا التوجيه ملائمٌ لسبب ورود الحديث[١] .

* أنَّ المرادَ بالنهي منع التفضيل الذي يؤدّي إلى توهم النقص في المفضول ، أو الغضّ منه ، والإزراء به[٢] .

* * *

(١) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (١٥٣).

(٢) المصدر نفسه ص (١٦٤).

الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً ـ الوحي .

ثانياً ـ إثبات النبوة .

ثالثاً ـ المعجزات .

رابعاً ـ القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى .

خامساً ـ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر .

* * *

الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً ـ الوحي:

١ ـ تعريف الوحي في اللغة والاصطلاح:

أ ـ الوحي في اللغة:

اسمُ مصدر من أوحى إليه، إذا أعلمه بمراده في سرعةٍ وخفاء، ويدور من ثَـمَّ معنى الكلمة في اللغة على الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجَّه له، بحيث يخفى على غيره مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام وواسطته، لذلك يطلق الوحي على: الإلهام، والإيحاء، والإشارة، والكناية، والأمر، والرسالة، والكلام الخفي، وكل ما ألقيتَه إلى غيرك[١].

ب ـ الوحي في لسان الشرع:

إعلامُ الله تعالى مَنْ اصطفاه من عبادِه ما أرادَ إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلمِ بطريقةٍ غيرِ معتادةٍ للبشر مع الوعي والإدراكِ التامّ لكلِّ ما يتلقّى[٢].

٢ ـ أنواع الوحي:

تعدّدت طرق الوحي وأنواعه، **قال تعالى**: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]. وهي كما يلي:

---

(١) انظر: الصحاح الجوهري (٦/ ٢٥٢) تهذيب اللغة، الأزهري (٥/ ٢٩٧).

(٢) مناهل العرفان، الزُّرقاني (١/ ٦٣).

أ ـ الرؤيا الصادقة :

الرؤيا الصادقة الصالحة كانت أوّلَ ما بُدِئَ ﷺ به من الوحي ، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها ـ قالت : أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح(١) ، وشُبِّهت بفلق الصبح لظهوره ، ووضوحه ، وكذلك الرؤيا ، وقوعها حقٌّ لا مرية فيه(٢) . وكان بَدْءُ الوحي للنبي ﷺ بالرؤيا الصالحة إرهاصاً للنبوة(٣) .

ورؤيا الأنبياء من الوحي ، **قال تعالى** : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] .

وقال تعالى في شأن نبينا محمد ﷺ : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧](٤) .

ب ـ أن يلقي المَلَكُ في روع النبيِّ ﷺ وقلبه دون أن يراه ، كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنّ جبريلَ عليه السلام ألقى في روعي أنَّ أحداً منكم لن يخرجَ مِنَ الدُّنيا حتّى يستكملَ رزقه ، فاتّقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأَ أحدٌ منكم رزقَه ، فلا يطلبْه بمعصيةِ الله ، فإنّ الله لا ينالُ فضلُه بمعصيتِه**»(٥) ، وفي رواية : «**فإنَّ الله لا يُنالُ ما عنده إلا بطاعته**»(٦) .

---

(١) مسلم رقم (٢٥٢).

(٢) فتح الباري (١/ ٣١).

(٣) أصول الاعتقاد في سورة يونس ، القحطاني ص (٢٣٤).

(٤) المصدر نفسه ص (٢٣٥).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤).

(٦) سنن ابن ماجه رقم (٢١٤٤).

ج ـ أن يـأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس فيتلبّس به ، وهو أشدّه على النبيّ ﷺ.

روى البخاريُّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيفَ يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثلَ صلصلة**[١] **الجرس وهو أشدُّه ، فَيَفْصِمُ عنِّي ، وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً ، فيكلّمني فأعي ما يقولُ**» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإنَّ جبينَه ليتفصّدُ عَرقاً[٢].

وهذا النوع من الوحي كان من أشدِّ أنواع الوحي ، وكان الرسول ﷺ يعاني منه مشقةً عظيمةً ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

ففي (صحيح مسلم)[٣] عن عبادة بن الصامت قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكسَ برأسِهِ ، ونكسَ أصحابُه رؤوسَهم ، فلمّا سُرِّيَ عنه رفع رأسه.

وعن زيد بن ثابت قال: إذا نزل الوحيُ على الرسولِ ﷺ ثقلَ لذلك ، وتحدّر جبينُه عرقاً ، كأنّه الجُمان ، وإن كان في البردِ[٤].

وعنه أيضاً فيما يروي عنه: أنّ رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]. فجاءه ابنُ أمِّ مكتوم وهو يُملّها عليَّ ، قال: يا رسول الله ، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذُه على فخذي ، فثقلتْ عليَّ حتّى خِفْتُ أن ترضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥][٥].

د ـ مجيء الرسول الملكي في صورة بشر:

وهذه الحالةُ من أيسرِ الأنواعِ ، إذ يرى الرسولُ ﷺ المَلَكَ ويخاطِبُه ، ويعي

---

(١) الصلصلة: صوت الحديد إذا حرّك.
(٢) البخاري رقم (٢).
(٣) مسلم رقم (٢٣٣٥).
(٤) صحيح الجامع للألباني رقم (٣٧٩٢).
(٥) البخاري رقم (٤٣١٦).

منه ما يقول ، وقد يشاركُه في الرؤيةِ غيرُه من أصحابه ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبيِّ رضي الله عنه ، وجاءه مرةً في صورة أعرابي ، فدخل المسجدَ ، وجلس إلى النبي ﷺ ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، وأخذ يسأل الرسول ﷺ ، والرسولُ ﷺ يجيب ، وهو يصدِّقه بقوله: «صدقت» حتى عجِبَ الصحابة منه ، كيف يسأله ويصدّقه ، ولمّا انصرف ، أمر الرسول ﷺ أصحابَه أن يردّوه عليه ، فطلبوه ، فلم يظفروا به ، فقال ﷺ: «**هذا جبريلُ جاءَ ليعلّم الناسَ دينهم**»[١].

وفي نزول جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

والوحي بواسطة الملك هو الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] ، وهذا الرسولُ في الغالبِ هو جبريل عليه السلام ، وقد يكونُ غيره ، وذلك في أحوال قليلة[٢].

هـ ـ رؤية الملك بصورته التي خلق الله عليها: فيوحي إلى الرسول ما شاء الله أن يوحيه ، وقد وقع هذا للرسول ﷺ مرّتين ، كما جاء في سورة النجم ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

فقد رأى رسول الله ﷺ جبريلَ مرّتين ، فقد قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾: «**إنّما جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادّاً ما بين السماء والأرض**»[٣].

فأما الأولى ، فكانت في الأرض بُعيدَ بعثته ﷺ بعد أن فتر الوحي. روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول في فترة الوحي: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصري ، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِرَاءَ جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض ، فرعبتُ منه ،**

---

(١) مسلم (١/ ٣٠).
(٢) الرسل والرسالات للأشقر ص (٦٣).
(٣) مسلم رقم (١٧٧).

فرجعتُ قلتُ: زمّلوني زمّلوني ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥]. **فحمى الوحي وتتابع**»(١).

وأما الثانية ، ففي السماء ليلة الإسراء والمعراج ، روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٣] ، قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ جبريلَ عند سدرةِ المُنْتَهىٰ عليه ستمئة جناحٍ ، ينثرُ مِنْ ريشهِ التهاويلَ والياقوت**»(٢).

و ـ تكليم الله عز وجل لرسوله بلا واسطة ملك من وراء حجاب:

تكليمُ الربِّ لعبده من وراء حجاب ، كما كلّم الله موسى عليه السلام ، وقد ذكر الله سبحانه تكليمه موسى عليه السلام في كتابه حيث **قال تعالى:** ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. **وقال تعالى:** ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، **وقال تعالى:** ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣٠ ـ ٣١](٣).

وكما كلّم الله محمداً ﷺ ليلةَ المعراج ، عندما فرض عليه الصلوات الخمس(٤) ، كما كلّم الله آدم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥](٥).

وجميع هذه المراتب ثبتت لنبينا محمد ﷺ وهذا من خصائصه(٦).

و ـ وحي الإلهام والإرشاد: أمّا بالنسبة لوحي الإلهام والإرشاد فهو عام ، ولا يختصّ بالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وهو المذكور في **قوله تعالى:**

---

(١) البخاري رقم (٤) مسلم رقم (١١٦).
(٢) مسند أحمد (١/٤٢١) تفسير ابن كثير ، وقال إسناده جيد.
(٣) العقيدة الإسلامية ص (٢٢١).
(٤) البخاري رقم (٣٤٩).
(٥) أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (٢٤٧).
(٦) المصدر نفسه ص (٢٤٨).

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].

ومنه أيضاً **قوله تعالى**: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، وهذا وحيُ إلهامٍ وإرشادٍ، لأنّ من شرط النبوة الذكورةَ، كما بينا سابقاً.

ومن الإلهام **قوله تعالى**: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

والإلهامُ: هو شيءٌ يوقعه الله في رَوْع مَنْ كُتِبَ له ذلك، فيلقيه إلى الناس، فيكونُ مطابقاً للواقع، وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل، ولا من باب تلقين الشيطان(١).

والفرق بين الإلهام والوحي، أنّ الوحي معصومٌ من الخطأ، أما بالنسبة للإلهام فليس معصوماً، فقد يقعُ وقد ولا يقع(٢).

ومن الإلهام ما يجري على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقد كان فيمن قبلَكم منَ الأمم ناسٌ محدثون، فإن يكُ في أُمّتي أحدٌ فإنّه عمر**»(٣)، والحديث إلهام خاص(٤).

ويأتي الوحي بمعنى الإيماء والإشارة، فقد سمّى القرآنُ إشارةَ زكريا إلى قومه وحياً: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١](٥).

وأكثر ما وردت كلمة (وحي) في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩، ٤٤ ـ ٤٥).
(٢) أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (٢٥١).
(٣) البخاري رقم (٣٤٨٦).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥٤).
(٥) الرسل والرسالات ص (٦١).

اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غيرِ معتادةٍ للبشر[١] .

ثانياً ـ إثبات النبوة:

تعددت الأدلة والآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، فمنها :

١ ـ **الأنبياء أعدل الناس طريقة** ، وأصدقهم لهجة ، وأكثرهم وقاراً ، وأزهدهم في المال والجاه ، وأرفضهم لحُبِّ الدعة والراحة[٢] ، هذا مع كثرة المحن والابتلاء عليهم ، فما زادهم ذلك إلا ثباتاً ، فما ليّنَتْ الشدائدُ لهم قناة ، ولا فتّرت المكايدُ لهم عزماً[٣] ، ومع ذلك كلِّه ما جافوا في حكمٍ على عدو ، ولا شهدوا بغيرِ الحقِّ لصديقٍ .

فنوحٌ عليه السلام لبث في قومه ألفَ سنةٍ إلاّ خمسين عاماً لا يدعوهم إلا إلى الله ، ولا يطلبُ منهم غرضاً دنيوياً ، ولا مقصداً عاجلاً ، وليس له في دعوته هوًى ولا شهوة .

وخاتم الأنبياء وسيد ولد آدم أجمعين ﷺ ، عُرِضت عليه الدُّنيا مُلكاً ورئاسةً ومالاً ، على أن يتركَ ما يدعوهم إليه ، فأبى ذلك ، وسَرْدُ ذلك يطول عن سائر الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين .

٢ ـ **معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم** الذين جُبِلَتِ الطباع على محبّتهم ، وعلى رجاءِ الاستغفار لهم ، بحيث تركوا مناهجَ آبائهمَ ، التي ولع الطبع باتباعها ، وعادَوْا عشيرتهم التي يتقي مِنْ كلِّ عدوٍّ بمحاماتها ، ولقوا في الصبر عنهم الحتوف ، ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف[٤] .

فنوحٌ عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده يغرقُ مع الغرقى ، مع رجائه له أن يكون من الناجين ، ودلّه على ما ينجيه ، وهو ترك الكفر بالله ، ثم إنه استغفر من

---

(١) المصدر نفسه ص (٦١).

(٢) البرهان القاطع في إثبات الصانع جميع ما جاءت به الشرائع ، لابن الوزير ص (٨) الشفا (١/ ١٧٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية (٥/ ٤٥٦ ـ ٢٨٢).

(٣) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (٢/ ٥٦٢).

(٤) المصدر نفسه ص (٢/ ٥٦٢).

دعائه له ، **فقال تعالى** : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

وإبراهيم ﷺ تبرّأ من أبيه لما أصرّ على كفره ، **قال الله تعالى** : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤][١].

٣ ـ أنهم حصلت لهم أغراضهم النبيلة من النصرة ، والنجاة من الهلاك ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

وقد استدل بهذا قيصرُ الروم على صِدْقِ نبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ لما ذكر له أبو سفيان ـ وكان وقتئذٍ مشركاً ـ ذكر له أنّ الحرب سجالٌ بينهم وبينه ، فقال هرقل: هكذا الأنبياءُ تبتلى ، ثم تكونُ العاقبةُ لهم[٢].

وفي المقابل أهلك الله مَنْ خالفهم وعاداهم ، فأغرقَ قومَ نوح ، وكان غرقهم آيةً لم يستطيع دفعَها إنسٌ ولا جان ، ومسخَ أهلَ السبتِ قردةً وأهلكهم ، وكان ذلك آية ، وأهلك عاداً وثمودَ ، مع قوتهم وشدة بطشهم ، ولنا طريقان إلى العلم بذلك[٣] ما يعاينُ ، وما يعقل بالقلوب ، فقد ترك لنا الله آيات مرئية ، كمساكن ثمود ، كما **قال الله تعالى** : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

والطريق الثاني: ما يسمع وهو متواتر ، فإنّ العلم بأنّه قد وُجِدَ أنبياء ، وحصل لهم ولأتباعهم النصر على أعدائهم ، وأنّ المكذّبين لهم ، منهم من أغرق ، ومنهم من خُسِفَ به ، ومنهم من أُرسلَ عليه الريحُ العقيم ، العلم بذلك متواتر ، ومعلوم علماً ضرورياً ، ويقول الله عَقِبَ ذكره لإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٨][٤].

---

(١) مسائل أصول الدين ص (٢/ ٥٦٣).
(٢) البخاري رقم (٩٢٤١).
(٣) مجموع الفتاوي (٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤).
(٤) مسائل أصول الدين (٢/ ٥٦٤).

إن تأييد الله لرسله ، ونصرته لهم ، ذو تأثير كبير على نفوس الناس ، فإنّ العرب لما رأت انتصار الإسلام صدّقت ، وآمنت ، ودخلت في دين الله أفواجاً ، **قال تعالى**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [١ ـ ٢].

إنّه يستحيل على الله أن يتقوّل عليه متقوِّلٌ ، فيدعي أنّه مرسلٌ من عند الله ، وهو كاذب في دعواه ، ثم بعد ذلك يؤيده وينصره ، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته ، وقد أشار الله إلى هذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] ، فحكم بعدم الفلاح وقال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦][(١)].

٤ ـ زهدهم في الدنيا وإطراحهم للأهواء ، وقلقهم من هول المعاد الأخروي ، وتقطُّع نياط قلوبهم خوفاً من العذاب السرمدي ، وهو شيء عُلِمَ منهم أنّه جدٌّ لا مزاحَ فيه ولا هزل ، وحقٌّ لا تصنّع فيه ولا تكلّف ، وكيف ، والتكلّف لا تخفى آثاره ، ولا تستمر لصاحبه أحواله[(٢)]!!.

والناسُ يميّزون بين الصادق والكاذب خاصةً في دعوى النبوة ، فإنّه يدعيها أصدق الصادقين ، أو أكذب الكاذبين ، والنبوّة مشتملةٌ على علوم وأعمال هي أشرفُ العلوم والأعمال ، فكلّها صدقٌ وعدلٌ واستقامةٌ في الأعمال بخلاف الكاذب ، فلابدّ أن يظهرَ عليه ما يدلُّ على بطلانِ دعواه من الكذب والفجور[(٣)] ، فلابدّ أن يظهرَ في أقواله كذبٌ واختلافٌ ، وفي أفعاله زَيْغٌ وانحراف ، **يقول الله تعالى**: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٦].

إنّ الرسلَ أزهدُ الناسِ في متاع الدُّنيا وعرَضها الزائل ، وبهرجها الكاذب ، لا يطلبون من الناس الذين يخاطبونهم أجراً ولا مالاً ، فهم يبذلون الخير ،

---

(١) الرسل والرسالات ص (٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٢) البرهان القاطع ص (١٢) الشفا (١/ ١٧٩) ، مسائل أصول الدين (٢/ ٥٦٥).

(٣) الجواب الصحيح (٥/ ٣٥٧ ـ ٤١١) ، شرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٠).

ولا ينتظرون منهم جزاءاً ولا شكوراً ، وقد قصَّ الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ، ولوط وشعيب ، وكل منهم يقول لقومه : ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

فهذا آخرُ الرسل يأمره الله بمثل ذلك : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٥٧][(١)].

٥ ـ **أنّ جمعاً منهم تمكنوا من الدنيا** ، واستولوا على ما يحبُّ الناسَ منها ، فلم تتغيّر لهم طريقة ، ولم تتحوّل لهم سجيةٌ ، ملك سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، فخدمته الطيرُ وحُشِرت معه ، وحملته الريحُ على متنها ، وسُخِّرت له ، ودانت له ملوك الإنس ، وخضعت له عفاريتُ الجنّ ، وكان البساطُ يحمله في أرجاء الأجواء مستقرّاً على متن الريح الخفاقة ، وكانت الطيرُ تظلّه ، وكانت الأرض في يده ، وكانت أوامره مطاعة ، والخلائق له طائعة[(٢)] ، ومع ذلك كان في غاية التواضع ، قائماً بأمر الله ، لا يعصيه .

وسيد المرسلين محمد ﷺ كانت حاله مستقيمة ، وأخلاقه على الكمال في كل أوقاته بعد أن تغلّب على أعدائه ، وقبل ذلك ، وقد توفى ﷺ وليس عنده درهم ولا دينار يورّثه ، وبقيت له درع مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير ابتاعها لأهله[(٣)] ، وكل ذلك من دلائل الصدق[(٤)] .

٦ ـ **قوّة يقينهم بوعود الله ، وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله** ، وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس ، والإلقاء بها إلى التهلكة ، كقول نوح عليه السلام لقومه مع كثرتهم وقوتهم ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس : ٧١] وقال هود عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) الرسل والرسالات ص (٢٠١).

(٢) البرهان القاطع ص (١٣).

(٣) البخاري رقم (٢٩١٦).

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٤٤٠) مسائل أصول الدين (٢/ ٥٦٧).

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٧].

٧ ـ **أنها ظهرت لأجلهم خوارقُ العادات، وبواهِرُ المعجزات**: من غير ممارسةٍ لشيءٍ من علوم الطبائعيين والمرتاضين، والمتفلسفين والمنجّمين، والمتكهنين، والمصاحبين للجنّ والشياطين، وأخبروا عن الغيوب، واتّصلوا في خرق العادات إلى مرتبةٍ قصّر عنها أهلُ الدراية في فنون هذه العلوم(١).

يأتي الحديثُ عنها مفصلاً في المعجزات بإذن الله تعالى ممّا يدلُّ على أنّ ما جاءوا به ممّن لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، لكونها من عند الله سبحانه وتعالى.

٨ ـ **عدم اختلافهم**، فأخبارُهم كلُّها صدقٌ، ولا تناقُض بينها، وما جاءوا به من الأعمال وتفاصيل الشرائع دالٌّ على أنّ ما جاءوا به هو من عند الله العزيز العليم الحكيم. ألا ترى أنَّ النجاشيّ لما استخبر من هاجر من الصحابة إلى الحبشة عمّا يخبر النبي ﷺ به، واستقرأهم القرآنَ، فقرؤوا عليه، فقال: (إنّ هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ)(٢)، وكذلك ورقة بن نوفل لمّا قالت له خديجة رضي الله عنها: أي عمِّ، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال: هذا الناموسُ الذي أنزل الله على موسى(٣)، وكذلك هرقل لما سأل أبا سفيان: بماذا يأمركم؟ أجاب: يأمرنا أن نعبدَ الله وحده، لا نشركَ به شيئاً، وينهانا عمّا كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال هرقل: وهذه صفةُ نبيٍّ(٤).

٩ ـ **عجز من عاصرهم عن عدِّ كذبة واحدة على واحدٍ منهم**، في جميع عمره، من جميع الأمور التي ادّعاها، وكان هذا من الدلائل عند هرقل، إذ سأل

---

(١) البرهان القاطع ص (١٤).
(٢) البخاري رقم (٣) مسلم رقم (١٦٠).
(٣) البخاري رقم (٢٩٤١).
(٤) البخاري رقم (٢٩٤١).

أبـا سفيـان: فقـال: أكنتم تتهمونـه بالـكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فعرفتُ أنّه لم يكنْ ليدعَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله(١).

١٠ ـ نسبهم وسيرتهم وأخلاقهم: فهم الأحسنُ في ذلك كله، وقد سأل هرقلُ أبا سفيان عن نسب رسول الله ﷺ فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، قال هرقل: كذلك الرسلُ تبعث في نسبٍ من قومها(٢)، وقد قالت خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ أول نزول الوحي عليه: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنّك لتصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلَ الكلَّ، وتَقْرِي الضيفَ، وتعينُ على نوائبِ الحقِّ(٣).

قال قوم صالح لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]. مع كمال أمانتهم، وعدم غدرهم.

وكان من أسئلة هرقل لأبي سفيان عن صفة النبيِّ ﷺ: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال هرقل: وكذلك الرسلُ لا تغدر(٤).

١١ ـ البشارة بمبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ في الكتب السابقة: فقد وردت صفته في التوراة والإنجيل، وذكر مكان ظهوره، وصفة أمته، وخاتم النبوة بين كتفيه على ظهره، وما يحصل له من الهجرة والتمكين والنصر على أعدائه، وظهوره على الدين كله، فكان ذلك كما أخبر الله، وقد أسلم بذلك كثيرٌ من أهل الكتاب، ولا يكون الخبر بذلك إلا من عند علام الغيوب، الذي بيده الأمر كله(٥). **قال تعالى**: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. **وقال تعالى**: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

فالآية تبيّنُ أنّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء

---

(١) البخاري رقم (٢٩٤١).
(٢) البخاري رقم (٢٩٤١).
(٣) مسائل أصول الدين (٢/ ٥٧٠).
(٤) البخاري رقم (٢٩٤١).
(٥) مسائل أصول الدين (٢/ ٥٧١).

به علمُ بني إسرائيل بذلك ، وهو علمٌ مسجّلٌ محفوظٌ مكتوبٌ في كتبهم التي تداولونها ، كما **قال تعالى** : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٦][١] . **وقال تعالى** : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم ، وابنه نبيِّ الله إسماعيل عليهما السلام ، وكان محمد ﷺ هو تأويلُ تلك الاستجابة[٢] .

وقال تعالى : ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧] .

وضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد ﷺ ولأصحابه : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح : ٢٩] .

ثالثاً ـ المعجزات:

لم يـرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلحُ المعجزة ، وإنّما ظهر هذا المصطلح في وقتٍ متأخر بعضَ الشيء ، عندما دوِّنت العلوم ، ومنها علمُ العقـائد ، في أواخر القرن الثاني الهجري وبدايـة الثالث ، لذا نجد أنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة : (الآية) في صدر إعطاء الدلائل للرسل عليهم

(١) الرسل والرسالات ص (١٦٢) .
(٢) الرسل والرسالات ص (١٦٣) .

الصلاة والسلام لمحاجّة الأقوام ، **يقول تعالى**: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

كما استعمل القرآن الكريم تارة لفظة البينة ، كما في **قوله تعالى**: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]. والبينة هي الدلالةُ الواضحةُ عقليةً كانت أو حسية.

وتارة يستخدم القرآن لفظة البرهان ، **يقول تعالى**: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

والبرهان بيّن للحجة ، وهو أوكد الأدلة ، ويقتضي الصدقَ لا محالة[١].

كما يأتي التعبير عن المعجزة أحياناً بالسلطان ، **قال تعالى**: ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولعلّ اختيارهم هذا المصطلح بدلاً من الآية والكلمات الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم ، كما في **قوله تعالى**: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] ، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته كما في **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وبين الآية بمعنى البناء العالي ، كما في **قوله تعالى**: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] ، وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات الآخرى[٢].

١ ـ تعريف المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بالتحدّي ، سالمٌ عن المعارضة ، يظهره الله على يدِ رسله[٣].

فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ،

---

(١) مفردات الراغب ، الأصفهاني ص (٤٥).

(٢) مباحث في إعجاز القرآن ، د. مصطفى مسلم ص (١٤).

(٣) المصدر السابق ص (١٤) الإتقان ، للسيوطي (٣/٤).

ولا تخضع للأسبابِ والمسبباتِ ، ولا يمكن لأحدٍ أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي ، وإنّما هي هبة من الله سبحانه وتعالى ، يختار نوعها وزمانها ليبرهنَ بها على صدق رسوله الذي أكرمه بالرسالة.

والسحرُ والأعمالُ الدقيقة التي يمارسها بعضُ أهل الرياضيات البدنية أو الروحية لا يدخلُ تحت اسم الخارق ، لأنّ لكلٍّ من تلك الأمور أساليبَ ووسائلَ يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يتعلّمها ويتقنها ويمارسها ، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج.

أما الأمور الخارقة فلا تدخلُ تحت طاقة البشر، وليست لها أسباب تؤدي إليها[(١)].

٢ ـ شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلّمس شروطها:

أ ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: سواء كان هذا الأمر الخارق **من قبيل الأقوال** ، كتسبيح الحصى ، وحنين الجذع ، ومثل القرآن الكريم ، أو يكون من قبيل الفعل ، كانفجار الماء بين أصابع الرسول ﷺ ، وتكثير الطعام القليل ، وكفايته للجمع الكثير ، أو **من قبيل الترك**: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعدم إغراق الماء لموسى وقومه ، وعدم سيلانه عليهم.

ب ـ أن يكون الخارق مِنْ وضع الله وإنجازه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

فالمعجزةُ هبةٌ من الله سبحانه وتعالى ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يعيّنَ زمانها ونوعها: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

ج ـ سلامتها من المعارضة: فلو استطاع الخصمُ أن يأتي بمثل ما جاء به النبيُّ

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن ص (١٤).

بطلت حجته ، ولم يسلّم له ادعاؤه أنّ هذه الخارقة أو هذا الأمرَ دليلٌ على صدقه ، وأمارةٌ على بعثِهِ من قبل الله سبحانه وتعالى .

د ـ أن تقع على مقتضى من يدِّعيها : يشترط في المعجزة أن تكون موافقة لقول مدّعيها ، غير مخالفة له ، سواء كان هذا الأمر مطابقاً لطلب المعاندين ، أو مخالفاً له ، لأنّ الرسول يبلِّغ عن ربه في تحديد نوع المعجزة وزمانها ، ولا دخل له في هذا التعيين ، فإذا جاءت المعجزةُ على وجهٍ غير الوجه الذي عيّنه الرسول لم تكن دليلاً على صدقه ، بل تثيرُ عندئذٍ الشكوك حول ادّعائه .

ومن هذا القبيل ما وقع لبعضهم ممّا يطلق عليه العلماء (اسم الإهانة) فإذا مسحَ على المريضِ ليُشفى فمات ، أو بصق في البئر لتكثير مائه فغار ، كما ذكرت بعض الروايات في شأن مسيلمة الكذاب ، فلا تكون معجزةً ، إنما هي إهانةٌ له ، ودليلٌ على كذبه .

ج ـ التحدّي بها : وهذا شرطٌ أساسي في المعجزة لإثباتِ عجز الجاحدين ، وإقامة الحُجّة عليهم ، فإنّ عدم التحدي لمعجزة لا يبرزهَا كدليلٍ وبرهانٍ لكي لا يقول قائل فيما بعدُ : إنّه لو تحدّى بالمعجزة القومَ لتمكَّنوا من الإتيان بها ، والتحدّي يكونُ بالقول الصريح بأن يقولَ الرسولُ : دليل صدقي وصحة ما جئت به هو عجزكم عن الإتيان بمثل هذا الأمر الذي أفعله ، وهذا هو الغالبُ في معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام[(١)] .

هـ ـ أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على الله عز وجل : أي يجعلها الرسول دليلَ صدقٍ رسالته ، لإثباتها ، وينسب إليه هذا الأمر إلى الله عز وجل ، فيقول مثلاً : آيتي أن يقلبَ الله سبحانه وتعالى هذه العصا ثعباناً ، أو أن يُحييَ الله سبحانه وتعالى هذا الميت عند قولي له (قم) .

و ـ تأخّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة :

لأنّه بمثابة الشاهد ، ولا يقوم الشاهِدُ إلا بعد قيام الدعوى ، أما إذا تقدّم على دعوى الرسالة ، فيكون من قبيل (الإرهاص) ، وهي الأمورُ التي تتقدّم على

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن ص (١٧).

الرسالة ، وتمهّد لها ، كتظليل السحابةِ لرسول الله ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة(١).

٣ ـ المعجزة قرينةُ الرسالة :

ولولا المعجزةُ لأشكلَ الأمرُ على الناس ، والتبس أمر الصادق بغيره ، ولمّا سلمت الدعواتُ من مدّعين كاذبين ، وتأييد الرسول بآية صدق سنة إلهية في رسالات الأنبياء جميعاً ، والقرآن الكريم يوضّحُ هذه السنة ، ويقرّرها كما ورد في قصص الأنبياء والأمم السابقة ، ولم يؤاخذِ الأقوامَ عندما طالبوا رسلَهم بالآياتِ الدالّة على صدقهم ، إنّما آخذهم عندما عطّلوا ملكاتهم العقلية ، ولم يتدبّروا أثرَ الحكمة والتدبير فيما حولهم ، أو أصرّوا على نوع معيّنٍ من الآيات من قِبَلِ العناد والجحود على العادات الجاهلية الموروثة من الآباء ، الذين لم يكونوا على هدى من ربهم(٢).

إنَّ الرسول لا يتميّز عن سائر الناس بجسمه ولا بكلامه ، فكان لا لابدّ من أمارةٍ تدلُّ على صدقه في سفارته هذه بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه.

وقد يعطى الرسولُ الآيةَ **المعجزة** عند تبليغه الوحيَ أوّل مرة من غير سؤالٍ وتطلّع كما حدث لموسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [النمل: ٨ ـ ١٢].

وقد يُعطاها الرسول بعد تكذيب القوم له ، ومطالبتهم بالآية ، كما حدث لأغلب الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٥].

---

(١) المصدر نفسه ص (١٨).
(٢) مباحث في إعجاز القرآن ص (٢٤).

وعلى الحالتين فإنّها هبةٌ من الله سبحانه لرسله ، فهو المعطي ، وهو الذي يختارُ نوعَها وزمانها ومكانها ، ودورُ الرسول فيها أنّها تتجلّى على يده ، وليس بالضرورة أن تكونَ نفسَ الخارقة التي طلبها القوم ، فإنَّ مدلول الخارقة والإيمان والتصديقِ لصدق الرسول يتحقّق بوجودِ المعجزةِ مطلقاً ، ولا يتوقَّف على نوع خاص من المعجزات ، بل إنّ سنة الله تقضي بتعجيل عذاب الاستئصال للذين لم يذعنوا للآية الخاصة التي سألوها : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨][1] .

٤ ـ سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء :

باستعراض معجزات الأنبياء السابقين ، ومعجزات خاتمهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، نلاحظ أنَّ المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يُرسَلُ الرسول إليهم ، ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ، ورقيِّهم الحضاري ، لتكون الحجةُ أقوى .

أ ـ الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبةً لبيئة العرب الصحراوية ، فمعجزةُ صالح عليه السلام كانت ناقةً غريبة المنشأ والمولد بين نوقِ أهل البادية **قال تعالى** : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٦] .

ب ـ وكان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم استرهبهم فرعون وجنوده به ، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه ، فمن معجزاته الرئيسية : **العصا** : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٢] . **واليد** : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١٢] . فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلفُ عمّا كان متداولاً بين سحرة فرعون[2] ، ولكنّ أهل الدراية

---

(١) المصدر نفسه ص (١٢).

(٢) المعجزة الكبرى ، للشيخ محمد أبي زهرة ص (٤٣٧) مباحث في إعجاز القرآن ص (٢٤).

بالسحر كانوا يميِّزون بين السحر ، وبين ما هو خارج قوى السحرة ، بل من صنع الله ، لذا كانوا أول المؤمنين به.

ج ـ وبعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة الأوربية فيما بعد ، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسبِّبات ، وتولُّد المعلول من العلة في انتظام قائمٍ لا يتخلّف ، فجاءت معجزاتُ أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقةً للأسباب والمسبَّبات ، لتثبتَ أنَّ الكونَ كلّه بإرادةِ مريدٍ مختارٍ لا ليفعل إلاّ ما يريدُ ، ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيءٌ(١).

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلاً جاءت مناهضةً لتلك النظرية التي تقول إنّ المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلّةِ من المعلول ، فكانت حياةُ نبيّ الله سليمان في ملكه تجري على هدم هذا النظر ، فمن معجزاته: **تسخير الجن والطير له ، وتعليمه منطق الطير والحيوان**: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ١٦ ـ ٢٢]. **تسخير الريح له**: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ﴾ [سبأ: ١٢].

د ـ وفي عصر اليونان ازدهر الطب والفلسفة المبنية على الأسباب أيضاً فكانت معجزاتُ عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر.

* **فكانت ولادته** إبطالاً صارخاً لهذه النظرية ، فإنّ المعتاد في حياة الكائنات الحية أنَّ المولود يولد من أبوين ، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب ، فكان ذلك خرقاً للأسباب الطبيعية الجارية: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا

(١) المعجزة الكبرى ص (٤٣٧) مباحث في إعجاز القرآن ص (٢٥).

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٧ ـ ٢٢].

* **وتحدُّثه في المهد** حديث الحكماء: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣٣].

* **وتصويره من الطين كهيئة الطير ثم نفخه فيها فيكون طيراً بإذن الله**: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

هـ ـ وقبل بعثة خاتم النبيين ﷺ بلغت الفصاحةُ والبلاغةُ وفنونُ القول شأواً بعيداً، وأخذت الكلمة مكاناً في نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيءٌ آخر، ممّا حدا بهم أن يُعلقوا المعلّقات السبع في جوف الكعبة، وإذا علمنا أنَّ الكعبة كانت تعتبر أقدسَ مكانٍ عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانةَ الكلمةِ في نفوسهم.

والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أنَّ الإنسانَ إذا أُتِيَ من قِبَلِ ما يعتبره مفخرته، ومجالَ إجادته واعتزازه تكون الحجّةُ عليه أقوى، والمعجِزُ أكثر فعلاً وأثراً.

ولتكون معجزةُ النبي الخاتم ﷺ أشدَّ لمعاناً، وأسطعَ برهاناً، فقد جعل الله معجزته كتاباً متلواً معجزاً، وهو الإنسان الأمي الذي لم يَخُطَّ بيده كتاباً، ولم يتلقَّ من أحدٍ من البشر معرفةً(١).

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن ص (٢٦ ـ ٢٧).

٥ ـ بعض معجزات الرسول ﷺ الحسية:

قد جرى على يد رسولنا صلوات الله وسلامه عليه العديد من الخوارق الحسية والكونية، التي شهد لها مَنْ حضرها آنذاك، وجاءت بها الأخبار الصحيحة، ومن تلك المعجزات الحسية ما يلي:

أ ـ انشقاق القمر:

من المعجزات الخارقة التي أيّد الله بها محمّداً ﷺ حين سألته قريش أن يريَهم آيةً تدلُّ على صدقه، فأراهم انشقاقَ القمر، فلمّا رأوا ذلك قالوا: هذا سحرٌ منه ﷺ لأعينهم، إلاّ أنَّ بعضَ القوم قالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحرَ الناسَ كلهم، فلما سألوا مَنْ قدم عليهم من المسافرين أجابوهم برؤية القمر وقد انشقّ إلى نصفين.

وقد أثبت القرآن هذه المعجزة صراحةً في **قوله تعالى**: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١ ـ ٢]. كما جاءت بها أحاديث صحيحة ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهَم آيةً، فأراهم انشقاقَ القمر(١).

ب ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ على مرأى ومشهد من الصحابة:

ومن ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناسُ يومَ الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوةٌ، فتوضَّأ منها، ثم أقبل الناسُ نحوه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكم**»؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضَّأُ به، ولا نشربُ إلاَّ مِنْ ركوتِكَ، فوضع النبيُّ ﷺ يَدَهُ في الركوةِ، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه، كأمثال العيون قال: فشربنا وتوضَّأنا، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مئةَ ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئةٍ(٢). وقد علّق القاضي عياض على ما ورد من أحاديث حول هذه القصة قائلاً: هذه القصةُ رواها الثقات والعددُ الكثيرُ عن العدد الكبير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة

---

(١) البخاري رقم (٣٦٣٧) مسلم (٢٨٠٢).

(٢) البخاري رقم (٤١٢٥).

متصلاً بالصحابة ، وكان ذلك في مواطن اجتماعِ الكثيرِ منهم في المحافلِ ومجمع العسكرِ ، ولم يَرِدْ عن أحدٍ منهم إنكارٌ على راوي ذلك ، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته[١] .

ج ـ معجزة الإسراء والمعراج :

قد سجل القرآن هذه المعجزة في **قوله تعالى** : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

كما أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك الآيات التي أراد أن يريها لعبده محمّداً في **قوله تعالى** : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٣ ـ ١٨] .

كما سجلت تفاصيلها أحاديثُ الرسول ﷺ[٢] .

د ـ معجزات أخرى :

ومن تلك المعجزات المادية : معجزةُ تكثير الطعام القليل ، حتى أشبعَ العددَ الكثير ، ومعجزةُ حنين الجذع ، واستجابةُ الجماداتِ لدعائه لها ، وأتيانها له ، ومعجزات إبراءِ المرضى ، وردّ ما انفصل من بعض أجزاء الإنسان ، وغير ذلك من الآيات[٣] .

رابعاً ـ القرآن الكريم معجزةُ الرسول ﷺ الكبرى:

إن تلك الآيات المعجزة والعجائبَ الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها وصحّة وقوع حوادثها ، لم يقع بها التحدّي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم ، فقد كانت معجزته ﷺ الكبرى التي وقع بها التحدّي ، وبقيت على مرّ الزمان ، وخوطبت بها البشرية جمعاء ، هي القرآن الكريم ، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال : «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه**

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧).

(٢) البخاري رقم (٣٢٠٧).

(٣) محمد رسول ﷺ ، محمد الصادق عرجون (٢/ ٣٢٧ ـ ٣٦٧).

البَشَرُ ، وإنّما كانَ الذي أُوْتِيتُهُ وحياً أَوْحَاهُ اللهُ إليَّ ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تبَعاً، يومَ القيامةِ»[(١)] ، فتحدى الله سبحانه وتعالى العربَ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتنزَّل معهم في التحدّي ، وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مِنْ مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ولمّا عجزوا عن ذلك ، وظلّوا على عنادهم واستكبارهم ، زادهم تحدياً بأن يأتوا بسورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وظلَّ التحدي قائماً منذ ذلك الحين ، عجزَ عنه فصحاءُ العرب وبلغاؤهم وعجزتْ عنه البشريةُ كلُّها على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة ، فقد كان أولى الناس بالردّ على التحدي أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس.

ولقد كانت معجزاتُ الرسل كلهم مِنْ قبلُ معجزاتٍ حسيةً وكونيةً ، تتعلّق بالسنن الجارية في الكون وتخرقها ، فمعجزتا نوح وهود عليهما السلام كانتا حسيتان كونيتان ، ومعجزة صالح عليه السلام كانت ناقة عجيبة لم يعهد البشر لها مثيلاً.

وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التي أشرنا إليهما آنفاً ، أشياءَ خارقةً للسنن الكونية.

أما معجزة الرسول ﷺ فهي معجزةٌ عقليةٌ معنوية جامعة ، وليست معجزةً

---

(١) البخاري رقم (٤٩٨١).

حسية ولا كونية ، وإن كان للرسول ﷺ معجزاتٌ أخرى حسية وكونية ، كالإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر . . إلخ ، ولكن المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدّي ، والتي بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هي القرآن[١] .

وإعجازُ القرآن الكريم ، لا يقتصرُ على ناحيةٍ معينةٍ ، ولكن يأتي من نواحٍ متعددة ، لفظية ، ومعنوية ، وروحية ، وعلمية ، وتشريعية ، وقد اتفقت كلمةُ العلماء ، كما يقول الشيخ خلاّف ، على أنّ القرآن لم يعجزِ الناسَ على أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة ، وإنّما أعجزهم من نواحٍ متعددة لفظية ومعنوية وروحية ، تساندتْ وتجمّعتْ ، فأعجزت الناسَ أن يعارضوه ، واتفقت كلمتهم أيضاً على أنّ العقول لم تصل حتى الآن إلا إدراك نواحي الإعجاز كلّها ، وحصرها في وجوه معدودةٍ ، وأنّه كلّما زادَ تدبّر سننه أظهر مرُّ السنين عجائبَ الكائنات الحية وغير الحية ، وتجلّت نواحٍ من إعجاز ، وقام البرهانُ على أنه من عند الله[٢] .

١ ـ الإعجاز اللغوي :

قد بلغت بلاغةُ القرآن ، وجزالةُ ألفاظه ؛ وروعةُ أساليبه ، وإحكامُ نظمه درجةً بهرت العرب ، وأدركوا أنَّ هذا الكلام الذي يسمعوه لا يشبه الشعر الذي يقرضونه ، ولا النثرَ الذي يتعاطونه ، وقد شهد بذلك الوليد بن المغيرة ، حينما بعثتْ به قريشٌ ليحاجَّ الرسول ﷺ ، فعاد إليهم قائلاً : وماذا أقول؟ فواللهِ ما فيكُم رجلٌ أعلمُ بالشعر مني ، لا برجزِهِ ولا بقصيدِهِ ، ولا بأشعارِ الجنِّ ، والله ما يشبه هذا الذي يقولُ شيئاً من هذا ، واللهِ إنَّ لقوله لحلاوةٌ ، وإنَّ عليه لطلاوةٌ ، وإنّه لمثمِرٌ أعلاه ، مغدِقٌ أسفلُه ، وإنّه ليعلو وما يُعلى ، وإنّه ليَحْطِمُ ما تحته[٣] .

ويظهر هذا الإعجاز اللغوي في تنوّع أساليب القرآن في العرض وفقاً لتنوّع الموضوع النفسي المصاحبِ له ، فيشتدُّ أحياناً ، فيهزّ المشاعرَ والحواس ، كما في مواقف الوعيد والعذاب ، مثل **قوله تعالى** : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٧٣).

(٢) علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ص (٥٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٩٩) العقيدة الإسلامية ، ص (٢٥٩).

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

بينما يلين الخطابُ، ويرقّ، ويلطفُ في مواقف الرحمة والرفق والدعاء، مثل **قوله تعالى**: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ١ ـ ٦].

كما يتميز بعرضه الحي للمشاهد والأحداث، وقصص السابقين، ومشاهد القيامة، إذ تمتلئُ بالحركةِ وروعة التصوير التي ينفعلُ بها الإنسان، وتهتزّ لها مشاعره[١].

وقد كتب كثير من العلماء قديماً وحديثاً، في أوجه إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والأسلوب، كما حاول بعضُ العرب قديماً معارضة القرآن، فجاء كلامهم ساقطاً مضحكاً، جعلهم موضعَ سخريةٍ بين قومهم، وأكد إعجاز القرآن، فبضدِّها تتميزُ الأشياءُ[٢].

٢ ـ الإخبار عن أحوال الأمم السابقة:

قد ورَدَتْ في القرآن أخبارٌ عن أمم بادت، وشعوب هلكت، من أمثال: عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم نوح، وإبراهيم، وقصة موسى وقومه، وفرعون وملئه، ومريم وولادتها المعجزة للمسيح، إلى غير ذلك من الأخبار التي جاءت متوافقةً مع ما توصّل إليه الإنسان من اكتشافات تاريخية عن تلك الأمم، ومتفقة مع ما صحَّ وكان معقولاً من الروايات التي وردت في كتب أهل الكتاب، وقد ورد هذا كله من أمّيّ لا يقرأ ولا يكتبُ، ولم تكن بيئته بيئةَ علمٍ وكتابٍ، ولم يجلسْ إلى معلّم يتلقّى منه، فكان ذلك دليلاً قوياً على أنَّ ما جاء به محمد ﷺ هو وحيٌ من عند الله تعالى، **يقول الله سبحانه وتعالى**: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولما تحيّر الجاحدون، ولم يستطيعوا الطعنَ فيما أخبر به الوحي الإلهي،

---

(١) المصدر السابق ص (٢٦٠).

(٢) المصدر نفسه ص (١٦٠).

افتروا الكذب ، وادعوا أنّه يعلِّمه بشرٌ ، ولم يجدوا بمكة إلاّ فتًى رومياً لا يُحْسِنُ العربية ، ولا يعلمُ من الأخبار وقصص الأولين شيئاً ، ولهذا **قال سبحانه** : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣][1] .

٣ ـ الإخبار عن أحداث غيبية أو مستقبلية :

من وجوه الإعجاز القرآني إخباره عن أمور غيبية أو أحداث مستقبلية لم يتوقع حدوثه آنذاك ، بل إنّ حدوثها بالصورة التي أخبر عنها القرآن كان مستبعداً ، لا تدل عليه القرائن والأحوال الظاهرة ، فجاءت كما قرر القرآن الكريم وأخبر ، ومن ذلك :

أ ـ إخباره بانهزام الفرس على يد الرومان ، بعد أن هزموا الرومان هزيمةً ساحقةً ، **قال تعالى**: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤] فوقع الأمر كما أخبر القرآن ، فهزم الرومُ الفرسَ ، مع أنَّ ضَعْفَ الدولة الرومانية آنذاك يجعلُ مثل هذا النصرَ بعيداً .

ب ـ وقد وعد الله المؤمنين بالنصر في غزوة بدر الكبرى ، **قال تعالى**: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] ، وقد تحقّق النصرُ الباهرُ مع قلة عددِ المسلمين وعُدْتهم .

ج ـ كما وعدَ سبحانه وتعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

د ـ وقد تحقق وعد الله فتم للمسلمين دخول المسجد في فتح مكة ، وقد وعد الله المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، **فقال**

---

(١) العقيدة الإسلامية ، ص (٢٦١).

تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقد تحقق وعد الله ، فاستولى المسلمون في حياة الرسول ﷺ على كلِّ بلاد العرب ، ودانت جميعُها للمسلمين ، وتجاوزَ أصحابه حدودَ الجزيرة ، واستولوا على أرضِ فارس وما وراءها ، ومدّوا سلطانهم عليها ، وساروا إلى أرض الروم ، فاقتطعوا منها الشام كلّها ومصر.

هـ وأخيراً فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا القرآن من التحريف ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقد صدق هذا الخبرُ وتحقق ، فمازال القرآنُ محفوظاً من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا ، رغم تطاول الزمان ، وتقلّب الأحوال بالمسلمين ، وسيبقى كذلك بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة[١].

٤ ـ اتساق سور القرآن وتوافق آياته:

من أوجه الإعجاز القرآني اتساق سوره ، وموافقة آياته بعضها بعضاً في أحكامها ومعانيها وأساليبها ، فالقرآن الكريم نزل منجّماً ، وأوحي بعضُه في مكة ، وبعضُه في المدينة ، وفي ظروف متباينة من ليل ونهار ، وسفر وحضر ، ولا نجدُ في جملةِ آياته ـ التي تتجاوز ستة آلاف آية ، وسوره التي تبلغ مئة وأربعة عشرة سورة ـ آيةً تختلِفُ عن أخرى في مستوى بلاغتها ، ولا تعارِضُ آيةٌ منها آيةً أخرى فيما اشتملت عليه من معاني ، ولا سورة تتضمن من الأحكام والمعارف ما يتناقَضُ مع سورة أخرى ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ هذا القرآن ليس من وضع البشر ، الذي نرى ثمرات عقولهم ونتاج أفكارهم ، فنجد أنّه لا يخلو عمل من أعمالهم ، مهما حاولوا تلافي ذلك من نقص وقصور ، وتناقض وتعارض ، وفي هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني ورد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][٢].

---

(١) العقيدة الإسلامية ص (٢٦٢).

(٢) العقيدة الإسلامية ص (٢٦٦).

٥ ـ الإعجاز التشريعي :

تضمّن القرآن الكريم من التشريعات المنظمة للحياة الإنسانية في دوائرها الفردية والاجتماعية ، والبشرية العامة ، ما لم يكن معروفاً في الحضارات والثقافات ، والفلسفات السابقة جميعاً ، وجاء فيه من القيم الكبرى : أخلاقية وإنسانية ، وإجتماعية عامة ، ما لم يكنْ وارداً على العقول ، ولا جارياً على الخواطر ، ولا مأثوراً في واقع الناس ، ويكفي أن نشيرَ إلى بعض القيم المتعلّقة بتكريم الإنسان ، وتحريره من الاستبداد ، وتقرير حقوقه الإنسانية بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ، وإعلان الوحدة الإنسانية العالمية ، وتنظيم الحياة الأسرية ، وضبط العلاقات الاجتماعية والدولية على أسس ثابتة من العدل ، وغير ذلك ممّا لم يكن معهوداً في عصر النزول القرآني ، لا في البيئة المحلية ، ولا في البيئة العالمية ، بل لم يكن معروفاً في تاريخ الحضارات ، ما كان منها دارساً وما كان باقياً[١] .

وهكذا نجد أنّ شريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز ، وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة ، وهي قائمةٌ إلى اليوم حجةً على العربي والأعجمي ، لا يفترِقُ في قبولها مَنْ يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه ، وهي شفاء سقام المجتمعات ، كما **قال سبحانه وتعالى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس : ٥٧][٢] .

٦ ـ الإعجاز العلمي :

مما هو معلومٌ أنَّ القرآن ليس كتابَ علوم ، ولم ينزل ليقرّرَ نظريات علمية ، أو يَدْرُسَ مسائل رياضية أو فلكية ، ولكن ورد في القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى بعض الظواهر الكونية والعلمية ، التي لم يكن للعرب ، ولا للعالم كله آنذاك علمٌ بها ، ولم يكشف عنها العلمُ إلا مِنْ وقت قريب ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ القرآن ، الذي احتوى هذه المعارفَ ، وتلك الحقائق العلمية ، لا يمكن أن يكونَ مصدرُه البشر ، بل هو من عند الله تعالى العليم بالكون الذي خلقه ،

---

(١) المصدر نفسه ص (٢٦٦).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٦٦).

ومن ثَمَّ جاء خبره (الوحي) عن الكون مطابقاً لما فيه من حقائق.

ومن بين تلك الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم.

أ ـ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] الذي يشير إلى أنَّ السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً، ثم انفصلت الأرض عن السماء؛ وقد اكتشفَ العلمُ هذه الحقيقة. فيما يعرف بنظرية الانفجار العظيم، التي يفسّر بها نشأة الكون، وبداياته الأولى.

ب ـ من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن ظاهرة الجبال وأنَّها رواسي، تمنع الأرض أن تميدَ بأهلها، **قال تعالى:** ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

وفي هذا القرن فقط كشف العلم أنَّ الجبال تحفظ توازن الأرض، وأنّه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين، فالجبال تحفظ الأرضَ فلا تميدُ بأهلها كما عبر القرآن.

ج ـ أشار القرآن إلى تكوّن اللبنُ في بطون الأنعام بين الفرث (وهو الغذاء المهضوم) والدم، **قال تعالى:** ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا في القرن العشرين، إذ ثبت علمياً أنَّ اللبن يتكوّن من مواجهة محتوى الأمعاء (الفرث) مع الدم، خلال الجدار المعوي نفسه، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من الدم والكيلوس (خلاصة الغذاء المهضوم) وتفرز عليها عصارات خاصة تحيلها إلى لبنٍ يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً عن كل منهما[1].

وهذه المعلومات تعتبر اليوم من مكتشفات علمي الكيمياء وفسيولوجيا الهضم، التي كانت بالتأكيد غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد ﷺ، وترجع معرفة هذه الأمور العلمية فقط إلى العصر الحديث[2].

---

(١) دلائل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لموسى الخطيب ص (٣٧).
(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، لموريس بوكاي ص (٢٢٣).

د ـ أشار القرآن الكريم إلى أصل خلق الإنسان ومراحل نمو الجنين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

ولم يكتشف التشريحُ وعلمُ الأجنّة عن هذه المراحل إلا في العصر الحديث، يقول موريس بوكاي: تطوّر الجنين في الرحم ـ كما يصفه القرآن ـ يستجيبُ تماماً لما نعرفه اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصفُ على أي مقولة يستطيعُ العلم الحديث أن ينقدها(١).

وفي عبارة أخرى يقول بوكاي: إن مقولات القرآن عن التناسل البشري، تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها(٢).

وحينما سئل العالم كيث مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ قال: مستحيل.. إنّ العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرفُ أنّ الجنين يخلق أطواراً، فما بالكم بتحديد مراحل الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن تسميتها بدقة، بل أعطاها أرقاماً بشكل معقد غير مفهوم، في حين جاءت في القرآن بأسماء محدّدة وبسيطة، وغاية في الدقة، ثم يضيف.. يتّضح لي أنَّ هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله، وهذا يثبتُ لي أنَّ محمداً رسول الله(٣).

هـ ـ أشار القرآن الكريم إلى أنَّ هناك حاجزاً بين البحار الملتقية ببعضها:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠].

ولم يُكْتَشَفْ هذا الأمر إلاّ مؤخراً، حيث ثبت علمياً أنَّ مياه البحار والأنهار لا يمتزجُ بعضها ببعض، وذلك لتباين طبيعة الماء، وتمايز خصائصه فيهما(٤).

---

(١) المصدر نفسه ص (٢٣٢) العقيدة الإسلامية ص (٢٦٤).
(٢) القرآن الكريم والتوراة والعلم ص (٢٣٤).
(٣) المصدر نفسه ص (٢٣٤).
(٤) العقيدة الإسلامية ص (٢٦٤).

هذا وفي القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة ، منها ما كشف عنه العلم ، ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم ، وهي تثبتُ بدليل قاطع أنَّ هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم ، وأنّه ما كان يتأتّى لبشرٍ أن ينطقَ به من عند نفسه(١) .

إنَّ الكشفَ عن بعض مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن ، قد يكونُ ، وقد كان بالفعل سبباً في دخول بعض العلماء التجريبيين الغربيين في الإسلام ، إذ إنّه دليل بيِّن على إثبات إعجاز القرآن ، وبيان أنَّ هذا القرآن وحي من عند الله سبحانه وتعالى ممّا يترتّب عليه إثباتُ النبوة ، وصدقُ الرسالة ، التي جاء بها محمد ﷺ ، ولعلّ في اتّباع هذا المنهج في فهم القرآن سبيلاً إلى إعادة الثقة إن لبعض المسلمين الذين اهتزّت قناعاتهم بسبب ضغوط الحضارة المادية المعاصرة ، ومنهجها العلمي وإقناعهم بأنّ الإسلام لا يحارِبُ العلم كما فعلت النصرانية المحرّفة ، بل إنَّ العلم في إطارِ الحضارة الإسلامية نشأ بدعوةٍ وتوجيهٍ من الوحي الإلهي(٢) .

خامساً ـ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر:

١ ـ الفرق بين المعجزة والكرامة :

* إنّ الكرامة دون المعجزة في خرق العادة .

* إنّ الكرامةَ معتادة في الصالحين بخلاف المعجزة فهي خارقة لعادة البشر .

* إنّ الكرامة تابعةٌ للمعجزة ، ودليل من دلائل النبوة ، فإنَّ الولي لم تحصل له الكرامة إلا لاتباعه النبي ، ولو لم يتبعه لما وقعت له .

* إنَّ الكرامة ينالها الوليُّ بفعله كعبادته ودعائه ، بخلاف المعجزة فإنَّها غير مكتسبة(٣) .

* إنّ الكرامة هي أمرٌ خارق للعادة ، غير مقرون بدعوة النبوة ، ولا هو مقدمة

---

(١) ركائز الإيمان ص (٢٦٤).
(٢) العقيدة الإسلامية ص (٢٦٥).
(٣) آراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (٤٧٣).

لها ، يظهرها الله على يد ولي ظاهر الصلاح ، ملتزم بمتابعة نبيه ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، وقد يكرّمُ الله تعالى مَنْ يشاء من عباده الصالحين بأمور غير خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس ، وذلك كالاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة في العلم والعمل ، وهداية الخلق إلى الحق[١] .

* وإذا لاحظنا واقعَ حال الكرامة ، عرفنا أنَّ الكرامة لا تقترنُ بدعوة النبوة ، ولا يتحدّى بها ، بل الأصلُ فيها الإخفاءُ والكتمانُ ، وهذا يخالِفُ المعجزةَ ، لأنها تقترن بدعوى النبي النبوة ، ويتحدّى بها ، وإظهارها واجبٌ ليتمّ بها المقصودُ من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على خلقه[٢] .

* ليستِ الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطى على غيره ، فقد يُعطي اللهُ الكرامةَ لضعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، وعندما يكون محتاجاً لسدّ حاجته ، ويكونُ الذي لم يعطَ مثل ذلك أكمل إيماناً ، وأعظمَ ولاية ، وهو لذلك مستغنٍ عن مثل ما أعطى غيره ، ولذلك كانت الأمورُ الخارقةُ في التابعين أكثر منها في الصحابة[٣] .

٢ ـ الفرق بين الكرامة وخوارق السحر :

أمّا الفرق بين الكرامة والسحر ، فهو أنَّ الخارق غير المقترن بتحدّي النبوّة إن ظهر على يدِ صالحٍ ، وهو القائمُ بحقوق الله وحقوق خلقه فهو **الكرامة** ، وإن وإن ظهر على يد مَنْ ليس كذلك ، فهو **السحر** أو **الاستدراجُ** . وتميز الصالح المذكورِ عن غيره بيِّنٌ لا خفاءَ فيه ، إذ ليست السيما كالسيما ، ولا الآداب. كالآداب ، وغير الصالح لو لبس ما عسى أن يلبس لابدّ أن يرشحَ من نتنِ فعله أو قوله ما يميّزه عن الصالح[٤] .

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٨٣).
(٣) الرسل والرسالات ص (١٦٠).
(٤) العقيدة الإسلامية ص (٣).

إنّ بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منهـا: أنّ كرامات الأولياء سببُها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية يكون سببُـها ما نهى الله عنـه ورسوله ﷺ، ويُـستعـان بها على ما نهـى الله عنـه ورسوله[١].

* * *

---

(١) آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (٤٧٣).

الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية
وحقوق النبي ﷺ على أمته

أولًا ـ خصائص الرسالة المحمدية .

ثانياً ـ وضع العالم الإسلامي ومستقبله .

ثالثاً ـ حقوق النبي ﷺ على أمته .

* * *

الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية وحقوق النبي ﷺ على أمته

أولاً ـ خصائص الرسالة المحمدية:

الرسالة المحمدية هي الرسالةُ الخاتمةُ ، وبها كَمُلَ الدين ، وتمّتِ النعمةُ الربانيةُ على البشرية ، **قال تعالى**: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وتتميّز الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلّها بجملةِ خصائص منها(١):

١ ـ أنها الرسالةُ الخاتمةُ والناسخةُ لما قبلها:

إنّ رسالة محمد ﷺ قد جاءت لتكون خاتمةَ الرسالات السماوية ، وإنّ محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، فلا نبيَّ بعده ، ولا شريعة سماوية تأتي بعده ، والاعتقاد بذلك أصلٌ من أصول الدين ، يَكْفُرُ منكره ، ويخرج عن دائرة الإسلام جاحده ، وقد نصّ القرآن على ذلك ، وكذلك السنة الصحيحة ، وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً(٢).

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٣٨).

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٥٨).

فهذه الآية نصٌّ في أنّه لا نبيَّ بعده ﷺ ، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسول بطريقِ الأولى والأحرى ، لأنَّ مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة ، فإنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ ولا ينعكس(١) .

فالنبيُّ ﷺ ختمَ النبوة فطُبِعَ عليها ، فلا تفتح لأحدٍ بعده(٢) ، فقد انقطع إنباء الله للناس .

وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] ، فالآية تؤكّد أنّ الأمة لم تعدْ تحتاجُ إلى نبيٍّ يُكْمِلُ لها دينَها ، أو يتمّ عليها نعمةَ ربها ، لأنّ الله سبحانه وتعالى أكمل الدين على يد رسوله ﷺ ، ثم رضيه لها ، لأنّ الله سبحانه وتعالى قد أكملَ الدين على يدِ رسول الله ﷺ ، ثم رضيه له ولأمته ديناً يعبدون الله به إلى يوم القيامة(٣) .

وقد أعلن النبيُّ ﷺ أنّ رسالتَه خاتمةُ الرسالات ، وأنّه عليه الصلاة والسلام خاتمَ النبيين في أحاديث نبوية كثيرة ، منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي ، كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً ، فأحسنه وأجمله ، إلاّ موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ ، فجعل الناسُ يطوفون ، ويعجبون ، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللبنةُ؟**» قال: «**أنّا اللبنةُ وأنا خاتمُ النبيين**»(٤) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحمٍ ، فرفع إليه الذراعَ ـ وكانت تُعْجِبُه ـ فَنَهَسَ(٥) منها نُهيسةً ، ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممّا ذلك؟**» ثم ذكر ﷺ يوم القيامة ، وما يحدثُ فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب ، حتى يصلوا إليه ﷺ ، فذكر ﷺ أنّهم يقولون: «**أنتَ**

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠١).
(٢) تفسير الطبري ، آية الأحزاب رقم (٤٠).
(٣) عقيدة ختم النبوة د. أحمد الغامدي، حقوق النبي على أمته (١/ ١٠٨).
(٤) البخاري رقم (٣٥٣٤).
(٥) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان.

رسول الله ، وخاتمُ الأنبياءِ ، وقد غفرَ لك ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخّرَ ، تشفّع لنا إلى ربك»(١) .

وقال رسول الله ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسُهم الأنبياء ، كلّما هلكَ نبيٌّ خلفَه نبيٌّ ، وإنّه لا نبيَّ بعدي ، وسيكونُ خلفاء فيكثرون**»(٢) .

وقد وردت أحاديثُ متعددةٌ متنوعةٌ ، جميعُها أكّدت على مدلولٍ واحدٍ ، هو انقطاع الوحي بعد النبيِّ ﷺ ، وختم النبوة به ، وقد بلغ بعضُ هذه الأحاديث حدَّ التواتر ، كما أنَّها في جملتها متواترة تواتراً قطعياً(٣) .

فرسالته ﷺ هي الخاتمة الناسخةُ لما قبلها ، **قال تعالى** : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ، فهو مصدّقٌ بها في العقيدة ، فالكتبُ كلها تقول: إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك ، والقرآن يقول الشيء نفسه ، والكتب كلها تقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . والقرآن يدعو الدعوة نفسها ، ولكنّ القرآنَ مهيمنٌ على ما بين يديه من الكتب في شأن التشريع ، فهو يحمِلُ النسخة الأخيرة المنزلة من عند الله ، وشرعُه هو الشرعُ الواجبُ الطاعة ، ومن ثَمَّ فهو ينسخُ كلَّ ما أتى قبله ، مخالفاً له ، وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] .

فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل في أمر عبادة الله الواحد بلا شريك ردّاً على قول اليهود: عزيز ابن الله ، وقول النصارى: المسيح ابن الله .

وفي الأمر بالاعتراف برسالة محمد ﷺ لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم ـ أي القرآن ـ عقيدة

---

(١) البخاري رقم (٤٧١٢).
(٢) البخاري رقم (٣٤٥٥).
(٣) حقوق النبي على أمته (١/ ١٠٩).

وشريعة ، وإلاَّ فهم ليسوا على شيءٍ كما تصفهم الآية ، أي ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم[١].

إنّ القرآن الكريم يدعو الناس كافةً إلى الإيمان برسول الله ﷺ وطاعته ، واتّباع شريعته ، بما في ذلك أهل الكتاب ، **كقوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

ففي هذه الآيات تصريحٌ بأنّ الشرائع السابقة قد نُسِخت برسالةِ سيدنا محمد ﷺ وأنّ الهداية والنجاح منحصرٌ في طاعته ﷺ ، واتّباع شريعته[٢] ، فرسالة محمد ﷺ جمع اللهُ فيها محاسنَ ما قبلها من الرسالات ، وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها ، فلهذا جعلها الله شاهدةً وأمينةً وحاكمةً على الرسالات كلها ، وخاتمةً لها وناسخة[٣].

٢ ـ إنها رسالة عالمية:

جاءت **رسالةُ الإسلام عامةً إلى الثقلين**: الإنس والجن ، وإلى الأبيض والأسود ، وهذه من الخصائص الكبرى المميّزة للإسلام ، فإن الرسالات السابقة كانت خاصةً بأمة معينة ، وتنقضي بزمان محدّد ، **قال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]. **وقال تعالى**: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]. وأمّا خاتم النبيين محمد ﷺ فقد خاطبه الله تعالى **بقوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. **وقال تعالى**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. **وقال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٢٩).

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٦٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٦٨).

كما وصف القرآنَ بأنّه: ﴿ بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢] و﴿ بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] و﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كما ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ، أُعطِيتُ جوامعَ الكلم، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلقِ كافةً، وخُتِمَ بي النبيون**»(١).

ولا يتنافى مع هذا العموم، أن يكون المخاطبون في بادئ الأمر هم العرب قومُ الرسول ﷺ، وأن يبدأ بالإنذار بهم، **وقال تعالى**: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، **وقال تعالى**: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأنْ يكونَ العربُ هم أداة التبليغ، وأن تكون لغتُهم هي وسيلة ذلك: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وأن يكون لهم بذلك ذكراً ومنزلةً ورفعةً: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولذلك كانت لغتُهم التي نزل بها القرآن الكريم، وأساليبُهم وعاداتُهم هي المرجعُ في فهم القرآن ومعرفة الإسلام، لأنها روعيت في الخطابِ الذي وجّه إليهم بادئ ذي بدء(٢).

وقد حمل العربُ هذه الرسالة إلى الناس كافةً، لأنّها الرسالةُ العالميةُ التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء، فالنوعُ البشريُّ بأجمعه مكلَّفٌ بالإيمان برسالة الإسلام وتصديقها واتباعها، فلا يحقُّ لأحد بَلَغَتْهُ رسالةُ الإسلام أن يدينَ بغيره، **قال تعالى**: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥](٣)، **وقال تعالى**: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

٣ ـ موافقتها للفطرة:

من الخصائص التي تمتازُ بها الرسالة المحمدية **أنّ الإسلامَ دينُ الفطرةِ**، فهو بنُظُمه ومبادئه وأساليبه في التربية والتهذيب يمثّل أسلمَ سبيل للوصول إلى الإنسان المهذّب السليم، ذلك بأنّه قبل كلِّ شيءٍ يعترفُ بهذه الفطرة كحقيقةٍ

---

(١) مسلم رقم (٥٢٣).
(٢) العقيدة الإسلامية ص (٢٤٤).
(٣) عقيدة التوحيد ص (٢٥٤).

ماثلةٍ في تركيب الإنسان ، ويضعُ لها من التشريع والصيانة والاهتمام ما يجعلها تسيرُ في مسارها الصحيح بغير عوج أو التواء ، فالإنسانُ بفطرته يبغضُ عدوّه ، ويرغب في صدّه ودفع أذاه ، وضربه في معقله إن تجاوزَ واعتسفَ أو اعتدى على العقيدة أو النفس أو المال أو العرض ، وفي صدّ العدوان ما يرضي الفطرة ، **يقول القرآن :** ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ويقول تعالى : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي ذلك إرضاء للنفس كي لا تعاني من الكبت والضغينة إلاّ إذا عفا المرءُ ، وأسقط حقّه عن طيبِ خاطرٍ ، والقرآنُ يمدحُ القصاصَ ، لأنّه سبيلٌ لصدِّ الشرّ وصون الأرواح ، **قال تعالى :** ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والإنسانُ بفطرته يحبُّ التملك ، وينزع إلى الاستقلال الشخصي ، فأباح له الإسلامُ الملكية بالوسائل المشروعة(١) ، ليتيح للحوافز الفردية أن تعملَ ، ولا يكبتها كما تصنع الشيوعية ، ولكنّه يضع الضوابطَ التي تمنعُ الظلم ، وتمنع الفسادَ ، فيحرّم الربا والاحتكار ، والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال ، ثم يفرضُ الزكاةَ التي تحدّ من التضخم ، وتشركُ الفقراءَ في أموال الأغنياء ، ويوجِبُ الإنفاق في سبيل الله ، ويحرّم الكنز ، ويحرّم الترفَ والمخيلةَ بالمال ، وهذه كلُّها ضوابط تمنع ما يحدثُ في الغرب الرأسمالي من فسادٍ خلقي ، وظلم اجتماعي ، وسياسي ، واقتصادي ، وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل ، بين هذا الدِّين وبين الفطرة البشرية ، كما تجدُ التوجيهات التي تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه ، فتظلّ الفِطَرُ أقربَ ما يكونُ إلى السلامة والحياة ، وأقربَ إلى الاستقرار(٢) ، **قال تعالى :** ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٥٤).

(٢) ركائز الإيمان ص (٣٥٦).

إنّ في الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعةً من الدوافع، أودعها الله في الفطرةِ لتعينَ الإنسانَ على القيام بما كُلِّف به من أمر الخلافة في الأرض ، كدافع الطعام، والشراب ، والملبس ، والمسكن ، والجنس ، والتملك ، وإثبات الذات. . إلخ، ولكنّ هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرةٌ على الكيان البشري إذا تُركت بلا ضابط يضبطها، فعندئذٍ تتحوّل إلى شهواتٍ جامحةٍ لا يملكُ الإنسانُ نفسَه من سلطانها ، والنظام الأمثل هو الذي يسمحُ لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة ، فلا يعطّلها ولا يكبتها ، وفي الوقت ذاته يضبطها ، فلا تتحوّل إلى شهوات ، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب ، وينضبط سلوكُه في الوقت ذاته في الحدود التي تعود عليه بالعطب والدمار ، وذلك بالضبط هو ما صنعه الإسلام، فيتيحُ للدوافع كلها أن تعمل، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره، وفي الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع ، والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعةٍ في حدود كيانه البشري ، فلا تصبحُ شهواتٍ جامحةً ، وإنّما رغبات منضبطة بالحدود التي شرعها الله بعلمه وحكمته ، وقال عنها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. **وقال تعالى**: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، لذلك لا يقرّ الإسلامُ الرهبانية ، لأنّها تعطل دوافعَ الفطرة وتكبتُها.

ذهب ثلاثةُ رهطٍ إلى بيتٍ من بيوتِ رسول الله ﷺ ، فسألوا عن عبادته ﷺ ، ولمّا أُخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأصومُ الدهرَ ولا أفطرُ ، وقال الآخر ، وأمّا أنا فأقومُ الليلَ ولا أنام ، وقال الثالث: أمّا أنا فلا أتزوجُ النساءَ ، فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**أمّا واللهِ إنّي لأخشاكم للهِ، وأتقاكم له ، ولكنّي أصومُ وأفطِرُ ، وأصلّي وأرقدُ ، وأتزوّجُ النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنّتي فليسَ مِنّي**»[١].

كذلك لا يقرّ الإسلامُ الانفلاتَ من الشهواتِ الجامحةِ كما تصنعُ الجاهليةُ المعاصرة بصفة خاصة ، فتفسد الفطرةَ ، وتفسد الأخلاقَ ، وتنحطُّ بالإنسانِ إلى دركِ الحيوان[٢].

---

(١) مسلم رقم (١٤٠٢).

(٢) ركائز الإيمان ص (٣٥٥).

٤ ـ شمولها لمطالب البشرية في جميع الميادين:

إنّها تتضمّن كلَّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ من شؤون الدين والدنيا والآخرة على وجهٍ يكفلُ المصلحة للناس جميعاً، ويؤمّن لهم السعادة الحقيقية إذا هم التزموا بها، وعملوا على تحقيقها، فهي تَنْظُمُ أمورَ العقيدة والأخلاق والعبادات، والأسرةِ، والمعاملات المالية، والقضاء والعقوبات وما إلى ذلك[١].

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

لله دَرُّ العلامة ابن القيم، فقد بيّن معنى الشمول في رسالة الإسلام بياناً شافياً، فقال: وعموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، وأنّه لم يحوج إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجاتهم إلى مَنْ يبلّغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان، لا يتطرّق إليهما تخصيصٌ: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاجُ إليه مَنْ بعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافيةٌ شافيةٌ عامةٌ، لا تُحْوِجُ إلى سواها، ولا يتمّ الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا، وهذا وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلّب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه عِلْماً، وعلّمهم كلَّ شيءٍ حتى آداب التخلّي، وآداب الجِماع، والنوم، والقيام، والقعود، والأكل والشرب، وبالجملة جاءهم بخيري الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم إلى أحد سواه[٢].

فالشمول من الخصائص التي تميّزت بها رسالة الإسلام عن كلِّ ما عرفه الناسُ من الأديان والفلسفات والمذاهب، وهذا الشمول تمثّل فيما يلي:

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٥٨).

(٢) أعلام الموقعين (٤/ ٣٧٥).

أ ـ قد اشتملت على ما في تعاليم النبوّات السابقة من مبادئ جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق ، ونسخت ما كان فيها من تشريعات مؤقتة ، وأحكام عـارضة .

ب ـ تناولت الشريعةُ فيها حياةَ الإنسـان من جميع أطرافهـا ، ومن كلّ جوانب نشاطاتها الاقتصاديـة والسياسيـة والاجتماعيـة والعقليـة والروحيـة والخلقية . . إلخ .

ج ـ وضعتِ المبادئ الكليّة ، والقواعدَ الأساسية فيما يتطوّر فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان ، ووضعتْ الأحكامَ التفصيلية والقوانينَ الجزائية فيما لا يتطوّر ولا يتحوّر بتغير الزمان والمكان ، وهذا هو الكمال والشمول الذي تميّزت به الشريعة الإسلامية ، وأشارت إليه الآيات القرآنية[١] .

ومع هذا الشمول تبرزُ خاصية المرونة التي تكسب الرسالة المحمدية عنصرَ الاستجابة لكلّ المشكلات جميعاً ، فلا تقفُ متخلفةً عن ركب الحياة الناشطة المتحركة ، بل هي قادرةٌ على احتواء الواقع البشري كله مهما امتدّ الزمنُ ، أو تبدّلت الأحوال والظروف[٢] .

إنَّ الإسلامَ لا يقفُ في سبيل التقدّم العلمي والنهوض الحضاري ، بل إنّ الإسلامَ هو الذي بعثَ المسلمين لينشئوا حركةً علميةً ضخمةً ، كان من أهم آثارِها المنهجُ التجريبي في البحث العلمي ، التي تعلمته أوربة على يد المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وجنوب إيطالية الإسلامي ، والذي قامت عليها نهضتُها العلمية الحاضرة ، والإسلامُ هو الذي أنشأ حضارةً تاريخيةً ضخمةً أنارت العالمَ كلّه وقتَ أنْ كانت أوربة تعيش في ظلام القرون الوسطى ، المظلمة بالنسبة إليها ، المزدهرة بالنسبة للإسلام ، وكان أروعَ ما في هذه الحضارةِ أنّها تعمُرُ الأرضَ بأقصى ما في طاقة البشر من قدرةٍ على التعمير في جميع الميادين ، وجميع الاتجاهات ، ولكن دونَ أن تقطعَ ما بين الحياة الدنيا والآخرة ، كما تصنعُ تلك الجاهلية ، فتدفع الناسَ دفعاً إلى التكالب المزري على شهوات الأرض ، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص ،

---

(١) العقيدة الإسلامية ص (٣٤٥) .

(٢) عقيدة التوحيد ص (٢٥٨) .

وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر ، وفساد الأخلاق ، والصراع الرهيب الذي يهدّد الأرضَ بالدمار .

كلا إنّ الإسلامَ يُنْشِئُ حضارةً من نوع آخر ، أثمن وأعلى حضارة تعمر الأرض ، ولكنّها تعْمُرُها بمقتضى المنهج الرباني ، فلا تحرمُ الناسَ من المتاع الطيب ، ولكنّها تحافظُ على كيانهم الإنساني ، وهم يتناولون ذلك المتاع ، ولا تهبطُ بهم إلى مستوى الحيوان[1] ، **قال تعالى**: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. **وقال تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٥ ـ اهتمامها بالعقل البشري وتميزها بالمنهج الفكري:

من خصائص الرسالة المحمدية ، أنّها أحلّت العقل الإنسانيَّ محله اللائق ، فخاطبته لإيقاظه ، ودفعته لاستخدامه ، **قال تعالى**: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فمن خصائص الدعوة المحمدية أنّها تخاطِبُ الإنسان كلّه ، وجدانه وفكره على السواء ، وكما يستثيرُ القرآنُ وجدانَ الإنسان ، لينفعلَ بمشاهدة آيات الله ويستسلمَ له ، فكذلك يوقِظُ القرآنُ عقلَ الإنسان ليتدبّر ، وليناقِشَ الأمورَ مناقشة فكرية منطقية هادئة تصلّ به إلى اليقين[2] ، **قال تعالى**: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ

(١) ركائز الإيمان ص (٣٤٦).

(٢) ركائز الإيمان ص (٣٤٧).

وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

إنّ هذه الآيات وأمثالُها تكوّنُ في مجموعها منهجاً فكرياً للوصولِ إلى الحقّ يمكن تلخيصُه في هذه النقاط:

* عدم اقتفاء أي فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق، لأنّ الإنسان مسؤول عن تفكيره واعتقاده، لأنّ الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً، ليفكر لنفسه، ويتدبر، ويوم القيامة يسأل عن سمعه وبصره وعقله: كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته؟.

* التدبّر في كلّ الأمور بالمنطق العقلي، وعدمُ اتخاذ المواقفِ بدافع الهوى، لأنّ الهوى يُعمِي الإنسان عن الحق.

* التخلّي عن التقليد الأعمى، والموروثات الفاسدة، التي لا تقومُ على دليلٍ ولا برهان.

فإذا اتّبع الإنسانُ المنهج، فألقى عنه موروثاته، التي لا تقومُ على دليل، وكفّ عن التقليدِ الأعمى، ورفضَ أن يتّبعَ شيئاً يعرضُ عليه إلاّ ببرهانٍ، ثم راحَ يفكّر بالمنطقِ، بعيداً عن الهوى، فإنّه لابدّ واصلٌ بإذن الله إلى الحق(١).

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٤٨).

إنّ الإسلام دعا العقل البشري أن يعملَ فيما هو متاحٌ له ، ليصلَ إلى اليقين في تلك الحقائق الرئيسة الكبرى التي تكوّن أساسَ الإيمان.

على أنّ المنهج الفكري الذي تتميّز به هذه الدعوة ، لا ينحصِرُ فيما يتعلّق بأمور العقيدة ، بل يمتدّ فيشمل ميادين أخرى ، فإذا كان القرآنُ قد طالب العقل البشري بأن يتدبّر آياتِ الله في الكون ، ليتعرّفَ على الخالق ، الذي له ملك السماوات والأرضِ ، وهو على كل شيء قدير ، فقد طالبه كذلك بالتفكر في تلك الآيات ، ليتعرّف على السنن الربانية ، التي تحكمُ سيرَ هذا الكون ليتمكن من استخدام ما سخّر الله له في هذا الكون من طاقات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وإنّ أمثال هذه التوجيهات في القرآن والسنة ، لا تكتفي بطلب مشاهدة الأشياء ، بل تلفِتُ النظر إلى عللها ، التي بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره ، التي كانت متاحة يومئذ ، ثم تنشئ من بعدُ حركتها العلمية الذاتية ، التي تتلمذت عليها أوربة ، فأنشأت نهضتها ، وكان أبرزُ ما فيها منهجَ المشاهدة والملاحظة والتجريب ، الذي يقومُ على أساسه كلُّ التقدم العلمي الحاضر ، كذلك يطلبُ القرآن من العقل البشري أن يتأمّلَ في حكمة التشريع (بقدر ما يتاحُ له) حتى إذا طبّقه كان تطبيقه واعياً متفهّماً ، فتختم كثيراً من الأحكام بمثل هذا التعقيب: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

وهذا التوجيه هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي ، وهو أثمنُ ما أنتجه العقل المسلم من روائع ، وما يزالُ هذا الإنتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة ، كما أنّ الإسلام وجّه العقل البشري إلى تدبّر السنن الربانية ، التي تسيّرُ حياةَ البشر على الأرض ، **قال تعالى**: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. **وقال تعالى**: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. **وقال تعالى**: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] **وقال تعالى:** ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

والغرضُ من هذه التوجيهات هي أنْ يعرفَ الإنسانُ أنّ حياته لا تمضي بلا ضوابط، وأنّه ليس معفًى من نتائج عمله، بل إنّ كلّ عمل يعمله الإنسانُ فرداً أو جماعةً له عواقبه، سواء في الحياة الدنيا، أو في الآخرة حسب سنن ربانية لا تتبدَّل ولا تتحوّل، ولا تحابي فرداً ولا جماعة، فمِنْ أجلِ ذلك عليه أن يتدبّرَ الطريقَ الذي ينبغي أن يسلكه، ويتدبّرَ عواقبَ عمله قبل أن يقدمَ عليه.

كذلك يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتدبّر عبر التاريخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالمطلوبُ إذن دراسة التاريخ، لا على أنّه مجموعةٌ من الحوادث حدثت بغير رابطٍ ولا دلالةٍ، ولكن على أنّه يجري حَسْبَ السنن الربانية الثابتة، وأنّ هناك رباطاً يربطُ الأحداثَ هو قدر الله المقدور، الذي يسير حسب تلك السنن الثابتة، فإذا تدبّر العقلُ ذلك، ووعى عبرةَ التاريخ، فإنّه قمينٌ ألاّ يقعَ فيما وقعَ فيه السابقون من أخطاء وخطايا، بل يقوّم خطأه بحيث لا يصطدمُ مع السنن الربانية، فيسيرُ آمناً في الحياة الدنيا، وفي طريق يؤدّي به إلى الأمن في الدار الآخرة، وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التي يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتفكّرَ فيها بهذه المجالات الخمسة:

* **التدبر في آيات الله في الكون**، للتعرّف على الخالق، والإيمان به، والتسليم له، والتعرّف على السنن التي يسير الكون لاستخلاص طاقاته، وتسخيرها لعمارة الأرض.

* **التدبر في حكمة التشريع** ، لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجدّدة في حياة الناس.

* **التدبر في السنن الربانية** ، التي تسيّرُ حياة الناس في الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشري.

* **التدبر في عِبرِ التاريخ** ، والاستفادة منها في تجنّب الأخطاء ، والاستقامة على الطريق الصحيح.

وذلك أوسعُ مجالٍ يمكن للفكر البشري أن يعملَ فيه العمل المثمر المفيد[١].

٦ ـ تحقيق المصلحة ودفع المفسدة:

إنّ الرسالةَ المحمّدية جاءت لجلب الخير للناس ، ودفع الشرِّ وأشكال الضرر عنهم ، فهي ليست للعبث أو الهزل أو اللهو ، ولم تأتِ كذلك لتجلب للإنسان الحرجَ والشقاءَ ، ولكنّها جاءت جادّة في دفع المفسدة ، وجلب المنفعة ، حتى إذا ما تحققت للناس عناصرُ الخير والراحة والسعادة والاستقرار ، فقد تحققت مقاصدُ الشريعة على التمام ، يقول الشاطبيُّ في هذا الصدد: إنّ تكاليفَ الشريعة ترجعُ إلى حفظِ مقاصدها في الخلق ، وهذه المقاصدُ لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.

وثانيها: أن تكون حاجية.

وثالثها: أن تكون تحسينية.

فأمّا الضرورية فمعناها أنّها لابدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالحُ الدّنيا على استقامة ، بل على فسادٍ وفوتِ حياة ، وفي الحياة الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين.

ومجموع **الضروريات** خمسةٌ وهي: حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وقد صانت الشريعةُ كلاً من هذه الضروريات ، وأوجبت لصونها عقوبات ، كالقصاص في القتل ، والحد في الزنى والقذف والسرقة وشرب الخمر.

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٤٧ ـ ٣٥٢).

وأما **الحاجيات** فمعناها أنها مفتَقَرٌ إليها من حيثُ التوسعة، ودفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة، ومن أجل ذلك شرعت الرخص المخففة في العبادات، كإباحةِ الإفطار للمسافر والمريض، وشرعت في المعاملات عقودَ القروض والمساقاة وغيرها.

وأما التحسينات فمعناها الأخذُ بما يليقُ من محاسن العادات، وتجنّب ما تأنفه العقول الراجحةُ، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، وذلك كالطهارة وستر العورة، وأخذ الزينة، وآداب الأكل والشرب، ومجانبة الإسراف والإقتار وغير ذلك[١].

وخلاصةُ القول: إنَّ الإسلامَ بعقائده وشرائعه ونُظمه وتعاليمه ومعانيه إنّما جاء ليحقّق للإنسان الحياةَ الفاضلة الكريمة التي تتجسّدُ فيها أسبابُ المصالح، وتندفعُ فيها أسبابُ المفاسد.

إنّ الأنظمة الوضعية التي وضعها البشر لم تفلحْ في صبغ الحياة البشرية بصبغة الأمن والسعادة والاستقرار، فضلاً عن إخفاقها الذريع في دفع الضرر والفساد على وجه الأرض، بل إنّ الحقيقة المرة هي أنّ هذه المبادئ والنظم التي صنعها البشر قد أفلحت في إغراق الإنسان في جحيم الكوارث والمآسي والويلات، وأوردته مواردَ الشقاء والعيش البائس، ذلك العيش المنكود، الذي تجسّد في حصائل متعددة من الأمراض والحروب والمجاعات والقلق، والأحزان، وهي أضرارٌ ومفاسدُ يعاني منها الإنسان، وسيظلّ يعاني حتى يهتدي، فيعودُ إلى الصواب بعد أشواط طوال من الويلات والأرزاء[٢].

٧ ـ سماحتُها ويسرُها ورفعُ الحرج عنها:

إن الله لم ينزل هذا الدين أصلاً ليعنت به الناس، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالسماحةُ من أكبر صفات الدعوة المحمدية، قال رسول الله ﷺ: «**أحبُّ**

(١) ركائز الإيمان ص (٢٥٧).
(٢) ركائز الإيمان ص (٢٥٧).

الدِّينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[١] ، ويرجعُ معنى السماحة إلى التيسير المعتدل ، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومن سماحة الدعوة المحمدية إنكارها على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨].

وهذه الآية الكريمة تبيّن للمسلمين حقيقةَ منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان أو عند بعض المتنطعين[٢].

ومن سماحة الدعوة المحمدية ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل وجدال المنافقين ، ففي القرآن الكريم **قال تعالى**: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة ، بل أمرت بالتي هي أحسن ، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما: حسنة ، والأخرى أحسن منها ، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة ، وتقريباً للأنفس المتباعدة[٣].

ومن أبرز المزايا التي تتحلّى بها الدعوة المحمدية بأنها سهلةٌ ميسورةٌ وهي بطبيعتها تعارِضُ المشقة ، وتنفي أية صورة من صور الضيق والحرج ، وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص كثيرة تنفي كل أنواع الحرج التي لا يطيقها الإنسان أو يشق عليه احتمالها ، ومن أدلة التيسير:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. **وقال**

---

(١) البخاري في الأدب المفرد رقم (٨٨).
(٢) سماحة الإسلام ، عمر بن عبد العزيز ص (٣٧٠).
(٣) الإيمان بالقرآن والكتب السماوية للمؤلف ص (٩٤).

سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]. **وقال تعالى**: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. **وقال تعالى**: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]. وقال تعالى: ﴿ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

*** ومن أدلة رفع الحرج:**

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج **قوله تعالى**: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴾ [الحج: ٧٨]، أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[١].

وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١].

وفي هذه الآياتِ دلالةٌ ظاهرةٌ على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأنّ الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجدُ التعليل عاماً، فكأنّ التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[٢].

ومن أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢].

هذه الأدلة يظهر من خلالها الإسلام في صورته الوضيئة المشرقة وفي طابعه

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٧).
(٢) الوسطية في ضوء القرآن د. ناصر العمر ص (١٠٦).

الكريم السهل ، وفي جوهره الذي ينبذ الغلو والتعسير والتنطع ، والذي يحبذ التيسير والتسهيل تمشياً مع فطرة الإنسان ، التي تضيق بالعنت والإحراج(١) .

٨ ـ غنى مصادرها التشريعية :

ممّا تميّزت به هذه الدعوةُ كذلك غنى مصادرها التشريعية ، فالرسالاتُ السابقةُ كلّها تجدُ تشريعاتها في الكتاب المنزل فحسب ، أمّا هذه الدعوة التي لم تنزل لقوم محدودين ، ولا لفترة من الزمان محدودة ، وإنّما نزلت للبشرية كافة ، ولأمدٍ من الزمن ممتدّ إلى قيام الساعة ، فقد خصّها الله بسعةٍ في المصادر التشريعية تلائِمُ سعة رقعتها ، وامتداد زمانها ، فنجدُ مع الكتابِ سنّةَ الرسول ﷺ تفصّل ما أجمله الكتاب ، وتبيّن أحكامه تارةً ، وتستقلُّ تقرير الحكم تارة أخرى ، فقد فرض اللهُ الصلاة ـ مثلاً ـ ولكنّ أحكامَ الصلاةِ بيَّنتها السنّةُ ، وكذلك الأمر في الزكاة ، فالسنّةُ ببعض الأحكام ، كحدِّ الردّة ، وحدّ الخمر ، وحكم الرجم للزاني المحصن ، وأحكام البيع والشراء . . إلخ .

وإلى جانب الكتاب والسنة فبابُ الاجتهاد مفتوحٌ فيما لم يرد فيه نصٌّ ، أو في طريقة تطبيق النصّ على حالة لم تقع في عهد الرسول ﷺ ، وهذا هو الذي كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم في حياة البشر ، ولا تضيق عنه ، وجعل الحياةَ في ظلّها تتحرّك وتنمو أبداً لا تتجمّد ، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة ، لأنّ الله قدّر لها فترة محدودة من الزمن تُنْسخُ بعدها ، أمّا هذه الرسالة فلا ناسخَ لها ، لذلك وهبها اللهُ القدرةَ على الامتدادِ ومواكبة الحياة المتجدّدة على الأرض(٢) .

٩ـ دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل :

الرسالة المحمّدية هي الرسالةُ الوحيدةُ التي يؤمِنُ أتباعُها بالرسل جميعاً ، وبما أنزل إليهم ، فقد كفر اليهودُ بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ وآمنوا بعيسى ، ولكن لا على أنّه رسول ، بل على أنه إلهٌ وابنُ إله ، أمّا المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعاً من لدن آدم

---

(١) عقيدة التوحيد ص (٢٥٧).
(٢) ركائز الإيمان ص (٣٥٣).

ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، **قال تعالى** : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

١٠ ـ حفظ الله تعالى للرسالة المحمدية :

لمّا كانت الرسالات السابقة مرهونةً بوقت معين ، وزمان محدود ، لم يتكفل الله تعالى بحفظها ، بل وكل حفظَها إلى علماء تلك الأمم ، التي أنزلت إليها ، فأوكل حفظ التوراة إلى الربانيين : ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]. ولم يستطع الربانيون والأحبارُ حفظ كتابهم ، وخان بعضُهم الأمانةَ ، فغيروا وبدّلوا وحرّفوا ، أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفّل الله بحفظها ، ولم يكل حفظها إلى البشر ، **قال تعالى** : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ، وحفظ كتابها من التحريف والتبديل : ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢][1].

١١ ـ شهادة أمة الإسلام على الأمم :

إن المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة ، **يقول الله تعالى** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨].

روى البخاري في (صحيحه) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يُجاءُ بنوحٍ فيقال له: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم يا ربِّ ، فتسأله أمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير ، فيقول: مَنْ شهودك؟ فيقول:**

---

(١) العقيدة الإسلامية ص (١٤٦).

محمد وأمته ، فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣][١].

أنزل الله تعالى أمة محمد ﷺ منزلة العدول من الحكّام ، فإنّ الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأممُ تبليغَ الرسالة أحضر أمّةَ محمّد ﷺ فيشهدون على الناسِ بأنّ رسلهم أبلغتهم ، وهذه الخصيصةُ لم تثبتْ لأحدٍ من الأنبياء[٢].

١٢ ـ السيرة المحمدية :

هي السيرة القطعية الثبوت في التاريخ ، فمن قدر الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف ، لأنّه الدين الباقي إلى أن تقوم الساعة ، والذي قدر الله سبحانه وتعالى أن يحفظه ويُظهره على الدين كله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩].

وكما حفظ الله القرآن بقدرته حيث **قال جلّت قدرته:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فقد حفظ كذلك السنة المطهرة ، وحفظ السيرة النبوية الكريمة ، فلم تضِع كما ضاعت سيرُ كثيرٍ من الأنبياء من قبلُ ، ولم تدخل عليها التشويهات والتحريفات التي دخلت على سير أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فيما يُسمَّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (المقابلين للتوراة والإنجيل).

إنّ من يقرأ العهدَ القديم بصفة خاصة يتقزّز من بشاعةِ ما أُلصق بالأنبياء في سيرهم المزيفة. من تهمٍ فاحشةٍ لا تليقُ بشخص عادي ، فضلاً عن نبيٍّ مرسلٍ ، فما من جريمة في الأرض ـ على بشاعتها ـ إلا وأُلصِقَتْ زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء ، من قتلٍ وسرقةٍ ، وغصبٍ ، ونهبٍ ، وغشٍ ، وكذبٍ ، وفسقٍ خُلقي ، وهذا كله مكتوب بأيدي المؤمنين بأولئك الرسل ، وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]. **قال تعالى:** ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

---

(١) البخاري رقم (٧٣٤٩) ، الواسطة بني الله وخلقه ، المرابط الشنقيطي ص (١٨٣).

(٢) المصدر السابق ص (١٨٤).

لقد حرَّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل ، ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم في الأرض ، فإذا كان أنبياؤهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل ، أفلا يكونون هم في حلٍّ مما يفعلون؟ فأمّا العهد الجديد في تزويره لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقِلُّ نكراً من تأليه عيسى ، وادِّعاه بنوته لله : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبلُ من نسيان أو تحريف.

فأما سيرة رسول الله ﷺ فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ، ووكلها ـ بقدر منه ـ إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص ، ومن ثَمَّ بقيت محفوظة على مدار التاريخ ، وبذلك فهي السيرة القطعية في التاريخ كله التي يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها ﷺ.

ومن خلال هذه السيرة ـ ومن خلال القرآن كذلك ـ حفظت اللمحات الصادقة من سير الأنبياء من قبلُ ، فلا حقَّ يوثق به في سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد في القرآن أو الحديث ، وفضلاً عن ذلك ، فإننا نستطيع أن نقرأ في سيرة الرسول ﷺ سيرَ الأنبياء جميعاً ، فقد تجمَّع في حياته ﷺ ما تفرق في حياة الأنبياء من قبل[1].

ثانياً ـ وضع العالم الإسلامي ومستقبله:

١ ـ وضع العالم الإسلامي المعاصر:

لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالبَ عليها أعداؤها بمثل الضراوة التي يتكالبون بها عليها في الوقت الحاضر: يذبَّحون ويقتَّلون في كل مكان غلب عليهم أعداؤهم ، ويشرَّدون من أرضهم وأموالهم ، ويسلَّط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم ، يحكمونهم بغير ما أنزل الله ، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله ، وينتقص الوطن الإسلامي مرةً بعد مرةً بإقامة دول غير إسلامية في أرضه ، وتفتت وحدته ، ثم تقسّم الدول منه إلا دويلات.

والفقر والجهل والمرض يتفشّى في العالم الإسلامي على الرغم من أنّ تربته

(١) ركائز الإيمان ص (٣٢٣ ـ ٣٣٠).

تحتوي على أكبر ثروات العالم على الإطلاق.

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

لقد اشترط الله عليهم شروطاً للتمكين، مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فأين هم اليوم من هذا الشرط؟! أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته؟!

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً، ـ إلا ما رحم ربي ـ فلا هو الذي يستمدّون منه الشريعة التي تحكمهم، ولا هو الذي يستمدون منه منهجَ تربيتهم، ولا هو الذي يستمدّون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم، وإنما وجهتهم في ذلك كله هي أوربة، شرقها أو غربها سواء، فكيف يطمعون أن ينصرهم ربّهم وهم معرضون عن كتابه؟! وأن يمكّن لهم في الأرض وهم مخالفون لشرطه؟!.

لقد ابتلى اللهُ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ذلك الابتلاء الضخم الذي أبلى فيه بلاءً حسناً، فكافأه الله على طاعته فقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وعندئذٍ أدركته رغبته الفطرية في أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فماذا قال له الله سبحانه وتعالى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فهذه سنةٌ من سنن الله الجارية، التي لا تتبدّل ولا تحابي أحداً، إنّ الله لا يعطي الناس التمكين في الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين، بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون، فإذا تخلّوا عن شرطِ الإيمان الصحيح، فلا يمنعهم يومئذٍ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين(١).

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بني إسرائيل بتفصيل كامل، لكي لا نقعَ فيما

(١) ركائز الإيمان ص (٣٨٧).

وقعوا فيه، وحذّرنا من ذلك تحذيراً ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

فماذا كان من بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والأمة الإسلامية اليوم تقف في الموقف الذي حذرنا الله منه، يتركون كتابهم من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا، ويمنّون أنفسهم بالأماني الفارغة ويقولون سيُغفر لنا! لا جرمَ إذن أن يكونوا على حالهم الذي هم فيه. «**ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل**».

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤][(١)].

٢ ـ مستقبل الأمة الإسلامية:

لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي منه إلا بالرجوع إلى الله، واتّباع المنهج القرآني، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفيَ أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض، لا خلاصَ للأمة الإسلامية ممّا هي فيه إلا بالرجوع إلى الله، واتباع المنهج القرآني، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفي أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض والتقتيلُ والتشريدُ قائمٌ، وتفتيت وحدةِ المسلمين يشتدُّ يوماً بعد يوم، ذلك أنهم ماضون في مخالفة أمر الله، والبعد عن كتابه الكريم، وقد أخبرهم الله ورسوله ﷺ بأنهم لن ينتصروا، ولن ينصلحَ حالهم، إلا بالتزام أوامر الله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٨٩).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقد آن للأمة الإسلامية أن تعرفَ هذه الحقيقة ، وتعمل بمقتضاها ، آن لها أن تدركَ أولاً أنّ ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خيرٌ مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وأنّ التشريع السماوي الذي يعرضون عنه هو أكملُ تشريع ، وأفضلُ تشريع ، بينما شرائع الجاهلية كلّها نقصٌ وانحرافٌ واختلالٌ ، وأنّ منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح ، وما سواه كله انحراف[١].

والبداية هي معركة النفوس ، **قال تعالى**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ، فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، وكفّوا عن إعراضهم عن كتاب الله ، وعادوا إلى الأخذِ بمنهجهم القرآني ، فسيعيدُ الله خيراتهم إليهم ـ بقدر منه وبجهدٍ يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم ـ فيصبحون أغنى أمة في الأرض ، **قال تعالى**: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ويصبحون من ثَمَّ أقوى أمة في الأرض ، فإن الغني هو الذي أنشأ القوة المادية ، التي ينتصر بها المؤمنون ، ويصبحون أداة سلامٍ في العالم المهدَّدِ بالدمار ـ لأن العالم ـ بمعسكريه إنّما يتنازعُ على امتلاكنا نحنُ ، امتلاك خيراتنا ، واستعبادنا ، وكسر شوكتنا ، فيوم نكونُ أصحابَ ثرواتنا ، ومُلّاك أنفسنا ، فسنكوِّن القوّةَ التي تمنعُ النزاع في الأرض ، أو في القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا ، وليس واقعاً علينا كما هو اليوم[٢].

ثالثاً ـ حقوق النبي ﷺ:

١ ـ الإيمان به ﷺ:

هو تصديقه ، وطاعاته ، واتّباع شريعته[٣] ، وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي ﷺ.

---

(١) ركائز الإيمان ص (٣٩١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ، لابن تيمية ص (٩٢).

وعن بيان هذه الأمور المطلوبة عند الإيمان به بالنبي ﷺ. قال العلماء:

أ ـ أما تصديقه ﷺ فيتعلّق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثباتُ نبوته، وصدقه فيما بلّغه عن الله، وهذا مختصٌّ به ﷺ(١).

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدّةُ أمورٍ منها:

* الإيمانُ بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.

* الإيمان بكونه خاتم النبيين، ورسالته خاتمة الرسالات.

* الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

* الإيمان بأنه ﷺ قد بلغ الرسالة، وأكملها، وأدّى الأمانة، ونصح لأمته حتى تركهم على بيضاء ليلها كنهارها.

* الإيمان بعظمته.

* الإيمان بماله من حقوق، كما سيأتي تفصيلُها بإذن الله.

ب ـ تصديقُه فيما جاء به، وأنَّ ما جاء به من عند الله حقٌّ يجبُ اتباعه، وهذا يجب عليه ﷺ وعلى كلِّ أحد(٢).

فيجب تصديقُ النبيِّ ﷺ في جميع ما أخبر به عن الله عز وجل، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي، وفيما أحلّ من حلال، وحرّم من حرام، والإيمان بأنّ ذلك كله من عند الله عز وجل، **قال تعالى**: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ويجب على كلّ أحدٍ أن يؤمنَ بما جاء به الرسول ﷺ إيماناً مُجملاً، ولا ريبَ أنَّ معرفة ما جاء به الرسول ﷺ على التفصيل فرضٌ على الكفاية(٣).

ب ـ طاعته واتباع شريعته:

إنّ الإيمان بالرسول ﷺ كما يتضمّن تصديقه فيما جاء به، فهو يتضمّن كذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).

(٢) المصدر نفسه، وحقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ٣٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص (٦٦).

العزم على العمل بما جاء به ، وهذه هي الركيزةُ الثانيةُ من ركائز الإيمان به ﷺ ، وهي تعني: الانقياد له ﷺ ، وذلك بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، امتثالاً **لقوله تعالى:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧][(١)].

٢ ـ وجوب طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته ، والمحافظة عليها:

إنَّ الآيات الواردة في الأمر بطاعة النبي ﷺ واتباعه والاقتداء به ، جاءت في مواطنَ متعددة من القرآن الكريم ، واتّصفت تلك الآيات بتنوع أساليبها ، وتعدّد صيغها مع اتحادها جميعاً في الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ وطاعته في جميع ما جاء به من شرائع وأحكام من عند الله عز وجل[(٢)] ، ويمكن تقسيمُها على حسب ما اتّحدت به في السياق على النحو التالي:

أ ـ الآيات التي جاء فيها الأمر بطاعته:

ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

---

(١) حقوق النبي على أمته (١/ ٣٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٧٣).

ب ـ وفي آيات أخر يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، مع إعادة الفعل ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ ما يأمرُ به رسول الله ﷺ تجبُ طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في كلام الله ، الذي هو القرآن ، فتجبُ طاعةُ الرسول ﷺ مفردةً ، كما تجب مقرونةً بأمره سبحانه ، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي هذه الآية أمر تعالى بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وأعاد الفعل إعلاماً بأنّ طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان ما أمرَ به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه[1] ، لقوله ﷺ: «**ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[2].

ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً ، بل حذف الفعلَ ، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ﷺ ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ﷺ ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول ﷺ وجبت طاعته ، ومن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ فلا سمعَ له ولا طاعة ، كما صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف**»[3] ، وقال ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ أو كره، إلا أنْ يؤمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة**»[4].

---

(١) أعلام الموقعين ، لابن القيم (١/٤٨).
(٢) أبو داود رقم (٤٦٠٤).
(٣) مسلم (٦/١٥).
(٤) البخاري رقم (٧١٤٤).

وفي **قوله تعالى**: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أنّ الهداية في طاعة الرسول ﷺ لا في غيرها، فإنه معلّق بالشرط، فينتفي بانتفائه.. وهذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت، فلا وجودَ لها بدون شروطها[(١)] إذا ما علّق على الشرط، فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له، وإذا ثبت هذا، فالآية نصٌّ في انتفاء الهداية عند عدم طاعته[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، والمعنى: أنّه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته، والانقياد له، والتسليم[(٣)].

ج ـ الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه:

فقد جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسوله ﷺ والتأسي به في مواطن متعددة كما في كتابه العزيز[(٤)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ٣١].

ففي هذه الآيةُ الأولى جعل الله الاتّباع سبيلاً إلى نيل حبّه، ووسيلةً إلى تحقيق رضاه، وحصول غفرانه، إذ باتّباع الرسول ﷺ يحصلُ حبُّ الله تعالى ورضاه ومثوبته، فالخير كلّ الخير في اتّباعه، والشرّ كلّ الشرّ في مخالفته والابتعاد عن سنته، فالاتّباع هو دليل المحبّة وبرهانها، وبتحقّقه تكون المحبّة التي هي إحدى ثمراته، كما **قال تعالى**: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، كما أنّ من ثمراته غفران الذنوب، كما جاء في هذه الآية نفسها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾.

وهذه المنزلةُ والمكانةُ لاتّباع الرسول ﷺ نابعةٌ من كون هذا الاتباع إنّما هو في

---

(١) حقوق النبي على أمته (١/ ١٧٧).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٧٧).
(٣) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٨٧).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٧٨).

الحقيقة اتباع لله ، إذ الرسول ﷺ إنّما جاء لهذا الدين من عند الله عز وجل ، فهو شرعُ الله ودينه الذي أوحاه لرسوله ﷺ ليبلغه للعباد ، فالرسول ﷺ إنّما هو مبلّغ عن الله ، ولم يأتِ بشيء من عند نفسه ، **قال تعالى**: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]. **وقال تعالى**: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الآيات التي جاء فيها الأمرُ بالتأسّي به واتباعه **قوله تعالى**: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

جاء الأمر بالاتباع عقب الأمرِ بالإيمان تأكيداً على وجوب اتباع النبي ﷺ ، وإلا فإنّ الاتباع داخل في الإيمان ، ولكن أفرد بالذكر هنا تنبيهاً على أهميته وعظيم منزلته(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [الحشر: ٧]. فهذه الآية أوجبت الاتّباع المطلق للنبي ﷺ ، فما أمر به من شيء ، فإن علينا فعله ، وما نهى عن شيء ، فإنّ علينا تركه واجتنابه ، فهو لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر(٢).

وفي هذا الاتّباع والانقياد حياتنا وفلاحنا ، كما **قال تعالى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إذ الحياةُ الحقيقية الطيّبة هي حياةُ مَنِ استجابَ لله ولرسوله ﷺ ظاهراً وباطناً ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات ، وإن كانوا أحياء الأبدان ، ولهذا كان أكملُ الناس حياة أكملَهم استجابةً لدعوة الرسول ﷺ ، فإنّ كلّ ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة ، وفيه من

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٨٠).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٨٠).

الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ(١).

ولقد أعقب هذا الأمرَ بالاستجابة تحذيرَ مَنْ تركَ الاستجابة له ، أو تثاقل وتباطأ عنها ، **فقال تعالى**: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ والمعنى: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة ، وأبطأتم عنها ، فلا تأمنوا أنّ الله يحول بينكم وبين قلوبكم ، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم بعد وضوح الحق واستبانته(٢).

وأما **قوله تعالى**: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فقد جعل الله تبارك وتعالى من رسوله ﷺ الأسوة والقدوة ليحتذيَ به الخلقُ في أقواله وأفعاله ، وجميع ما جاء به النبي ﷺ(٣) ، قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله(٤).

د ـ الآيات التي جاء فيها التسليم لحكمه والانقياد له:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنّه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكِّمَ الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حَكَمَ به فهو الحقُّ الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا **قال تعالى**: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥] ، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمتَ به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلّمون لك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة(٥).

---

(١) الفوائد ، لابن القيم ص ٨٨ بتصرف.
(٢) الفوائد ، لابن القيم (٩٠).
(٣) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٨١).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٤).
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).

وهذه الآيةُ ينبغي لكلِّ مسلم أن يعرض نفسه عليها[1] ومتى أراد العبدُ أن يعلم ـ قبوله لحكم الرسول ﷺ والتسليم له ـ فلينظرْ في حاله ، ويطالعْ قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤ ـ ١٥].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودّهم أنْ لو لم ترد؟ وكم من حزازة في أكبادهم منها؟ وكم من شجًى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر[2].

ومن الآيات التي جاءت في وجوب التسليم لحكمه ، والانقياد له ، **قوله تعالى:** ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. **وقوله تعالى:** ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأمّا الأحاديث النبوية في حَثِّ الأمة على طاعة رسول الله ﷺ وامتثال أمره ، واتباع ما جاء به ، فهي كثيرةٌ منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ أمتي يدخلونَ الجنّةَ إلا مَنْ أبى**» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخلَ الجنّة ، ومن عصاني فقد أبى**»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاعَ الله ، ومن عصاني فقد عصى الله**»[4].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ نبيٍّ بعثَه**

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٨٣).
(٢) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٨٣).
(٣) البخاري رقم (٧٢٨٠).
(٤) البخاري رقم (٧١٣٧).

اللهُ في أُمةٍ قبلي إلّا كان له من أُمّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنّته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنّها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردلٍ»(١) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءَ ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلمّا أخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبيِّ ﷺ ، وقد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟! قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال آخر: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوّجُ أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ أنّي أخشاكم للهِ وأتقاكم له ، ولكنّي أصومُ وأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ ، وأتزوّجُ النساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سنّتي فليسَ مني**»(٢) .

وقد رسم النبي ﷺ في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما: الاتباع ، وترك الابتداع(٣) .

وقد بيّن الرسول ﷺ مواقفَ الناسِ من الأخذ بدعوته واتّباع سنته ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إنّ مثلَ ما بعثني الله به عزّ وجلّ من الهُدى والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً ، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأ والعشبَ الكثيرَ ، وكان منها أجادِبُ أمسكتِ الماءَ ، فنفع الله منها الناسَ ، فشربوا منها ، وسُقوا ، وزرَعوا ، وأصابَ طائفةً منها أُخرى ، إنّما هي قِيعانٌ لا تمسكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كلأً ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِه في دينِ اللهِ ، ونفعه الله به فعلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به**»(٤) .

---

(١) مسلم (٥٠).

(٢) البخاري رقم (٥٦٣).

(٣) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ١٩٧).

(٤) البخاري رقم (٧٩).

وفي هذا الحديث قسّم النبيُّ ﷺ الناسَ ـ فيما يتّصل بدعوته ـ إلى ثلاث أقسام ، وشبّه ﷺ العِلْمَ الذي جاء به بالغيث ، لأنّ كلاً منهما سبب الحياة ، فالغيثُ سببُ حياة الأبدان ، والعلمُ سببُ حياة القلوب ، وشبّه القلوبَ بالأودية كما **قال تعالى**: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] كما أنّ الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

• **إحداها: أرضٌ زكية** ، قابلةٌ للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيثُ ارتوتْ ، ومنه يثمِرُ النبتَ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، فذلِكَ مَثَلُ القلبِ الزكي الذكي ، فهو يَقْبَلُ العلمَ بذكائه ، فيثمِرُ فيه وجوه الحِكَمِ ودين الحق بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلم بذكائه ، ويثمِرُ فيه وجوهَ الحكم والدين بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلمِ مثمرٌ لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

• **والثانية**: أرضٌ صلبةٌ قابلةٌ لثبوتِ ما فيها وحفظه ، فهذه تنفعُ الناسَ لورودها والسقي منها ، والازدراع وهو مثل القلب الحافظ للعلم ، الذي يحفظه كما سمعه دون في تصرّف فيه ، ولا استنباط ، بل للحفظِ المجرّدِ فهو يؤدّي كما سمع ، وهو مِنَ القسم الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**فَربَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه ، وربَّ حامِلِ فقهٍ غير فقيهٍ**»(١).

فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجاراتِ ، فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرةَ له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنّه حافِظٌ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

• **والأرض الثالثة**: أرضٌ قاعٌ ، وهو المستوى الذي لا يقبلُ النباتَ ، ولا يمسِكُ ماءً ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنفع منه بشيءٍ.

فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنّما هو بمنزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثلُ الفقيرِ الذي لا مال له ، ولا يحسن يمسك مالاً.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٨٨) حديث صحيح.

فالأول: عالمٌ معلّمٌ، وداع إلى الله على بصيرةٍ، فهذا من ورثةِ العلم.

والثاني: حافظٌ مؤدٍّ لما سمعه، فهذا يحمِلُ لغيره ما يتّجِرُ به المحمولُ إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأساً فاستوعب هذا الحديثُ أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد، وقسم شقي(١).

هـ ـ الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول ﷺ وحكم من خالفه:

ورد التحذيرُ من معصية الرسول ﷺ في مواطنَ عدّة من القرآن الكريم، وقد جاء التحذيرُ مصحوباً بالوعيد الشديد لذلك المخالف العاصي ومن تلك المواطن.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

---

(١) حقوق النبي على أمته (١/ ٢٠١).

كما أنّ كلَّ من أعرضَ عن حكم الرسول ﷺ ولم ينقد له ، ولم يرضَ به إلاّ إذا كان موافقاً لهواه ، فهو محكومٌ عليه بالنفاق بنصِّ القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥١].

فمن سمةِ المنافقين أنّهم لا يتحاكمون لشرع الله ، إلاّ إذا كان الحقّ في صفّهم ، وحكم الشرع لصالحهم ، أمّا إذا كان الأمرُ على خلافِ ذلك ، فلا ترى منهم سوى الإعراضِ عن شرع الله المتمثّل في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وأمّا أهل الإيمان الذين ترسّخَ في قلوبهم الإيمانُ بشرع الله اعتقاداً بالقلبِ ، وقولاً باللسان ، وعملاً بالجوارح ، فإنّ من صفاتهم وعلاماتهم تحاكمهم لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في جميع أحوالهم وشؤونهم مع الرضى والتسليم لذلك الحكم سواء كان لهم أم عليهم ، ولذلك فقد وصف الله أهل الإيمان بالفلاح[١] ، **فقال تعالى:** ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بينما وصفَ أهلَ النفاقِ بالظلم حيث **قال تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٣ ـ وجوب محبته ﷺ:

لمّا كانت محبة الله ورسوله ﷺ من أعظم واجبات الإيمان ، وأكبر أصوله ، وأجل قواعده ، بل هي أصلُ كل عمل من أعمال الإيمان والدّين ، كما أنَّ التصديق أصلُ كلّ قولٍ من أقوال الإيمان[٢] ، ولمّا كانت هذه المحبةُ من الإيمان الواجب الذي لا يتمّ إيمانُ العبدِ إلاّ به ، ولما كانت هذه المحبّة هي إحدى

---

(١) حقوق النبي على أمته (١/٢٥٢).

(٢) مجموع الفتاوي (١٠/٤٨ ـ ٤٩).

الحقوق الواجبة للنبيِّ ﷺ على أمته ، فقد جعل الله هذه المحبة فوق محبة الإنسانِ لنفسه وأهله وماله والناس أجمعين ، كما نصَّ على ذلك :

أ ـ في كتاب الله العزيز ، **قال تعالى** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالآية نصّت على وجوب محبة الله ورسوله ﷺ ، وأنّ تلك المحبة يجب أن تكون مقدّمةً على كلِّ محبوبٍ ، ولا خلافَ في ذلك بين الأمة[(١)].

كفى بهذه الآية حضّاً وتنبيهاً ، ودلالة وحجة على لزوم محبته ، ووجوب فرضها ، واستحقاقه لها ﷺ ، إذا قرّع تعالى مَنْ كان مالُه وأهلُه وولدُه أحبَّ إليه من الله ورسوله ﷺ ، وأوعدهم **بقوله تعالى** : ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ ﴾ ، ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممّن ضلَّ ، ولم يهده الله[(٢)].

ب ـ ومن الآيات التي يستدلّ بها على وجوب محبّةِ النبي ﷺ **قوله تعالى** : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ ، فالآيةُ دليلٌ على أنّ مَنْ لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه ، فليس من المؤمنين ، وهذه الأولوية تتضمّن أموراً أهمها :

أن يكونَ النبي ﷺ أحبَّ إلى العبدِ من نفسه ، لأنَّ الأولية أصلُها الحبّ ، ونفس العبد أحبُّ إليه من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول ﷺ أولى به منها ، فبذلك يحصلُ له اسمُ الإيمانِ.

ويلزمُ من هذه الأولوية والمحبة كما الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره ، وإيثاره على من سواه[(٣)].

ج ـ ومما يستدلُّ به كذلك على وجوب محبّة النبي ﷺ **قوله تعالى** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٩٥) بتصرف.

(٢) الشفا (٢/ ٥٦٣).

(٣) حقوق النبي على أمته (١/ ٣٠٤).

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أنَّ الآية قد تضمّنت وجوبَ محبة النبي ﷺ ، لأنّه ممّا يدخل في محبة الله محبة ما يحبّه الله ، والله يحبُّ نبيه وخليله ﷺ ، فمن أجل ذلك وجبتْ علينا محبته ، ومن المعلوم أن أصل حب أهل الإيمان هو حب الله ، ومن أحب الله أحب من يحبه الله ، وكل ما يحب سواه فمحبته تكون تبعاً لمحبة الله ، إذ ليس في الوجود ما يستحقُّ أن يحبّ لذاته من كلّ وجهٍ إلا الله تعالى ، فالرسولُ ﷺ إنّما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله ، وكذا الأنبياء والصالحون وسائر الأعمال الصالحة تَحبُّ جميعاً ، لأنها مما يُحِبُّ الله ، وبهذا يعلم تعين محبة النبي ﷺ ووجوبها ولزومها.

هذا وقد جاء ذكر محبة الرسول ﷺ مقترناً بمحبّة الله في **قوله تعالى**: ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ وكذلك في قوله ﷺ: «**ثلاثةٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما. . .**»(١).

وهذا الاقترانُ يدلِّل على مدى الصلة الوثيقة بين محبة الله ومحبة رسول الله ﷺ، وإن كانتْ محبّةُ الرسولِ ﷺ داخلةً ضِمْنَ محبة الله تعالى أصلاً ، لكنّ إفرادها بالذكر مع أنّها ضِمْنَ محبّة الله فيه إشارة إلى عِظَمِ قدرها وإشعارٌ بأهميتها ومكانتها(٢).

د ـ ومن الأدلة: **قوله تعالى**: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١].

ففي هذه الآية إشارةٌ ضمنية إلى وجوبِ محبّة النبيِّ ﷺ ، لأنَّ الله تبارك وتعالى قد جعل برهانَ محبّته تعالى ودليلَ صدقها هو اتّباعُ النبيِّ ﷺ ، وهذا الاتّباعُ لا يتحقّقُ ولا يكونُ إلا بعد الإيمان بالنبيِّ ﷺ ، والإيمانُ به لابدّ فيه من تحقق شروطه ، التي منها محبة النبي ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده**»(٣).

---

(١) البخاري رقم (٢١).
(٢) حقوق النبي على أمته (١/٣٠٦).
(٣) البخاري رقم (١٤).

هـ ـ والأدلة من السنة على وجوب محبته ﷺ كثيرة منها:

قوله ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِكَ**» فقال له عمر: فإنّه الآن واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعين**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلا لله، وأن يكرَهَ أن يعودَ في الكفرِ بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار**»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «**وما أعددتَ للساعة؟**» قال: حب الله ورسوله. قال: «**فإنك مع مَنْ أحببت**» قال أنس: فما فرحنا بعدَ الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببتَ**» قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمرَ، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم(٤).

من علامات محبته ﷺ:

- اتباعه والأخذ بسنته ﷺ.
- الإكثار من ذكره ﷺ.
- تمني رؤيته والشوق إلى لقائه ﷺ.
- النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم.

---

(١) البخاري رقم (٦٦٣٢).
(٢) البخاري رقم (١٥).
(٣) البخاري رقم (٢١).
(٤) البخاري رقم (٦١٧١).

- تعلّم القرآن الكريم.
- محبة من أحب الله ورسوله ﷺ.
- بغض من أبغض الله ورسوله ﷺ.
- الزهد في الدنيا[١].

٤ ـ وجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه:

ومعنى **التعزير**: اسمٌ جامع لنصره وتأييده، ومنعه من كل ما يؤذيه[٢].

ومعنى **التوقير**: اسم جامع لكلِّ ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامَل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوقار[٣].

ومعنى **التعظيم**: التبجيل، وقد استخدمه العلماء في كلامهم عند هذه المسألة، وذلك لقربه في المعنى إلى ذهن السامع، ولتأديته للمعنى المراد من لفظتي (التعزير) و(التوقير)[٤].

إنّ تعظيمَ النبي ﷺ وإجلالَه وتوقيرَه شعبةٌ عظيمةٌ من شعب الإيمان، وهذه الشعبةُ غير شعبة المحبة، بل إنَّ منزلتها ورتبتَها فوقَ منزلة ورتبة المحبة، ذلك لأنّه ليس كلُّ محبٍّ معظِّماً، ألا ترى أنّ الوالد يحبُّ ولده، ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه، ولا يدعوه إلى تعظيمه، والولد يحب والده فيجمع بين التكريم والتعظيم، فعلمنا بذلك أنَّ التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة[٥].

ومن حق النبي ﷺ على أمته أن يُهابَ ويعظَّم ويوقّر أكثر من كل ولد لوالده، ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة[٦]. وهو ما أمر الله به في كتابه

(١) حقوق النبي على أمته (١/ ٣٢١).
(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (٤٢٢).
(٣) المصدر نفسه ص (٤٢٢).
(٤) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٢٢).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٣).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٣).

العزيز **قال تعالى**: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩]. **وقال تعالى**: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه ﷺ وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه، **ومن تلك الآيات ما يلي**:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [النور: ٦٣]. ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعى رسول الله ﷺ بغلظة وجفاء، وأمرهم أن يدعوه بلين وتواضع[(١)]، وأمرهم أن يفخّموه ويشرّفوه[(٢)].

فقد خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن ليقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرمْ به أحداً من الأنبياء، فلم يدعُه باسمه في القرآن قط بل **يقول**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [المائدة: ٦٧][(٣)].

ب ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١ ـ ٥].

ج ـ وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).
(٢) المصدر نفسه (١٨/ ١٧٧).
(٣) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٢٥).

د ـ **وقال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

هـ ـ **وقال تعالى**: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

و ـ **وقال تعالى**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٣].

فهذه الآيات تبيّنُ لنا حقوق رسول الله ﷺ، وأنّه أجلّ وأعظمُ وأكرمُ وألزمُ لنا وأوجبُ علينا من حقوق الآباء على أولادهم، لأنّ الله أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لأمر إن أطعناه كانت طاعته سبباً في دخول جنات النعيم، فأيُّ نعمة توازي هذه النعم؟! وأية مِنّةٍ تداني هذه المنن؟! فحقٌّ علينا إذن أن نحبّه ونجلّه ونعظّمه ونهابه، فبهذا نكون من المفلحين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧][1].

فالآية بيّنت أنّ الفلاح إنّما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدّبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع، وكما **قال تعالى** في الإناطة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨ ـ ٩]، راجع إلى

---

(١) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٤٥).

رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة ، والتحدث إليه ومجالسته[١] ، فالتسبيحُ لله وحده ، والتعزيرُ والتوقيرُ للرسول ﷺ ، والإيمان بالله ورسله[٢] .

فهذه الآيات وغيرُها نزلت لتبيّن مقامَ شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه ، مما يوجِبُ على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطبتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم[٣] .

ومما يدل على عظيم قدره ، ورفعة مكانته عند ربه ، الخصائص التي أمتنّ الله بها على عبده ورسوله محمد ﷺ ، والتي تدلل على تشريف الله عز وجل وتكريمه لنبيه محمد ﷺ ، فقد أكرم الله نبينا محمد بخصائص في الدنيا والآخرة دلّت على علو قدره ، ورفعة مكانته ، وسموّ منزلته عند الخالق تبارك وتعالى ، فقد **قال تعالى** في محكم تنزيله : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء : ١١٣] .

ففي هذه الآية يمتنُّ الله على نبيه ﷺ بما أسبغَ عليه من الفضائل ، التي هي المناقب والمراتب التي أعطاه الله إياه ، وميّزه بها على بقية أنبيائه ، فالله سبحانه فضّل بعض الرسل على بعض ، **فقال تعالى** : ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

فكان لنبيّنا محمد ﷺ النصيبُ الأوفر من هذا الفضل ، فقد خصّه الله وميّزه بخصائص ومناقب دنيوية وأخروية ، فُضِّلَ بها على سائر الأنبياء ، ومَنْ سواهم من البشر .

ومن هذه الخصائص على وجه الاختصار[٤] :

أ ـ أخذ العهد له ﷺ على جميع الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام :

من الأمور التي تدل على عظيم قدره ﷺ عند ربه ما أخذ الله من العهد له ﷺ على جميعِ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنّه لو بُعِثَ ﷺ وهم أحياء

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٤٥).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٤٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٤٦).
(٤) حقوق النبي على أمته (٢/ ٣٩٤).

أو أحدٌ منهم ، فإنّه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه[١] .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] .

ب ـ أنه ﷺ أكثرُ الأنبياء تبعاً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**ما مِنْ نبيٍّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ آمنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أُوْتِيتُه وَحْياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة**»[٢] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**أنا أكثرُ الأنبياء تبعاً يوم القيامة**»[٣] .

ج ـ أنّ قرنه ﷺ خيرُ قرون بني آدم كما أنه خير قرون أمته والقرون التي تلي قرنه ﷺ :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : «**بُعِثْتُ من خيرِ قرونِ بني آدم قرناً فقرناً حتى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ فيه**»[٤] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**خيرُ الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم**»[٥] .

د ـ أن الله تعالى أخبره أنه غَفَرَ له ما تقدّمَ من ذنبه وما تأخّرَ وهو حيٌّ صحيحٌ يمشي على الأرض :

قال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] .

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٩٥).
(٢) البخاري رقم (٧٣٧٤).
(٣) مسلم رقم (١/ ١٣٠).
(٤) البخاري رقم (٣٥٥٧).
(٥) البخاري رقم (٣٥٥٧).

هـ ـ أن الله رفع له ذكره:

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

فلا يذكر الله سبحانه إلا ذكر معه، ولا تصحُّ للأمة خطبةٌ ولا تشهّدٌ حتى يشهدوا أنّه عبده ورسوله، وأوجب ذكره في كل خطبة، وفي الشهادتين اللتين هي عمادُ الدين، إلى غير ذلك من المواضع(١).

و ـ أن الله أقسم بحياته ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

والإقسامُ بحياة المقسَم بحياته يدلُّ على شرف حياته، وعزتها عند المقسم بها، وأنّ حياته ﷺ لجديرةٌ أن يقسَمَ بها لما فيها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره ﷺ(٢).

ز ـ أن الله وقره في ندائه، فناداه بأحبِّ أسمائه وأحسنِ أوصافه، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾:

وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أنَّ كلا منهم نودي باسمه، **فقال تعالى:** ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]. ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: ٤٨]. ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١].

فمن دُعِيَ بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه(٣).

ح ـ أنّ الله أمرَ الأمةَ بأن لا تناديه باسمه، بل تناديه يا رسول الله، يا نبي الله(٤):

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) حقوق النبي على أمته (٢/٤٠١).
(٢) المصدر نفسه (٢/٤٠١).
(٣) حقوق النبي على أمته (٢/٤٠٢).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٠٦).

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير عند تفسيرها كانوا يقولون: يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ ، وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله[١].

ط ـ أن الله نهى الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ ولا يجهروا له بالقول ، كما هو الحال بين الناس ، حتى لا تحبطَ أعمالهم:

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابتَ بن قيس[٢] ، فقال رجلٌ: يا رسول الله أنا أعلمُ لك عِلْمَه ، فأتاه ، فوجده جالساً في بيته منكِّساً رأسَه ، فقال له ما شأنك؟.

فقال: شر. كان يرفعُ صوته فوقَ صوت النبي ﷺ ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنّه قال كذا وكذا ، فقال موسى[٣] ، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمة ، فقال: «**اذهب إليه فقل له: إنكَ لستَ من أهل النار ، ولكنّك من أهلِ الجنَّة**»[٤].

قال عبد الله بن الزبير بن العوام: ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[٥].

ي ـ أن الله أمرَ الأمةَ بأنهم إذا أرادوا أن يناجوه ﷺ بأن يقدّموا بين يدي نجواهم صدقةً ، ثم نسخ ذلك ، وأمرهم بالطاعة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ

---

(١) ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي.
(٢) موسى بن أنس بن ثابت ، قاضي البصرة.
(٣) البخاري رقم (٤٨٤٦).
(٤) المصدر نفسه رقم (٤٨٤٥).
(٥) حقوق النبي على أمته (٢/ ٥٩٠).

تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢ ـ ١٣].

ك ـ ما وهبه الله له من المعجزات التي تميزت عن معجزات من قبله من الأنبياء:

فمعجزة سيد الأولين والآخرين هي القرآن العظيم، الباقي إلى يوم الدين، الذي لا تنضبُ معانيه، ولا تفنى عجائبه، ولا تنقطع فوائده، وهو المحفوظ ـ بحفظ الله له ـ من التغيير والتبديل والتحريف، فيه دواء وشفاء، ومواعظ وأحكام، فيه خبرُ مَنْ سبقنا، وأحوالُ منْ بعدنا، وهو حبلُ الله المتين، مَنْ آمن به واتبعه رشد، ومن تركه وضلّ عنه غوى وهلك، وخاب وخسر، فهو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الإنسان في هذه الدنيا، بينما تصرّمت وانقرضت معجزاتُ مَنْ قبله من الأنبياء(١).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نبيٍّ إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله لي، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة**»(٢).

وكذلك فقد وجد من معجزاته ما هو أظهرُ في الإعجاز من معجزات غيره، كتفجير الماء بين أصبعيه ﷺ، فهو أبلغ في خرق العادة من تفجيره من الحجر، لأن جنس الأحجار ممّا يتفجر منه الماء، وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغُ من انفجار الماء من الحجر لموسى عليه الصلاة والسلام(٣).

وعيسى عليه السلام أبرأ الأكمه مع بقاء عينه في مقرها، ورسول الله ﷺ ردَّ العين بعد أن سالت على الخدِّ، ففيه معجزة من وجهين: **إحداهما**: التئامها بعد سيلانها. **والأخرى**: ردُّ البصر إليها بعد فقده منها(٤).

فعن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة أنه أُصيبتْ عينُه يومَ أُحدٍ فسالت حدقتُه على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا النبيَّ ﷺ فقال: «**لا**»

---

(١) البخاري رقم (٧٢٧٤).

(٢) بداية السول في تفصيل الرسول، للعز بن عبد السلام ص (٤١).

(٣) المصدر السابق ص (٤١ ـ ٤٢).

(٤) أبو نُعيم في دلائل النبوة ص (٤١٨).

فدعا به ، فغمز عينه براحته ، فكان لا يَدرِي أيّ عينيه أصيبتْ.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة وقد تطرّق إليها مَنْ كتب في (الدلائل) و(الخصائص)(١).

قال الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أَعطى محمّداً ﷺ(٢).

وقال السيوطي: قال العلماء: ما أوتي نبيٌّ معجزة ولا فضيلة إلا لنبينا ﷺ نظيرها أو أعظم منها(٣).

ل ـ أنه سيد ولد آدم يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيدُ ولدِ آدم يوم القيامة ، وأوّلُ من يَنْشَقُّ عنه القبر ، وأوّلُ شافعٍ وأوّلُ مشفّع**»(٤).

وسيادة النبي ﷺ للناس يوم القيامة تظهر واضحة جلية بما سيناله من الشرف العظيم يوم القيامة ، وعلى رأس ذلك الشرفِ شفاعتُه في أهل الموقف ، واختصاصه بذلك من بين الأنبياء والرسل(٥).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا مع النبي ﷺ في دعوةٍ ، فرُفعت إليه الذراعُ ـ وكانت تُعْجِبُه ـ فنهسَ منها نهسةً ، قال: «**أنا سيد الناسِ يومَ القيامة ، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما أبلغكم؟! ألا تنظرون إلى من شفع لكم إلى ربكم؟!.**

فيقول بعض الناس: أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك مِنْ روحه ، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك؟! ألا ترى ما نحن فيه ما بلغنا؟!.

---

(١) كدلائل النبوة للبيهقي والخصائص الكبرى للسيوطي.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم ص (٨٣).

(٣) الخصائص الكبرى (٢/ ٣٠٤).

(٤) مسلم رقم (٧/ ٥٩).

(٥) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٠٧).

فيقول: ربي غَضِبَ غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسمّاك الله عبداً شكوراً ، أما ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك؟.

فيقول: ربي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله ، ولا يغضبُ بعده مثله ، نفسي نفسي ، حتى ينتهوا إلى عيسى عليه السلام فيقول لهم: ائتوا النبيَّ ﷺ فيأتوني ، فأسجدُ تحت العرش ، فيقال: يا محمدُ ارفع رأسك ، واشفع تشفَّع ، وسل تعطى»[١].

واشتمل الحديث كذلك على خصيصة أخرى تدلُّ على تخصيصه وتفضيله ﷺ، وهي كونه أول شافع ، وأول مشفّع ، فهذا أمرٌ خص الله تعالى به رسوله ﷺ ، إذ جعله الشفيع يوم المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليقُ إلا له ، والذي يحيدُ عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه[٢].

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظمُ الخلق جاهاً عند الله ، ولا جاه لمخلوق عند الله أعظمُ من جاهه ، ولا شفاعة أعظمُ من شفاعته[٣].

م ـ أن الله جعل لواء الحمد بيد النبي ﷺ يوم القيامة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيّدُ الناس يوم القيامة ولا فخرَ ، ما مِنْ أحدٍ إلا هو تحت لوائي يوم القيامة ينتظِرُ الفرجَ ، وإن معي لواءَ الحمد ، أنا أمشي ويمشي الناس معي ، حتى آتي باب الجنة ،**

---

(١) البخاري رقم (٣٣٤٠).
(٢) حقوق النبي على أمته (٢/٤٠٨ ـ ٤٠٩).
(٣) مجموع الفتاوي (١/١٤٥).

فأستفتح ، فيقال: من هذا؟ فأقول محمد ، فيقال: مرحباً بمحمد ، فإذا رأيتُ ربي خررت له ساجداً أنظر إليه»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ آدمَ فمن سواه ، إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر**»(٢).

فهذه الخصيصةُ وغيرُها من الخصائص تدلُّ على علوِّ مرتبته ﷺ ، وعلوّ منزلته ، إذ لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب(٣).

ن ـ أنه أول من يجوز على الصراط ، وأول من يقرع باب الجنة ، وأول من يدخلها:

وهذه الأمور مما خُصَّ به النبي ﷺ عن باقي الأنبياء السابقين ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل قال: إن ناساً قالوا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ . . . وفيه «**يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكونُ أول من يجوزُ من الرسلِ بأمته**»(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرعُ بابَ الجنة**»(٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يومَ القيامة فأستفتحُ ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أُمرتُ لا أفتح لأحدٍ قبلك**»(٦).

٥ ـ توقير النبي ﷺ في آله وأزواجه أمهات المؤمنين:

إنّ من توقير النبي ﷺ ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه توقيرُ آله وذريته

---

(١) الحاكم في مستدركه (١/ ٣٠).
(٢) مسند أحمد (٣/ ٢) ، سنن الترمذي رقم (٣٦١٥) حسن صحيح.
(٣) غاية السول ص (٣٥) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤١٠).
(٤) البخاري رقم (٨٠٦).
(٥) مسلم (١/ ١٣٠).
(٦) مسلم (١/ ١٣٠).

وأزواجه ، كما حضَّ عليه ﷺ ، وسلكه السلف الصالح رضوان الله عليهم .

أ ـ فآل بيت النبي ﷺ لهم من الحقوقِ ما يجبُ رعايتُها ، فإنَّ الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء :

قال تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحشر : ٧] .

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ ، ففي الحديث عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسول الله ﷺ فقلنا : قد عرفنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «**قولوا : اللهم صلي على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد**[١]» .

فالصلاة على آل محمّدٍ حقٌّ لهم عند المسلمين ، وذلك سببٌ لرحمة الله تعالى لهم بهذا النسب ، كما تجبُ محبتهم لحبِّ رسول الله ﷺ ، ولأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ ، وأنّ نتولاهم ، ونحفظ فيه وصية رسول الله ﷺ حيث قال في يوم غدير خم : «**وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي**» .

فقيل لزيد بن أرقم : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ .

قال : **نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته مَنْ حُرمَ الصدقةَ بعده** .

قيل : ومن هم؟ .

قال : **آلُ عليٍّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس** .

قيل : كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ .

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٣٢).

قال: نعم(١).

ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجِدَ على ظهر الأرض فخراً وحسباً، **إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم العباس وبنوه وعلي وأهل بيته وذريته** رضي الله عنهم أجمعين(٢). وكذلك آل عقيل وآل جعفر كما في حديث مسلم السابق.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٣).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمّداً ﷺ في أهل بيته(٤).

ب ـ أما زوجات النبي ﷺ رضوان الله عليهن أجمعين فيجب علينا أن نحفظ لهنّ حقهنّ في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، والمكانة التي جعل الله لهنّ، فلقد رفع الله مقامهن، وبوّأهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين، وهي منزلة الأمومة، فجعلهنّ أمهات في التحريم والاحترام، فقد **قال تعالى**: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

شرّف الله تعالى أزواجَ نبيّه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والإجلال، وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهنّ رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات(٥).

وكيف لا تكون لهنّ هذه المنزلة والمكانة وهنّ اللائي اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، عندما نزلت آيتا التخيير، **قال تعالى**: ﴿ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ

---

(١) مسلم (٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١١٣).
(٣) مسلم (٧/ ٥٨).
(٤) البخاري رقم (٣٧١٣).
(٥) تفسير القرطبي (١٤/ ١٢٣).

تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وبعد اختيارهن رضي الله عنهن اللهَ ورسولَه والدّارَ الآخرة كرّمهن الله تبارك وتعالى، وكافأهنّ، فكان لهنّ ما أعد الله لهنّ من الأجر العظيم.

ثم ميّزهن عن نساءِ العالمين في العذاب والأجر فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. يعني في الفضل والشرف، وذلك لما منحهنَّ الله من صحبة نبيه ﷺ، وعظيم المحل منه، ونزول القرآن في حقهن[١].

ولقد تضمنت سورة الأحزاب كثيراً من الأمور التي أكرم الله بها أزواج النبي ﷺ، مجازاة لهن على حسن صنيعهن في اختبارهنّ لله ورسوله والدار الآخرة، فمن حقهنّ علينا أن نحفظَ لهنَّ هذه المكانة، وذلك بأن نتولاهن، وأن نثني عليهن بما ورد في فضائلهن، ومع ما كان لهن من دور في مؤازرة النبي ﷺ ونصرته، وما كان لهنّ من دور بعد وفاته ﷺ في حفظ مسائل الدين، ونشرها بين الأمة[٢].

والمسلمون يتولّون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهنّ أزواجه في الآخرة، خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أولاده، وأوّل من آمن به، وعاضده على أمره، وكان له منها المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، التي قال فيها النبي ﷺ: «**فضلُ عائشةَ على النساءِ، كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام**»[٣].

٦ ـ توقيره ﷺ في أصحابه رضوان الله عليهم:

ومن توقيره وبرّه ﷺ توقيرُ أصحابه وبرُّهم، ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسنُ الثناء عليهم، والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عما شجر بينهم، ومعاداةُ مَنْ عاداهم.. ولا يُذْكَرُ أحدٌ منهم بسوء، ولا يُغْمَصُ[٤] عليه أمرٌ، بل تُذْكَرُ

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٧) بتصرف.
(٢) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤) البخاري رقم (٣٧٧٠).
(٤) لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره.

حسناتُهم وفضائلُهم وحميدُ سيرتهم ، ويُسْكَتُ عمّا وراء ذلك(١).

فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه ﷺ ، وخَصَّهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبيِّ ﷺ ، وسماع حديثه من فمه الشريف ، وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه ، وتبليغ ما بعث الله به رسوله ﷺ من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمّها ، فكان لهم الأجرُ العظيمُ لصحبتهم رسول الله ﷺ والجهادِ معه في سبيل الله ، وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه ، ولهم من الأجر مثل أجور مَنْ بعدهم ، لأنّهم الواسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ومن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً ، ولقد أوجبت الحالُ التي كانوا عليها من الهجرةَ والجهادَ والنُّصرةَ ، وبذلَ المُهَج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين : القطع على عدالتهم ، وأنهم أفضل من جمع المعدِّلين والمزكّين ، الذين يجيئون من بعدهم أبدَ الآبدين(٢).

ولقد أثنى ربّهم عليهم أحسنَ الثناء ، ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ، ووعدهم المغفرة والأجر العظيم ، **فقال تعالى**: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وأخبر في آيةٍ أُخرى برضاه عنهم ، ورضاهم عنه ، **فقال تعالى**: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. **وقال تعالى**: ﴿ ۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) الشفا (٢/ ٦١١ ـ ٦١٢).
(٢) حقوق النبي على أمته (٢/ ٤٨٦).

وأمر النبيُّ بالعفو عنهم ، والاستغفار لهم ، فقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأمره بمشاورتهم تطيباً لقلوبهم ، وتنبيهاً لِمَنْ بعدهم من الحكّام على المشاورة في الأحكام **فقال**: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وندب مَنْ جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم ، وألا يجعلوا في قلوبهم غِلاًّ للذين آمنوا **فقال**: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأثنى رسول الله ﷺ عليهم ، ونهى عن النيل منهم ، فقال ﷺ: «**لا تسبّوا أصحابي ، فلو أنّ أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»(١).

كما شهد ﷺ بكونهم خيرَ أمته التي هي خيرُ الأمم ، فقال ﷺ: «**خير الناس قرني**» فالصحابة كلّهم عدولٌ بتعديلِ الله لهم ، وثنائه عليهم ، وثناء رسوله ﷺ ، قال النووي: الصحابةُ كلُّهم عدولٌ مَنْ لابسَ الفتن وغيرهم بإجماع مَنْ يعتدّ به(٢).

وقال ابن حجر: اتفق أهل السنة على أنّ الجميعَ عدولٌ ، ولم يخالِفْ في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة(٣).

وعن الإمام أبي زرعة الرازي قال: **إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فأعلم أنّه زنديق ، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنّما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ ، وإنّما يريدون أن يجرّحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرحُ بهم أولى ، وهم زنادقة**(٤).

---

(١) البخاري رقم (٣٦٧٣).
(٢) تدريب الراوي ، للسيوطي (٢/ ٢١٤).
(٣) الإصابة (١/ ١٧).
(٤) الكفاية ، للخطيب البغدادي ص (٩٧).

٧ ـ الصلاة والسلام على النبي :

ومن حقوق الرسول ﷺ الثابتة التي تعدُّ جانباً مهماً من جوانب تعظيمه وتوقيره عليه الصلاة والسلام ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك **فقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ، فهذه الآية هي الأصل في بيان هذا الحقّ ، وأجمع أهل العلم على أنّ فيها من تعظيم الرسول ﷺ وبيانِ منزلته ، والتنويهِ بمقداره ما ليس في غيرها[١].

والمقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه ﷺ عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأنّ الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهلَ العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً[٢] ، وبهذه الآية شرّف الله نبيّه ﷺ في حياته ، وبعد موته ، وأظهر للعالمين منزلته عنده[٣].

وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ في سائر الأوقات وكثير من الأماكن ، وتتأكد تلك المشروعية في مواطن إما وجوباً وإما استحباباً مؤكداً[٤].

ومن هذه المواطن في الصلاة في التشهد الأول ، وفي التشهد الأخير منها ، وفي آخر القنوت ، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنازة ، وفي الخطب ، كخطبة الجمعة والعيدين ، والاستسقاء ، وغيرها ، وبعد إجابة المؤذن ، وعند الدعاء ، وعند دخول المسجد ، وعند الخروج منه ، وعلى الصفا والمروة ، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم ، وعند ذكره ﷺ[٥].

ولصلاة العبد على النبي ﷺ أجرٌ عظيم ، وفضلٌ عميم ، طالما حصّله

---

(١) حقوق النبي على أمته (٢/ ٥١٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٤).
(٣) الواسطة بين الله وخلقه ص (٢١٣).
(٤) المصدر نفسه ص (٢١٤).
(٥) هناك مواطن أخرى بيّنها ابن القيم في كتابه (جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الأنام) والسخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة والسلام على الحبيب الشفيع).

الذاكرون المصلون ، وضيعه الغافلون[١] .

إنّ طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ هو من أجلّ أدعية العبد ، وأنفعها له في دنياه وآخرته[٢] .

والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي ﷺ كثيرةٌ منها :

● حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**إذا سمعتم المؤذّنَ فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا علي ، فإنّه مَنْ صلّى عليَّ صلاةً ، صلّى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا ليَ الوسيلة ، فإنَّها منزلةٌ في الجنة ، لا تنبغي إلّا لعبدٍ من عبادِ اللهِ ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ، فمن سأل ليَ الوسيلةَ حلّتْ له الشفاعة**»[٣] .

● وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله إنِّي أكثرُ الصلاة عليك ، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟ .

قال : «**ما شئتَ**» .

قلت : الربع؟

قال : «**ما شئت ، وإن زدتَ فهو خيرٌ**» .

قلت : النصف؟

قال : «**ما شئتَ ، وإنْ زدتَ فهو خير**» .

قلت : الثلثين؟ .

قال : «**ما شئتَ ، وإنْ زدتَ فهو خيرٌ**» .

قلت : أجعلُ لك صلاتي كلها؟ .

قال : «**إذن تكفى همّك ، ويُغْفَرُ لكَ ذنبُك**»[٤] .

---

(١) الواسطة بين الله وخلقه ص (٢١٤).
(٢) الواسطة بين الله وخلقه ص (٢١٤) ، نقلاً عن بدائع الفوائد.
(٣) مسلم (٤/ ٨٥).
(٤) سنن الترمذي (٦٤٦/٤) حسن صحيح.

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها يعرِفُ المرءُ عظيمَ فضل الصلاة على النبي ﷺ وأنّه يجني بامتثال هذا الأمر ثمراتٍ نافعةٍ ، ويحصل على فوائدَ جمةٍ في الدنيا والآخرة ، وذلك لأنّ صلاتنا على النبي ﷺ امتثالٌ لأمر الله أولاً ، وموافقة له سبحانه وتعالى في الصلاة على النبي ﷺ ثانياً ، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السلام ، وإن اختلفت تلك الصلوات ، فصلاتُنا عليه دعاءٌ وسؤالٌ ، وصلاةُ الله عليه ثناءٌ وتعظيمٌ وتشريفُ ، وصلاة الملائكة عليه رقةٌ تبعث على استدعاء الرحمة(١) .

وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع «**جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**» عدداً من تلك الفوائد الجمة ، والثمرات النافعة من أهمها :

* امتثال أمر الله .
* حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة .
* أنه يُرفع عشر درجات .
* أنه يُكتب له عشر حسنات .
* أنه يُمحى عنه عشر سيئات .
* أنه يُرْجَىٰ إجابة دعائه إذا قدّمها أمامه ، فهي تصاعِدُ الدعاءَ إلى عند رب العالمين .
* أنها سببٌ لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤالِ الوسيلةِ له .
* أنها سببٌ لغفران الذنوب .
* أنها سببٌ لكفايةِ الله العبدَ ما أهمّه .
* أنها سببٌ لقرب العبد منه ﷺ يومَ القيامةِ .
* أنها سببٌ لدوام محبّته للرسول ﷺ ، وزيادتها ، وتضاعفها .
* أنّ الصلاة عليه ﷺ سببٌ لمحبته للعبد .

---

(١) الشفا (٢/ ٥٠) ، فتح الباري (٨/ ٥٣٢) .

* أنها سببٌ لهدايةِ العبدِ وحياةِ قلبه.

* أنها سببٌ لعرض المصلي عليه ﷺ وذكره عنده.

* أنّ الصلاة عليه ﷺ أداءٌ لأقل القليل من حقه، وشكرٌ له على نعمته التي أنعم الله بها علينا.

* أنّها متضمِّنةٌ لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله(١).

هذه بعض الفوائد والثمار للصلاة على النبي ﷺ.

والأحاديث التي بينت الفوائد كثيرة منها:

- قال رسول الله ﷺ: «**من صلّى علي واحدةً صلى الله عليه عشراً**»(٢).

- وقال رسول الله ﷺ: «**من صلّى علي صلاةً واحدةً صلّى الله عليه عشرَ صلوات، وحطَّ عنه عشرَ خطيئات**»(٣).

- وقال رسول الله ﷺ: «**إنّ أولى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً**»(٤).

وكما وردت أحاديثُ ترغّب في الصلاة على النبي ﷺ، وتبيّن فضلها، فقد وردت أحاديثُ تذمُّ تاركَ الصلاة عليه ﷺ، منها:

- ما رواه أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دَخَلَ عليه رمضانُ، ثم انسلخ قبلَ أن يُغْفَرَ له، ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرُ، فلم يُدْخلاهُ الجنة**»(٥).

- وروى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**البخيلُ مَنْ ذكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ**»(٦).

---

(١) جلاء الإفهام (٣٣٥/ ٣٤٤) بتصرف.

(٢) مسلم (٢/ ١٧).

(٣) صحيح ابن حبان: موارد (٢٣٩٠)، النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٦٣).

(٤) لا بأس بسنده فتح الباري (١١/ ١٦٧).

(٥) سنن الترمذي رقم (٣٥٤٥) صحيح ابن حبان موارد رقم (٢٣٨٧).

(٦) سنن الترمذي رقم (٣٥٤٦) صحيح ابن حبان موارد رقم (٢٣٨٨).

● وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نسيَ الصلاةَ عليَّ أَخْطَأَ طريقَ الجنّة**»[١].

وفي الختام نرجو من الله تعالى أن يرزقنا حُسْنَ الاقتداء ، والحِرْصَ على اتباع النبي ﷺ ، والقيامَ بحقوقه ، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) سنن ابن ماجه رقم (٨٩٥) وقال الألباني حسن صحيح صحيح ابن ماجه (١/ ١٥٠).

الخاتمة

وبعدُ: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالرسل والرسالات في هذا الكتاب ، وقد سمّيته «الإيمان بالرسل والرسالات» ، فما كان فيه من صواب فهو محضُ فضلِ الله عليَّ ، فله الحمد والمنة ، ما كان فيه من خطأ ، فأستغفرُ الله تعالى ، وأتوب إليه ، والله ورسوله بريءٌ منه ، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاّ أقع في الخطأ ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني البشر أينما وجدوا ، وأن يكونَ سبباً في الهداية والتعليم والتذكير ، وردِّ الشبهات عَنْ مَنْ اصطفاهم الله لدعوته الخالدة.

كما أرجو من الله تعالى أن يطرح البركة والقبولَ في كلِّ ما أكتب ، وأن يجعل كلَّ حرف وكلمة وجملة وصفحة وكتاب خالصاً لوجهه الكريم وعلى خطى ومنهج سيد المرسلين.

وأرجو من القارىء الكريم ألا ينسى العبدَ الضعيف من الدعاء بالسداد والتوفيق ، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وممّا زادني شَرَفاً وتِيْهاً ... فَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيا
دُخُولِي تَحْتَ قولِكَ يا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيّا

سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك[1]

* * *

---

(١) تشرف بالعناية بهذا الكتاب وما سبقه من هذه السلسلة المباركة (أركان الإيمان) الفقير إليه تعالى حسن السماحي سويدان غفر الله له ولوالديه بمنّه وكرمه.
دمشق غرة ربيع الأول ١٤٣٢هـ = ٤ شباط ـ فبراير ٢٠١١م.

فهرس الموضوعات

الإهداء ٤

المقدمة ٥

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً ١٣

ثانياً ـ تعريف الرسول لغة ١٤

ثالثاً ـ الفرق بين النبي والرسول ١٤

الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً ـ وجوب الإيمان الرسل الكرام ١٩

ثانياً ـ موجز تاريخ الرسل الكرام ٢٣

١ ـ من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم ٢٤

أ ـ إثبات الوحي والرسالة ٢٤

ب ـ تثبت النبي ﷺ في دعوته ٢٤

ج ـ دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات ٢٥

د ـ إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية ٢٥

٢ ـ الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ٢٥

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها ٢٦

رابعاً ـ حقيقة النبوة ٣٣

خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل ٣٥
سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل ٣٩
سابعاً ـ وظائف الرسل ومهماتهم ٤٠
١ ـ دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار ٤٠
٢ ـ تبليغ أوامر الله ونواهيه للبشر ٤١
٣ ـ هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم ٤٣
٤ ـ تقديم القدوة الحسنة ٤٥
٥ ـ تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة ٤٥
٦ ـ تعريف الناس بالقيم الحقيقية ٤٦
٧ ـ التعريف والتعليم والتزكية ٤٨
٨ ـ التذكير بفقه القدوم على الله ٤٩
٩ ـ قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية ٥٠
١٠ ـ الشهادة على الأمة وإقامة الحجة ٥١
١١ ـ التبشير والإنذار ٥٢
ثامناً: من أهم صفات الأنبياء والمرسلين ٥٣
١ ـ الذكورة ٥٣
٢ ـ الحرية ٥٤
٣ ـ البشرية ٥٤
٤ ـ الصدق ٦١
٥ ـ التبليغ ٦٥
٦ ـ الفطنة والحكمة وقوة الحجة ٦٧
٧ ـ الأمانة ٧٧
٨ ـ السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم ٨٠
٩ ـ العصمة ٨١
العصمة من الخطأ في التبليغ والتنفيذ ٨١
العصمة من المعاصي ٨٢

حقيقة العصمة ٨٢
العصمة ثابتة قبل البعثة وبعدها ٨٣
تاسعاً ـ شبهات حول عصمة الأنبياء ٨٦
أ ـ آدم عليه السلام ٨٧
ب ـ نوح عليه السلام ٨٩
ج ـ إبراهيم عليه السلام ٩١
د ـ يوسف عليه السلام ٩٧
هـ ـ يونس عليه السلام ١٠٢
و ـ عصمة النبي ﷺ ١٠٥
أدلة عصمته ﷺ ١٠٥
عصمته قبل مبعثه ١٠٧
إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته ١٠٨
عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ ١١٠
مسألة وقوع الخطأ منه ﷺ ١١٢
خلاف الأولى والأحسن والأفضل ١١٣
عاشراً: من اختلف في نبوتهم ١٣٣
١ ـ لقمان ١٣٣
٢ ـ ذو القرنين وتبع ١٣٣
٣ ـ الخضر ١٣٥
٤ ـ إخوة يوسف: هل هم الأسباط؟ ١٣٧

الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء وتفاضلهم فيما بينهم

أولاً ـ سمات دعوة الأنبياء ١٤١
١ ـ الربانية ١٤١
٢ ـ الإخلاص التام والتجرد عن الأغراض والدعوة الشخصية ١٤٢

٣ ـ الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة ١٤٢
٤ ـ التركيز على عقيدة التوحيد والتشديد في أمر الإيمان بالغيب ١٤٣
٥ ـ إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جلا وعلا ١٤٧
٦ ـ البساطة في الدعوة ومجانبة التكلف والتعقيد ١٤٨
٧ ـ وضوح الهدف والغاية في الدعوة ١٤٩
٨ ـ الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء ١٥٠
٩ ـ اختصاصها بالعلم النافع المنجي ١٥٢
١٠ ـ الإيمان بالآخرة والاهتمام بها ١٥٢
١١ ـ دعوة حضارية لها أسلوبها الخاص في الحياة ١٥٤
ثانياً ـ خصائص الأنبياء ١٥٦
١ ـ اصطفاؤهم بالوحي والرسالة ١٥٦
٢ ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ١٥٦
٣ ـ تخييرهم عند الموت ١٥٦
٤ ـ يقبر النبي حيث يموت ١٥٧
٥ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم ١٥٧
٦ ـ أحياء في قبورهم ١٥٧
٧ ـ لا يورثون بعد موتهم ١٥٨
٨ ـ إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته ١٥٨

الفصل الرابع
جوانب الاقتداء بهدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أولاً ـ هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد: ١٦٣
١ ـ شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه ١٦٥
٢ ـ كثرة ذكرهم لله عز وجل، وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه، مع قوة عبادتهم ١٧٠

٣ ـ كمال التوكل على الله ١٧٦
٤ ـ حسن الظن بالله والرضى بحكمه ١٧٧
٥ ـ الاستعانة بالله عز وجل ، والتبرؤ من الحول والقوة ١٧٩
ثانياً ـ هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق ١٨٠
١ ـ خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل ١٨٠
٢ ـ النصح للناس ١٨١
٣ ـ الصبر ١٨٢
٤ ـ الكرم ١٨٧
٥ ـ الوفاء ١٨٨
ثالثاً ـ التعرض للأذى والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل ١٨٩
١ ـ السخرية ورميهم تارة بالسحر ، وتارة بالجنون والسفاهة ، وتارة بالكذب والضلالة ١٩٠
٢ ـ القتل والسجن والإخراج من الأرض ١٩١
٣ ـ التضييق في الرزق ، وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي . ١٩٢
٤ ـ إثارة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة وجعلها أحزاباً وشيعاً ١٩٣
٥ ـ اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن ١٩٣
٦ ـ اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأنهم طلاب ملك ودنيا وليسوا مخلصين فيما ينادون به ١٩٣
رابعاً: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد ١٩٤
خامساً: مراعاة السنن الربانية ١٩٧
١ ـ سنة سوء عاقبة المكذبين ١٩٨
٢ ـ العاقبة للمتقين ١٩٨
٣ ـ الابتلاء سنة جارية للمؤمنين ١٩٩
٤ ـ سنة إناطة التغيير بالبشر ١٩٩
٥ ـ سنة زوال الأمم بالعلو والطغيان ٢٠٠

٦ ـ سنة إهلاك الأمم بالظلم والإجحاف ٢٠١
٧ ـ سنة لكل أمة أجل ٢٠١
٨ ـ سنة الأيام سجال بين الناس ٢٠٢
٩ ـ سنة نصر الله للمؤمنين ٢٠٢
١٠ ـ سنة التدافع بين الحق والباطل ٢٠٣
سادساً: أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء ٢٠٥
١ ـ الملوك ٢٠٥
٢ ـ الأغنياء المترفون ٢٠٦
٣ ـ الفقراء المستضعفون ٢٠٦
٤ ـ المطففون ٢٠٧
٥ ـ الشاذون ٢٠٧
٦ ـ المسجونون ٢٠٧
٧ ـ الأقربون ٢٠٧
سابعاً: تفاضل الأنبياء ٢٠٨
أ ـ التفاضل بين الأنبياء ثابت بأدلة الكتاب والسنة ٢٠٨
ب ـ وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتفصيل ٢٠٨
ج ـ أولو العزم من الرسل ٢١١
١ ـ تعيين أولي العزم ٢١٢
٢ ـ في تفاضل أولي العزم ٢١٣
٣ ـ بعض خصائص أولي العزم ٢١٥
٤ ـ تفضيل نبينا محمد على جميع الخلائق ٢١٨
د ـ توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأغنياء ٢٢٠

الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً: الوحي ٢٢٥
١ ـ تعريف الوحي في اللغة والاصطلاح ٢٢٥

٢ ـ أنواع الوحي ٢٢٥

ثانياً: إثبات النبوة ٢٣١

١ ـ الأنبياء أعدل الناس طريقة ٢٣١

٢ ـ معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين أبوا الإيمان ٢٣١

٣ ـ أنهم حصلت لهم أغراضهم النبيلة من النصرة والنجاة من الهلاك .. ٢٣٢

٤ ـ زهدهم في الدنيا واطراحهم للأهواء ٢٣٣

٥ ـ أن جمعاً منهم تمكنوا من الدنيا ، واستولوا على ما يحب الناس منها ، فلم تتغير لهم طريقة ، ولم تتحول لهم سجية ٢٣٤

٦ ـ قوة يقينهم بوعود الله ، وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله ٢٣٤

٧ ـ أنها ظهرت لأجلهم خوارق العادات وبواهر المعجزات ٢٣٥

٨ ـ عدم اختلافهم ٢٣٥

٩ ـ عجز من عاصرهم عن عد كذبة واحدة على واحد منهم ٢٣٥

١٠ ـ نسبهم وسيرتهم وأخلاقهم ٢٣٦

١١ ـ البشارة بمبعث خاتم الأنبياء ﷺ ٢٣٦

ثالثاً: المعجزات ٢٣٧

١ ـ تعريف المعجزة ٢٣٨

٢ ـ شروط المعجزة ٢٣٩

٣ ـ المعجزة قرينة الرسالة ٢٤١

٤ ـ سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء ٢٤٢

٥ ـ بعض معجزات الرسول ﷺ الحسية ٢٤٥

أ ـ انشقاق القمر ٢٤٥

ب ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ ٢٤٥

ج ـ الإسراء والمعراج ٢٤٦

د ـ معجزات أخرى ٢٤٦

رابعاً: القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى ٢٤٦

١ ـ الإعجاز اللغوي ٢٤٨

٢ ـ الإخبار عن أحوال الأمم السابقة ٢٤٩

٣ ـ الإخبار عن أحداث غيبية أو مستقبلية ٢٥٠
٤ ـ اتساق سور القرآن وتوافق آياته ٢٥١
٥ ـ الإعجاز التشريعي ٢٥٢
٦ ـ الإعجاز العلمي ٢٥٢
خامساً: الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر ٢٥٥
١ ـ الفرق بين المعجزة والكرامة ٢٥٥
٢ ـ الفرق بين الكرامة وخوارق السحر ٢٥٦

المبحث السادس

خصائص الرسالة المحمدية ، وحقوق النبي ﷺ على أمته

أولاً ـ خصائص الرسالة المحمدية ٢٦١
١ ـ إنها الرسالة الخاتمة والناسخة لما قبلها ٢٦١
٢ ـ إنها رسالة عالمية ٢٦٤
٣ ـ موافقتها للفطرة ٢٦٥
٤ ـ شمولها لمطالب البشرية في جميع الميادين ٢٦٨
٥ ـ اهتمامها بالعقل البشري وتميزها بالمنهج الفكري ٢٧٠
٦ ـ تحقيق المصلحة ودفع المفسدة ٢٧٤
٧ ـ سماحتها ويسرها ورفع الحرج عنها ٢٧٥
٨ ـ غنى مصادرها التشريعية ٢٧٨
٩ ـ دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل ٢٧٨
١٠ ـ حفظ الله تعالى للرسالة المحمدية ٢٧٩
١١ ـ شهادة أمة الإسلام على الأمم ٢٧٩
١٢ ـ السيرة المحمدية ٢٨٠
ثانياً ـ وضع العالم الإسلامي ومستقبله ٢٨١
١ ـ وضع العالم الإسلامي المعاصر ٢٨١
٢ ـ مستقبل الأمة الإسلامية ٢٨٣

ثالثاً ـ حقوق النبي ﷺ ٢٨٤
١ ـ الإيمان به ﷺ ٢٨٤
٢ ـ وجوب طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته والمحافظة عليها ٢٨٦
٣ ـ وجوب محبته ﷺ ٢٩٥
٤ ـ وجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه ٢٩٩
٥ ـ توقير النبي ﷺ في آله وأزواجه وأمهات المؤمنين ٣٠٩
٦ ـ توقيره ﷺ في أصحابه رضوان الله عليهم ٣١٢
٧ ـ الصلاة والسلام على النبي ٣١٥
الخاتمة ٣٢٠
فهرس الموضوعات ٣٢١

* * *

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل وأحداث .
٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٧ ـ الدولة العثمانية : عوامل النهوض والسقوط .
٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم .
٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقية .
١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي .
١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين .
١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .
١٣ ـ الدولة الأموية : عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار .
١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان : شخصيته وعصره .
١٥ ـ عمر بن عبد العزيز : شخصيته وعصره .
١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير .
١٧ ـ عصر الدولة الزنكية .
١٨ ـ عماد الدين الزنكي .
١٩ ـ نور الدين محمود .
٢٠ ـ دولة السلاجقة .
٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد .
٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني .
٢٣ ـ الشيخ عمر المختار .
٢٤ ـ عبد الملك بن مروان بنوه .
٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة .

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بين الصحابة .
٢٧ ـ وسطية القرآن في العقائد .
٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان .
٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني .
٣٠ ـ دولة المرابطين .
٣١ ـ دولة الموحدين .
٣٢ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج .
٣٣ ـ الدولة الفاطمية .
٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي .
٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس .
٣٦ ـ استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ : دروس مستفادة من الحروب الصليبية .
٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء .
٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) .
٣٩ ـ المشروع المغولي : عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار .
٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك .
٤١ ـ الإيمان بالله جلّ جلاله .
٤٢ ـ الإيمان بالملائكة .
٤٣ ـ الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية .
٤٤ ـ الإيمان باليوم الآخر .
٤٥ ـ الإيمان بالقدر .
٤٦ ـ الإيمان بالرسل والرسالات .
٤٧ ـ الشورى فريضة إسلامية .
٤٨ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية .
٤٩ ـ الحريات من القرآن الكريم .
٥٠ ـ الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها .
٥١ ـ المعجزة الخالدة .

* * *

المؤلف في سطور

● ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م).

● حصل على درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز، وكان الأول على دفعته عام (١٤٣١ ـ ١٤١٤هـ) الموافق (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣م).

● نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين ـ قسم التفسير وعلوم القرآن عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

● نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بمؤلَّفه: فقه التمكين في القرآن الكريم ـ جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام (١٩٩٩م).

● له باع طويل في الدعوة إلى الله تعالى، وحضور في مجالس العلم.

● له يد بيضاء في كثير من المنتديات واللقاءات والبرامج الإعلامية.

● غزير الإنتاج، واسع العلم، لبق الحديث، يجادل بالتي هي أحسن. يتميز بأسلوب سهل ممتنع.

● وله كثير من المؤلفات، ومنها:

١ ـ السيرة النبوية.

٢ ـ سير الخلفاء الراشدين.

٣ ـ سلسلة أركان الإيمان.

٤ ـ العدالة والمصالحة الوطنية.

٥ ـ الدولة الحديثة الإسلامية.

٦ ـ الحريات من القرآن الكريم.

● الموقع الرسمي للدكتور: http://www.alsallaby.com

● البريد الإلكتروني: abumohamad2@maktoob,com